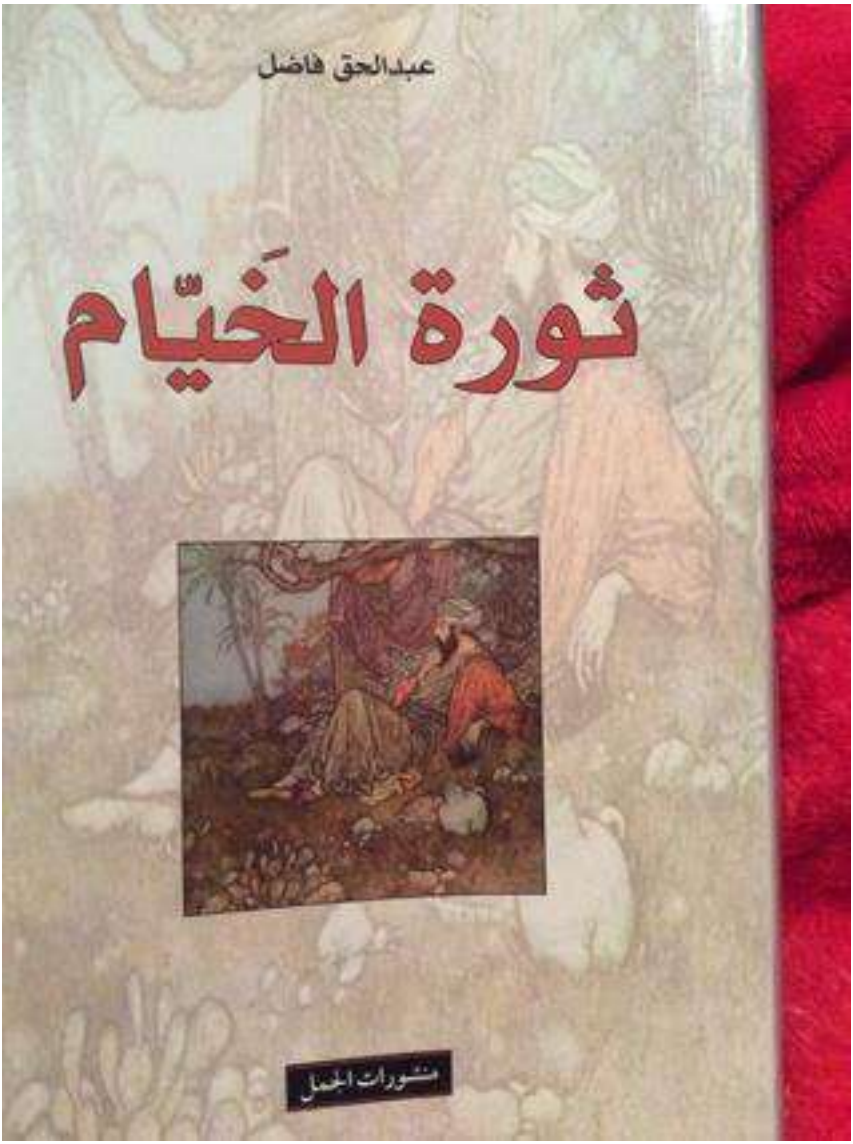
عبدالحق فاضل
ثورة الخَيّام
منشورات الجمل

عبد الحق فاضل

ثورة الخيّام

منشورات الجمل

وُلِد عبد الحق فاضل في بغداد عام ١٩١١وهو كبير أبناء الشاعر الموصلي فاضل حامد الصيدلي. أنهى عبد الحق دراسته الابتدائية في الموصل وأكمل دراسته الدينية في كلية الإمام الاعظم، توظف في الديوانية ثم إلتحق بكلية الحقوق تخرج فيها عام ١٩٣٥ومارس المحاماة في الموصل وأصدر مع زميله المحامي يوسف الحاج إلياس مجلة (المجلة) التي تُعَد واحدة من اهم المجلات الثقافية الصادرة في الموصل في أواخر الثلاثينات، ونشر فيها شعره وقصصه ومقالاته النقدية، ويُعد عبد الحق فاضل رائداً للنقد الادبي في الموصل. وإنتقل إلى السلك الدبلوماسي عام ١٩٣٩ وشغل وظائف عدة في السفارات العراقية في الخارج: تبريز ودمشق والقاهرة وروما. وعُيّنَ وكيلاً لوزارة الخارجية عام ١٩٠٨ وعُيّنَ سفيراً للعراق في الصين عام ١٩٦٠ وبقي في منصبه هذا حتى إستقال من الخدمة عام ١٩٦٣ وإستقر في مراكش مشرفاً على مجلة (اللسان العربي) التي يصدرها مكتب تنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية حتى عام ١٩٩٢ وأُصيب في حادث طريق وعاد إلى العراق ليموت في وطنه.

عبد الحق فاضل ثورة الخَيّام

الطبعة الاولى ٢٠١٣

كافة حقوق النشر والترجمة والإقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد - بيروت ٢٠١٣

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ - ٠١ - ٣٥٣٣٠٤
ص. ب: ٥٤٨٣ -١١٣ بيروت - لبنان
AI-Kamel Verlag 2013
Postfach 1127 -71687 Freiberg a. N. Germany www.alkarael.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الإهداء

حُلوَتي أنتي حَياتي، أنتي أرضي وسَمائي!
قد دخلنا جنّة الحُبِّ برغم الخُفراء؟
ونَهلنا مِن أفاويقَ شقاءٍ وهَناء!
فهَل إستعذَبتِ يا ليلايَ حُب الشُعراء؟!

***

قَد تزوَّجنا زَواج الرُوح في دُنيا التراب
عَقَدَ الحُبُّ لنا العَهدَ على شَرعٍ عُجاب
فإليكِ الآنَ أُهدي، يا مُنى النفسِ: كتابي
وهوُ ذِكْرٌ، وهوَ شُكرٌ عَن نَعيمي وعَذابي!

عبدالحق

تقديم

بقلم العلامة الجليل الدكتور أحمد أمين بك

عُـرِض على "لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر" طبـع كتـاب (ثـورة الخَيّـام) للأستاذ عبد الحق فاضل، وقد قرأته وأستحسنتُ نظمه، ورباعيات الخَيّام غنيـة عـن التعريـف فقـد تُرجِمَت إلى لغـات كثيرة، بعضـها تَرجمـات حرفيـة وبعضها ترجمات استوحى فيها المترجمون روح الخَيّام ولم يتقيّدوا بمعناه، كما فعل فتزجرالد. وقد أقبل عليها المعاصرون إقبالاً كبيراً لأنها تتفق وروح العصر من حيث الملل من الحياة والإستعانة على هذا الملل بالإنغماس في اللذات. وقديماً سَلك الناس مسلكين متناقضين لمحاربة هذا الملل، أحدهما الزُهد فيها، كما فعل أبو العتاهية وأبو العلاء، والثاني الانغماس في لذّاتها كما فعل أبو نواس والخيّام. وقد تُرجمت هذه الرباعيات إلى اللغة العربية مراراً وتقبَّلها الناس قبولاً حسناً، لِما فيها من شذوذ أحياناً ودعوة إلى الإمعان في اللذة أحياناً. وأنا لا أوافقه على هذه الدعوة ولا على هذا الشذوذ لأنه كما قال الفيلسوف كَنْت «إذا أردت أن تعرف شيئاً أصحيحٌ هو أم فاسد فَعَمِّمهُ»، ونحن لو عَمَّمنا هذا المسلَك لكانَ الناس كلهم إباحيين مُتلذِّذين بوهِيميين لا يأبهون لشيء إلّا للخمر والنساء، ولو تصوّرنا مجمعاً هذا شأنه لكان مجتمعاً منحطاً يُسرع إليه الفَناء. فكل مجتمع إنما يبقى بتحمّل أعبائه وبمقدار ما فيه من حياة الجد مشوبة بقليل من اللذائذ، لا بحياة لذيذة ليس فيها شيء

من الجد. غير أنه هو نفسه قد يكون أدرك هذا العنى فلم يحيى الحياة التي دعا إليها بل كان فقيهاً عالماً بالرياضيات مخترعاً فيها، وهذا كله جَدٌّ لا لَهو. والمؤمن إيماناً تاماً بدعوته ليس أقل من أن يسير عليها هو نفسه، أما أن يكون عمله في جانب ودعوته في جانب فإن دلَّ على شيء فإنما يدل على عدم الإخلاص التام في أحدهما.

لقد وقفنا كثيراً عند مهاجمته للدين وللسماء ولعله في ذلك مُقلّد لأبي العلاء المعري في لزرمياته، ولكنا إعتدنا أن نسمع من مشايخنا قولهم: "ناقل الكفر لس بكافر"، واعتقدنا أن هذه النزعات سواء من الخَيّام أو من أبي العلاء لا تحدث إلّا فورة وقتية لا تلبث أن تزول، وأنهما إن كفر لسانهما أحياناً فإن قلبهما لا يفارقه الايمان، كالذي قيل عن "هيغل" الفيلسوف الألماني الشهير أنه كفر عقله وآمن قلبه. ونحن في حياتنا اليومية المُشاهَدة كثيرة ما نرى أفراداً ممتازين يؤمنون كل الإيمان ولكن قد تحدث لهم فورة وقتية بسبب حدوث كارثة فظيعة لهم، أو نزول مصيبة فادحة في أموالهم أو أنفسِهم أو نحو ذلك فيجانبهم الإيمان في تلك اللحظة ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى إيمانهم. فلعل الخيام كان من هذا القبيل، وجد الحياة كلها بؤساً وغَماً، ووجد الناس كالكلاب ينهش بعضهم بعضاً، ووجد عاقلاً بائساً وأحمق غنياً، فلم يجد مخرجاً له إلّا الزندقة أحياناً ثم تهدأ ثورته فيعود إلى دينه.

لقد صدق عمرو بن العاص إذ قال: "ليس العاقل من لم يعرف الشر من الخير، إنما العاقل من عرف الخير والشر، ثم تجنَّب الشر". فلا بأس أن يُعرَض على أنظارنا خيرٌ وشَر، بل لا بأس أن يُعرَض على أنظارنا خير كثير وشر

كثير، فتفعل الخير عن عِلم وتتجنَّب الشر عن عِلم. على هذا الأساس أقدمنا على طبع هذا الكتاب لنضع بين يدي القارئ خيراً كثيراً وشراً كثيراً، ثم يأخذ كُلٌّ ما يُرشده إليه عقله وطبيعته كما يأخذ الحنظل والورد، فكُلٌّ يجد في الأرض غذاءه الصالح له. فنشر رباعيات الخَيّام على وضعها هذا خدمة للمجتمع، وخدمة للتاريخ، وخدمة للأدب العربي. ولناقلها على هذا الوضع أيضاً الشكر الجزيل، فليس يعرف ما لاقى من عناء إلّا مَن حاول أن ينقل الشعر من لغة إلى لغة، مجتهداً أن يُحافظ على معاني المنقول منها إلى المنقول إليها، وعلى روحها وحُسن وقعها وتنغيمها. فالله يجزل أجره ويُعظِّم مثوبَته.

١٩٥١/١٠/٢٩

أحمد أمين

مقدمة الطبعة الفارسية

مُتَرجمة عن كلمة للعالم المحقق الإيراني

أقاي سعيد نفيسي

مهما بلغ امرؤ مثلي من إنكار القضاء والقدر، وعَدَّ كل أمر نتيجة للهمة والتوثّب، فهو يجد بين حين وحين نماذج عجيبة تجعله يَجنح إلى الحَظ والإقبال ويؤمن بالمقدور من خير وشَر، أرادَ أم لم يَرِد.

وإن أحد شؤون الدنيا العجيبة هذه لَهُوَ الحظ الذي أصابته رباعيات الإمام حجة الحق غياث الدين أبي الفتح عمر بن إبراهيم الخَيّام النيسابوري، الحكيم النحرير، والعلامة الإيراني الإسلامي الكبير.

كان البُلَغاء في الدنيا كثيرين، وطفقت أقوالهم تشع نوراً في قلوب بني آدم، وتجيش حماسَةً وغِبطة مدى قرون. وكثيراً ما حام حولهم الرواة والمترجمون ونقلوا أقوالهم المحيية إلى اللغات الأخرى، ولكن قلما اتفق لمترجم أن أدّى إلى اللغة الثانية ما للقول في لغة الأصل من فصاحة وروعة وبلاغة. حتى أن أكثر المترجمين، مهما أوتوا من مقدرة وتسلّط، لم يستطيعوا أن يؤدوا فكرة ذلك القائل حق الأداء.

لهذا لا يزال من يُريد أن يُدرك قيمة طرفة فنية ونفاستها، مضطراً في كثير من

الأحوال إلى تعلم لغة الأصل وتفهّم جمالاتها، لكي يستطيع أن يستمتع بها ويفوز بمأربه منها كاملاً. إن القوالة الوحيد الذي أعرفه من بين كل هؤلاء البلغاء، والذي هيّأ له سعد طالعه مترجماً بالغ التفوّق مرّتين، فخرقا هذه القاعدة الكلية، هو خيّامنا النيسابوري. أولاهما أن إدوارد فتزجرالد الإنكليزي، وهو في لغته شاعر فذ، كان قد إستهوته أقوال هذا الحكيم الرياضي السموية ومنطقه الرائع قبل خمسة وتسعين عاماً، فصاغ بعضاً من الرباعيات المنسوبة إليه شعراً بالإنكليزية. ولقد لقي عمله هذا من الإستحسان ما أصبح معه الخَيّام أشهر شعراء آسيا في العالم المتمدن، وطُبِعَت ترجمات رباعياته بالإنكليزية أكثر مما طُبعَ أيٌّ من كتب هذه اللغة، وتُرجِمَت بلغات الشرق والغرب أكثر مما تُرجم أي أثر أدبي آخر. وفي هذا العام، في عاصمة وطن الخَيّام أيضاً، حظي بهذا الجد الرفيع فتصدى أديب متمرّس ساحر، لترجمة رباعياته بلغة العرب.

في صيف هذا العام، لما سزني الشاعر المفلق أقاي عبد الحق فاضل قنصل العراق في طهران [١] برؤيته، وتلا عليَّ بعض رباعيات الخَيّام التي ترجمها حد يثاً باللغة العربية بمقدرة بالغة وحذق يبعث الدهشة، عاودت ذهني نفس الفكرة، وهي أن هذا الحكيم النيسابورى الكبير أسعد شعراء الدنيا حظاً في الحقيقة إذ يُتاح له مثل هؤلاء المترجمين والمعرّفين الأفذاذ، في مختلف اللغات.

---

(١) - الآن في القاهرة

إنّي من ذلك اليوم الذي عرفت فيه غرّيد أرض العراق الكبير، وأدركت هذه المهمة الشاقة التي وفّاها حقها بكل هذه البراعة -أصبحتُ وكُلّي أمل وإنتظار لذلك اليوم الذي يطبع فيه هذا الأثر الخطير، عاجلاً ما أمكن، وينتفع به هواة الأدب ويُدركون لبانتهم منه.

كان المؤلف المحترم قد إستودعني كتابَهُ «ثورة الخَيّام» قبل طبعه، وقد قرأته قراءة إمعان. لم يبلغ أحد حتى هذا المنحى وهذه الدرجة من الكمال في تحليل نفس الخَيّام وإكتناهها، وتمحيص أفكاره.

لقد إستهواني هذا الكتاب إلى حد صرت معه أترصّد بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي أقرأ فيه نسخته المطبوعة أيضاً مراراً عديدة أخرى. وإني لا أعرض هذه الأمنية جاداً كل الجد بلسان القلم وحسب، وإنما أنا أشكر كذلك أقاي عبد الحق فاضل عن كل الإيرانيين وعن كل عشاق آثار الخَيّام أن هيأ مثل هذا السفر الخطير، وعَرَّف الحكيم الإيراني الكبير، بكل هذه المقدرة والبصيرة الثاقبة، إلى أبناء الدنيا.

طهران ٢ دیماه ١٣٢٩

١٩٥٠/١٢/٢٣

سعيد نفيسي

أستاذ تاريخ الأدب وتاريخ التصوّف وتاريخ التمدّن في جامعة طهران،

العضو الدائم في المجمع العلمي الإيراني

الباب الأول

الخَيّام

توطئة

وُلد عمر الخَيّام في نيسابور ووُلِدتُ في بغداد، وعاش في القرن الخامس الهجري، وعشت في القرن السابع عشر، وهو آري فارسي، وأنا سامي عربي - ولكني بالرغم من هذا البون الشاسع في المكان والزمان والأُرُمية، أجد كأن بيننا عاطفة من الود والتعارف. وأحس لطول ما صحبته في رباعياته على الأخص - كأنه لا يزال حياً يعيش في مكان ما، وأتصوّره أحياناً في الغرفة المجاورة، يُقرِض الرباعيات حتى لأكاد أسمع صرير قلمه، وغمغمة صوته؛ أو يُلقي محاضرة على تلاميذه في الفلك أو الفقه، أو في الطبيعات.

ولعل هذا قد أعانني على فهمه.

وقدأثرتُ الإيجاز في هذا البحث فلم أتطرق إلى الشائع المعروف من أخباره وسيرة حياته مما تجده في مآثر الكتب، إنما اقتصرت على ما كان لي فيه رأي جديد، أو نظرتُ فيه من زاوية جديدة، أو خالفت فيه جمهرة الخيّاميين - إلّا ما إقتضاه سياق الموضوع من إستطراد أو إستشهاد.

الترجمة

يَضُم هذا الكتاب بين دفتيه أكبر عدد من رباعيات الخَيّام تُرجم إلى العربية قط، نظماً أو نثراً. وليست العبرة بالعدد بطبيعة الحال، ولكنني إعتمدتُ في الترجمة ست نسخ فارسية، في كُلٍّ منها من الرباعيات ما ليس في الأخريات. فجعلت أتعقّب في أنحائها كل رباعية شَرود، شأن الصيّاد، فكلما وقعمت عيني على واحدة تمثل جانباً من جوانب تفكير الخَيّام أو فلسفته إقتنصتُها ووضعتها لك في قفص من العروض. فوقعت في هذه المجموعة رباعيات لم يسبق ترجمتها إلى العربية، هي من خيرة ما جادت به قريحة الحكيم الفارسي، ومنها ما لم يكن معروفاً منذ بضع سنوات أنه للخيام، مما كشف عنه الباحثون أخيراً.

وقد توخّيت في ترجمتي كل دقة ممكنة، حتى جاءت بمطابقتها الأصل الفارسي وكأنها ترجمة لفظية. وحرصتُ على أن يكون المبنى وعاء للمعنى وحَسْب، فهو سهل واضح لم أجنخ فيه إلى تعقّد ولا تنطّع، ولا تكلّفت من البلاغة إلّا إجتناب الركاكة، ولا إستلمتُ إلى تلك الشوائب اللغوية التي يسمونها ضرورات الشعر - ما إستطعتُ إلى ذلك سبيلاً.

فإن كنتُ لم أبلغ من ذلك ما يرضيك ويرضيني، فعزائي أنه ما من ديوان في العربية يخلو من حشو أو ركاكة، مع ما للشاعر المفصح عن خوالج نفسه من حرية في تصريف معانيه وألفاظه، خلافاً للمترجم عن أفكار غيره. ولستُ أريد

بهذا إعتذاراً لنفسي فإني لا أَعذِر فنّاناً على التهاون في فنّه والتقصير في تجويده وإتقانه. ولكني إنما أريد تذكير القارئ بما في ترجمة الشعر من لغة إلى شعر في لغة أخرى من مشقة بالغة، ولا سيما إذا أراد المترجم أن يكون أميناً في نقل المعنى، دقيقاً في أدائه. ويعلم الذين زاولوا ترجمة الأدب اللباب - ولو مِن نثر إلى نثر - ما في توخّي الدقة من إرهاق ومتاعب، فأما توخيها في ترجمة الشعر شعراً فضربٌ من الأهوال أُوثر أن أعفي القارئ من وصفه.

على أن نقل المعنى من لسان إلى لسان لا يُغني وحده عن الأصل شيئاً، فيا رُبَّ معنىً يتناوله شاعر فيهزك ويطربك، ثم تقرأ نفس المعنى لشاعر آخر، فإذا هو جامد ميت لا يبعث فيك حِسّاً ولا يُهيّج شيئاً. فلهذا حاولت أن أنقل مع المعنى روحه وملاحته.

ولكل رباعية صورة ذهنية لها ألوانها. فلعلّي ما أضعفتُ لها لوناً، ولكني إجتهدتُ أن أُقوّيها وأُوضحها - حيثما إستطعت - وما فَوَّت نكتة، ولا قدّمت وأخّرت، ولا حَوَّرت - حيثما يكون في ذلك إفسادٌ لمعنى، أو تشويه لصورة، أو إغفال للفتةً ذهنية. وإنما سَعيتُ جهدي أن أنقل لك الخَيّام بأسلوبه وطلاوته مع تشابهه وإستعاراته كما هي. فإذا هو شَبَّه القَد بالسروة لم أذكر البان، وإذا قال «ثقبوا دُرَّ المعاني» لم أقل «إبتكروا المعاني، أو سبقوا إليها، أو افتضّوا أبكارها»، فأنا إذن لم أنقل هذه الرباعيات الفارسية إلى الذوق العربي، إنما حاولتُ أن أنقل الذوق الفارسي والأسلوب الخيّامي إلى قُرّاء العربية.

وإن كنتُ قد أبحتُ لنفسي شيئاً من التصرّف، فإنما هي ضرورة الوزن والقافية، تقتضيني كلمة أُضيفها أو أحذفها، فلا تضير المعنى إضافتها ولا

يُفسده حذفها، حتى لا تكاد تحس بها في الحالين. وقد أضطر الخَيّام نفسه إلى النزول على أحكام هذه الضرورات في لغته، فأوجز بعض معانيه كُلَّ إيجاز، ومط بعضها كُلَّ مَط. ولا بُد للمترجم من إختزال هذه وإيضاح تلك - وقد فعلتُ من ذلك ما وأتاني.

ولكن الخَيّام يُكثِر من ذِكر الخد والطُرّة من محاسن المِلاح، فذكرتُ معهما ما تيسَّر من مفاتن أُخريات، دفعاً للتكرار، وحباً بالتنويع.

هذا إلى أن بعض الرباعيات يختلف نصّها الفارسي بإختلاف الروايات، وقد وازنتُ بينها وتخيّرتُ منها ما بدا لي أنه أقوَم وأجمل. وثمّة رباعية قبيحة يجعلنا ما فيها من فاحش القول نعتقد أنها ليست للخيام، وقد هذّبتها. وإليكَ ترجمة الشطرين الثالث والرابع منها:

«أنا لا جُرمَ لي خلافاً للشَرْعِ، يا أهل الصَلاح»،
«سوى الغدرُ واللواطة والزنا.....».

وقد ترجمتها هكذا:

أنا يا أَهلُ التُقى لم أرتكب في الشَرْع إثما
طول عمري، غيرَ كُفرانٍ، وسُكرٍ، وزنا

وهذا بالخيّام أجمل، وإلى طراز تفكيره أقرب. وحَسبي أن نبّهتُ القارئ إلى أن هذه الرباعية قد لا تكون للخيام أصلاً. وأمثال هذا التحوير في هذه الترجمة نادر على كل حال.

التكرار

وآفة هذه الرباعيات هذا التكرار الملعون الذي ضقتُ به ذرعاً، وعسى ألّا يضيق به القارئ. فإن بعضها مُعاد بنصّه تقريباً، وبعضها نجد جانباً من معناه في رباعيات أخرى. والغالب أن يكون نصف الرباعية مقدمة ونصفها نتيجة، وكثيراً ما تتكرر المقدمة وحدها هنا والنتيجة وحدها هناك، لتؤدّي كُلٌّ منهما وظيفة أخرى في أداء معنى آخر. ذلك بأن الخَيّام نظم رباعياته في أوقات متباعدة، فإذا عاوده نفس المعنى أفرغه في قوالب شتّى، أو تناوله من نواحٍ متبايتة. فصار يُكرر نفسه شكلاً أو إستعارة او تشبيهاً أو موضوعاً أو مغزى - مع شيء من الاختلاف قليل أو كثير. ولم أجد علاجاً للأمر غير الحذف، ولكن التكرار لا يزال موجوداً بالرغم من كثرة ما حذفت. ولو قد نبذت كل رباعية تكرَّرَ بعض معناها لما بقيَ منها إلّا القليل، ولو حذفت من كل رباعية ما تكرر من معناها لما بقي من بعضها غير شطرٍ واحد. وقد إطَّرحتُ كذلك رباعيات أخريات لتفاهتها، أو لثبوت بطلان نسبتها إلى الخَيّام، مما ينسجم مع نفسيته وتفكيره، كهذه الرباعية:

إن نَكُن جِئنا إلى المسجِدِ نَمشي خاشعين
فلعمري لم نجئ كيما نُصلّي طائعين!
إنما كُنّا سَرقْنا مِن هنا سِجّادةً
ولقد رَثَّت فجِئنا بسواها طامعين!

وكهذه الرباعية:

عندما تاقَ فؤادي لصلاةٍ وصيام
قلتُ: ها قَد تَمَّ لي ما كنتُ أرجو مِن مَرام
ضِلّةٌ لي، فوُضوئي نَقَضتْهُ نَسمَةٌ
وصِيامي أبطلَتْهُ رَشَفاتٌ مِن مُدام!

وما إلى ذلك من رباعيات كثيرة شائعة على ألسنة قُراء الخَيّام وهي ليست له. وقد بلغ ما حذفتُ نحواً من خمسين رباعية، بعد أن عانيت ما عانيت في نضمها. ولم تَجُد نفسي بأن أطرح منها أكثر من هذا، فإن شاء القارئ فليشطب بالقلم ما لا يُعجبه منها.

تمحيص الرباعيات

تكثُّر الخيَام

وأخالُ أن الذي زعمتُ من دقة ترجمتي ومطابقتها الأصل الفارسي خليقٌ بأن يسوّل للباحث العربي أن يعتمد هذه المجموعة في درس فلسفة حكيمنا الشاعر وبحث آرائه في الكون والحياة والممات. فمن الحق عليَّ إذاً أن أُنبّهه إلى أمر قد لا يروقه أبداً، وهو أني لستُ على يقين من أن هذه الرباعيات التي يَقرأ هي رباعيات الخَيّام حقاً. فما من مُحقّق خيّامي يسعه أن يجزم بأن معشار تلك الرباعيات التي تُعَد بالألوف والتي تكتظ بها النُسَخ المختلفة - للخيام حقاً، كما يسعكَ أن تقطع بأن:

غيرُ مُجْدٍ في مِلَّتي وإعتقادي
نَوْح باكٍ ولا ترنّم شادي

لأبي العلاء المعرّي، وأن:

مغاني الشِّعب طيباً في
بمنزلةِ الربيع من الزمانِ

لأبي الطيّب المتنبي.

ذلك بأن عمر الخَيّام، فيما يبدو، لم يجمع رباعياته في حياته كما جمع أبو الطيب ديوانه، وكما جمع أبو العلاء لزومياته، وسقط زنده. ولعل الخَيّام قد جمع رباعياته، بيد أنه لم يستطع أن يُظهِر االناس عليها إلّا خاصة أصدقائه

ومُريديه، من الذاهبين مذهبه في التفكير. وأنا أكاد أجزم أنه كان كَتَمها عن أهل زمانه خيفَةً على نفسهِ من مغبّة ما فيها من خروج على الدين، وثورة. قال في إحدى رباعياته:

فُصِّلَت أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاتر
قد طويناها، ففي النَشْرِ وَبالٌ ومخاطر
لم نَجد في الناسِ من يَعقلُ من أهل البصائر
فغدا يُعجزِنا إظهار ما تُخفي الضمائر

وقد إتّهموه بالكفر حتى خشي أن يفتكوا به، بل قد أخبرنا في رباعيةٍ له طريفة أن القوم إتّهموه كذلك بالفلسفة:

يَتَظنّى الشَانِئ الواهِمُ أنّي فَيلسوف
عَلِمَ الله بأنّي لا كما قالَ السَخيف
بَيْدَ أنّي وأنا في وكرِ أتراحٍ وبؤس
لا أقَلَّ الآن أن أعرف فيهِ كُنْهَ نفسي!

فهو يتنصّل من التهمة ويُشهد الله على براءته منها مُدّعياً أنه أراد أن يعرف نفسه ليس إلّا. وذلك دفاع فيه مكرٌ كثير، لأن معرفة النفس هي باب الفلسفة في مذهب سقراط ومُشايعيه. ولكن يظهر أن عمر الخَيّام كان يعتمد على جهل مُتهمِيه. ووجة الإتهام بالفلسفة والتنصّل منها هو أنها كانت تَوأم الزندقة في عُرف القوم. وقديماً قالوا: من تَمنطَقَ تزندَقَ! فرجلٌ هذه حاله، في جيل من

الناس كذلك الجيل المتمسّك بأهداب الدين، يسوسه المتعصبون من رجاله الذين كان يُكفّر بعضهم بعضاً ويفتي بقتله لخلافٍ يسير في الرأي، ما كان يسعه أن يُعلن على الملأ رباعياب له حريفة الطعم، لاذعة التهكّم، فيها مروق عن الدين، وتنديد بالمُرائين من رجاله، وفلسفة.

ونحن ما زلنا في هذا القرن العشرين، نشهد في بلادنا العربية مفكرين لا يجدون مناصاً من كتمان آراء لهم في الدين أو الإجتماع أو السياسة، مخافة غَضْبة مضرية تحل نقمتها عليهم من رجعية أو جَهالة أو حكومة...
وكثيراً ما حَلَّت.

على أن الخَيّام كان بالرغم من هذا، وأحياناً بسبب هذا، ينظم الرباعيات اللاذعة (ولعل ألذعها وأوجعها ما نظمه أيام تكفيره) ويتلوها حين تُتاح له الفرصة على مَن يأمن جانبه من خاصة صحابتِهِ والمُعجَبين به من أهل طريقته. فكان بعضهم ولا شك يحفظها، وبعضهم ينسخها ويتلوها بدوره على أصدقائه.
فلما توفي الشيخ الحكيم كانت رباعياته متفرّقة في بطون الدفاتر وعلى أفواه الرُواة. وإذا كان هو قد ترك نُسخة في منزله أو نُسَخاً لدى رُواتِهِ وتلاميذهِ تضم رباعياته كاملة، فأمر لا نعلم عنه شيئاً. ولكن بعضهم قد حاول من غير شك أن تكون له نُسخة كاملة، ولعل بعض مُريديه قد نسخ ما ليس لديه منها عن بعضِهِم، فتمَّ لهم من ذلك ما أرادوا، أو لم يتم لهم من ذلك ما أرادوا.

أختلاط الرباعيات

وقد جهد الباحثون من المتأخرين أن يظفروا بإحدى هذه النسخ القديمة فأخفَقوا. وكانت أقدم ما وقعت عليه أيديهم هي النسخة المعروفة بنسخة بودلين Bodleian المحفوظة في أكسفورد. وقد كُتِبت سنة ٨٦٥ هـ، أي بعد وفاة الخَيّام بثلاثة قررن ونصف قرن. ونحن بعدُ لا نعرف المصدر الذي أُخِذ عنه جامع هذه النسخة، ولا مَبلَغ ما يحقُّ لنا أن نُنيط بها وبه من ثقة. وقد وردت فيها رباعيات ثبت أنها منسوبة دخيلة.

ولا تحتوي نُسخة بودلين هذي إلّا على ١٥٨ رباعية، أما النُسَخ التي تليها تاريخاً، فهي كلما كانت أحدث عهداً كان ما تحتويه من الرباعيات أكبر عدداً، حتى أن نُسخة طُبِعَت في طهران تضم نحواً من ألف رباعية. ويُخمَّن مجموع ما يُعزى من الرباعيات إلى الخَيّام في مختلف النُسَخ الرائجة بنحو خمسة آلاف رباعية [١].

إن الذي لدينا من أخبار الخَيّام نفسه وأطوار حياته جدُّ قليل، وما نعرف أن أحداً من معاصريه - على قلة من كَتبَ عنه منهم - قد أشار بكلمة إلى الرباعيات. وأما الذين أشاروا إليها وذكروها فكلهم قوم لم تقع أعينهم على الخَيّام، فأعتمدوا على السمع بعد آماد طويلة لا يوثق معه بالسماع وحده.

---

(١) المستشرق الألماني الدكتور فردريك روزن - مقدمة (رباعيات حكيم عمر خيّام) وهي النسخة التي وقفتُ على طبعها بالفارسية في مطبعة (كاوياني) ببرلين سنة ١٣٠٤ شمسية. أي ١٩٢٥م. وقدّم لها بمقدمة ضمّنها نتيجة بحوثه في الخَيّام ورباعياته.

ومهما يكن من الأمر، فإني أحسَب أن المعجبين بالخيّام طفقوا بعد وفاته ينسخون الرباعيات بعضهم عن بعض، حتى خرجت من أيدي خاصة الخَيّام إلى أيدي عامة الناس. وكانت طرافة الرباعيات وما فيها من روعة في التعبير، وإفصاح عن خوالج الكثيرين من مثقفي ذلك العصر المتلاطم الآراء، المتباين النزعات - باعثاً للشعراء ممن أُولعوا بالخيّام على أن ينسجوا على منواله في نظم الرباعيات، حتى كثر ما نُظم منها على طريقته كثرةً عظيمة. وإذا بالخيّام يغدو إمام مدرسة في الشعر والفكر.

ولم يشتهر أحد من هؤلاء المقلديه . ولعلّهم كانوا يكتمون أمرهم مثله، بل لعل بعضهم كان يعزو بعض رباعياته إلى الخَيّام تنصّلاً من تبعتها. فإنضافت رباعيات هؤلاء إلى رباعياته.

ولم يقتصر نظم الرباعيات على هؤلاء الخيّاميين المفلسفين الذين ظلّوا يتساءلون عن أسرار الكون وغاية الحياة والموت، يناقشون مسائل الدين والكلام مناقشة أقرب إلى الإنكار أحياناً، وهي الإنكار بعينه أحياناً، غير قانعين بما يجدونه لدى الدين من أجوبة عليها. وإنما كان للأتقياء المؤمنين كذلك رباعياتهم يذبّون بها عن حياض الدين ويردّون ريب المرتابين وكفر الكافرين، فيها وعظ وفيها تذكير، وفيها قنوت وخشوع.

وكان للمُجّان كذلك رباعياتهم، فيها خمر وفيها صبابة وفيها خلاعة. يتغنون بها في الحانات، على أنغام المزاهر ورنّات الأقداح. وكان للمتصوفة رباعياتهم يترنّمون بها في حلقات أذكارهم، فيها غزل ونسيب، وفيها مناجاة و(شطحات). بل إنهم كثيراً ما ترنّموا برباعيات الخَيّام، أو برباعيات الماجنين الخُلَعاء،

من باب الوجد والشطح!
وكان للزُهّاد رباعياتهم يعبرون بها عن عزوفهم عن عرض الحياة الدنيا وأطماعها، في ذلك العصر الذي كثرت فيه الفِتن وفشا التكالب على الجاه والسلطان، فكان طبيعياً أن يفشو فيه الزهد والإنزواء.

وقد أختلطت هذه الرباعيات كلها برباعيات الخَيّام، إختلاطاً أصبح يتعذّر علينا معه أن نُميّز بينها ونرد كُلّا منها إلى صاحبها، ولا سيما أن أصحابها مجهولون لم يسجل التاريخ أسماً لأكثرهم. والمعروفون منهم لم يشتهر أحدهم شهرة الخَيّام، فأصبحت كل رباعية متشرّدة لا صاحب لها تنتمي إليه.

وكانت الرغبة في إستكمال الرباعيات وعدم تفويت شيء منها يجعلان النُسّاخ يضيفون إلى نسخهم كل ما تقع عليه أعينهم من رباعيات يُقال لهم إنها للخيّام، فيُلحِقونها بها - يضمّونها إلى آخرها أو يدسّونها في أثنائها. وهو عين ما تفعله أنت وأفعله أنا، إذا أراد أحدنا إستكمال نسخته. فهكذا أصبحت رباعيات الخَيّام أشبه بكرة الثلج، تكبر حجماً كلما زادت تدحرجاً. وهكذا حمّلوا الكثير مما وجدوا من رباعيات الشعراء على الخَيّام، كما حَمَلت العرب الكثير من الخمريات وشعر المجون على أبي نؤاس، وكما أضافت الفُرس الكثير من نوادر الأذكياء والبُلَهاء إلى مُلّا نصر الدين.

تحريف الرباعيات

ويبدو أن طائفة من الصلحاء تعمَّدوا أن يعزوا إلى الخَيّام من الرباعيات التي تحض على التوبة والتقوى ما لا عِلم له به، وحوَّروا رباعياب له فرووها على غير وجهها، تخفيفاً لما فيها من تطاول على الشرع. وإليك من أمثلة التحوير هذه الرباعية:

بويند مراكه دوزخي باشد مست
قوليست دروغ دل در آن نتوان بست
كر عاشق ومست دوزخي خواهد بود
فردا ببني بهشت راجون كف دست

وترجمتها:

«يقولون إنّ السَكران مَصيرهُ النار»
«قولٌ كَذِبٌ لا يستطيع القلب أن يعلق به».
«إذا كان مصير العاشق والسكران إلى النار»
«فغداً ترى الجنّة كراحة الكف».

فقد إستبدلوا في بعض الروايات كلمة (دروغ) أي (كذب) من الشطر الثاني بكلمة(وليك) أي (ولكن). فصار المعنى هكذا: «إنه قولٌ، ولكن لا يمكن أن يعلق به القلب». وربما إستقام المعنى على هذا الوجه، ولكنه على كل حال أضعف من الوجه الأول. ولو كان في الكتابة شَبه بين الكلمتين الفارسيتين

(وليك) و(دروغ) لَقُلنا: لعلها من أخطاء الناسخين المشهورة. فالظاهر إذاً أن أحد الأتقياء أراد أن يهوّن من وقع المعنى، فنفى الكذب عن الذين القائل بأن الشارب الخمرة مصيره إلى النار. ولكنه نسي أن الرباعية قائم كيانها كله على محاولة إثبات هذا الكذب، وأنه لهذا لم يكد يصنع شيئاً بهذا التحوير. وإليك مثالٌ آخر:

أيها القالي الحُمَيّا، لا تُندّد بالسكارى
لا تُشيّد بالأساطير وبالتدجيل دارا
إن تحَرَّجْتَ من الخمر فَلِمْ تزهى إغترارا؟
كم فعالٍ لك تخزى الخمرُ منه وتوارى!

فقد ورد الشطر الثاني في بعض النُسَخ هكذا: «وأنا إن يتسنّى لي تبتُ إلى الله». على حين أن موضوع الرباعية يدور بأجمعه على المخاطَب لا المتكلّم. كما أن المعنى في الرواية الأولى أكثر إنسجاماً مع بقية الأشطر، ولا سيما الأخير. هذا وأمثاله ويُنبِئكَ بما أصاب رباعيات الخَيّام من تحريف مقصود؛ بالأضافة الى ما مُنِيَت به من الآفة الشائعة التي لم يكد يسلَم منها كتاب قديم، ومن تصحيف الناسخين وأخطاؤهم.

الرباعيات الجوالة

وقف الباحثون حيال ركام ضخم من الرباعيات المتباينة الأغراض، المتناقضة المعاني، موقف الحيرة والتهيّب. وحاولوا بما أوتوا من صبر وفِطنة أن

يمحّصوها ويستخلصوا منها رباعيات حكيمنا الفلكي مما خالطها من رباعيات سواه، فتقدموا في هذا السبيل متدرّجين، يفيد لاحقهم من خطأ سابقهم وصوابه، شأنهم شأن العلماء في كشف حقائق العلم وإرتياد مجاهل الأرض والسماء.

جاء المستشرق الروسي جوكوفسكي بنظرية «الرباعيات الجوّالة» حين لَحظَ أن بعض الرباعيات يجول في دواوين الشعراء الفرس، فإفترض أنها منسوبة إلى الخَيّام. إلّا أنه إعترف أن مجرد وجود الرباعية في دواوين بعض الشعراء ليس بالدليل القاطع على أنها لهم دون الخَيّام، فقد إتضح أن بعض هذه الرباعيات موجود في نُسَخ مِن رباعيات الخَيّام أقدم عهداً من الشعراء الذين وردت في دواوينهم، فكان هذا دليلاً على أن بعض رباعيات الخَيّام قد سافر إلى دواوين الشعراء كما هاجر بعض رباعياتهم إلى ديوانه - على حد تعبير فردريك روزن.

أنظر مثلاً إلى هذه الرباعية التي وردت في بعض النُسخ من ديوان حافظ الشيرازي:

يا لَجمشيدَ وقَصرٍ كانَ فيهِ يَشرَبُ
وَلَدَت فيه ظباءٌ، وإستكنَّ الثَعلبُ
يا لَبهرامَ الذي كان يَصيدُ العِيْرَ عُمراً
أَرأيتَ القبرَ كيف إصطادَهُ لا يَرهَبُ؟

يقول فردريك روزن وهو مُصيب: (إن هذه الرباعية قد تكون للخيّام وقد لا تكون، إلّا أنها لا يمكن بحال أن تكون لحافظ. ذلك بأن الفرق بعيد بين دنيا الشاعرين).

ومهما يكن فأن نظرية «الرباعيات الجوّالة» طريقة في البحث سلبية، لم يكن يُنتظَر منها أن تفضي إلى نتيجة إيجابية. هلو إفترضنا أن كل الرباعيات الجوالة محمولٌ على الخَيّام لكان قصارانا أن ننبذها، ولبقيت لدينا بعد ذلك كومة مركومة من الرباعيات نحتاج إلى التحقيق في أمرها.

الرباعيات الموسومة

وجاء الأستاذ كرستنسن بطريقة أخرى. فكان منه أن جمع كل رباعية ورد فيها لقب «الخَيّام»، وقال يحتمل أن تكون أصيلة غير دخيلة. ولكن هذه الطريقة وإن تكن إيجابية، فإن عدد هذه الرباعيات لا يتجاوز الأثنتي عشرة. فلو صحَّت نسبتها إليه كلها لكانت مع ذلك قليلة. على أن الأستاذ جامعها يعترف، مثل إعتراف جوكوفسكي، أنها طريقة لا يُعوَّل عليها. وأثبت ذلك برباعية ورد فيها أسم الخَيّام موضوعاً مكان أسم صاحبها.

وقد نفى فردريك روزن ستاً من هذه الرباعيات الأثنتي عشرة. أمّا ثلاثٌ من هاته الست فيبدو أنه لا ريب في كونها محمولة على الخَيّام، وأمّا الثلاث الأخريات فلستُ أستطيع أن أجزم مع المستشرق الألماني بنفيها. إحداها مثلاً هذه الرباعية:

خاطَ للحكمَةِ خَيّامٌ خِياماً وإرتحَل!
مُذ هَوى المسكينُ في أتّون حزنٍ وإشتعل!
قَطعَت أطنابَ دنياهُ مقاريضَ الأجل!
ورخيصاً باعَهُ في السوق دلّال الأمل!

فهو يقول: (وأكبر الظن أنها كُتِبت بعد وفاة الخَيّام). وقد تابعه على ذلك العلامة فروغي [1] حيث يقول: «ويقينٌ أن شخصاً آخر قالها عن الخَيّام، كما لحظ الدكتور روزن» ولستُ أعرف لذلك سبباً، لأنهما لا يذكران سبباً، فإن كان حديث الرباعية عن الخَيّام بضمير الغائب هو الذي جعلهما يظنان أن قائلها غيره، فالحق أن الخَيّام يتحدث عن نفسه في الرباعيات الأثنتي عشرة كلها - الصحيح منها والمنسوب! - بضمير الغائب طوراً والمخاطَب طوراً، وليس بينها واحدة يتحدث فيها عن نفسه بضمير المتكلّم. وإن كان حديثها عن موت الخَيّام بصيغة الماضي هو الذي جعلهما يتوهمان ما توهما فما أكثر ما يتحدث الشعراء الفرس خاصة، عن الموت المستقبل بصيغة الماضي، وما أكثر ذلك في رباعيات الخَيّام نفسه. وما أكثر ما قال فيها: «هلكنا، ورحلنا» وهو يقصد (سنهلك، وسنرحل).

وقد وردت هذه الرباعية في النسخة التي وقف على طبعها الدكتور روزن. وإذا راجعتَ جدول الرباعيات الجوّالة تبيَّن لك أنها ليست منها، فليس لها إذاً غير الخَيّام صاحب معروف. وصحيح أن هذا ليس بالدليل القاطع على صحة

---

(١) الرباعية ٣٩ في هذه المجموعة.

نسبتها، إلّا أنه لا داعي إلى نبذ رباعية موسومة بأسم الخَيّام خاصة، لمجرد أنها تتحدث عن موتِهِ على نحوٍ مألوف في الشعر الفارسي. وأنا أستطيع أن آتيك بعشر قصائد؛ أو مائة إن شِئت، لغير الخَيّام يتحدّث فيها أصحابها عن أنفسِهِم بضمير الغائب وهم يعنون المتكلّم، ويذكرون موتهم بصيغة الماضي وهم يقصدون المستقبل. ويقول:

يا خَليليَّ، تَعِبنا عبثاً حتى بَلينا
ورَمانا مِنجلُ الدهرِ شمالا ويمينا
لَهْف نفسي، لَهْف نفسي، لم نَكدْ نفتحُ عَينا
في حياةٍ لم تكُن وفقَ المُنى حتى فَنينا

فإذا تمسكنا بمنطق الدكتور روزن لم يبقَ لنا إلّا أن نفترض أن الخَيّام نظم هذه الرباعية بعد وفاته!.

وإذا رجعنا إلى الرباعية الأولى-التي أنكرها الخيّاميان الإيراني والألماني - وجدنا أن ظاهر معناها لا يدل على أن غير الخَيّام قد تحدَّث فيها عنه. فإنَّ مفادها لو كان قالها سواه، لهو التشفّي. ولكن هذا التشفّي لا يتفق مع الثناء عليه بالقول إنه خاط خياماً للحِكمة، في الشطر الأول، كما فعل في بعض رباعياته، وفي بعض أبيات له عربية، ثم هو يأسف في بقية أشطر الرباعية على نفسه وحكمته تذهبان هدراً. وما أكثر ما أسفَ في رباعيات أُخرَيات.

فالرأي عندي أن هذه الرباعية إنما ينبغي أن يكون قائلها الخَيّام. فإن كانت من صنيع أمرئ سواه فإنما أراد أن يقولها على لسان الخَيّام ويُنحلهُ إيّاها، لا

أن يتحدث فيها عنه. أما المرحرم فروغي فالحق أنه يذكر هذه الرباعيات الأثنتي عشرة برمتها، بالرغم من وررد أسم الخَيّام فيها، بل لورود اسم الخَيّام

أن يتحدث فيها عنه. أما المرحرم فروغي فالحق أنه يذكر هذه الرباعيات الأثنتي عشرة برمتها، بالرغم من وررد أسم الخَيّام فيها، بل لورود اسم الخَيّام

فيها! ذلك بأنه يشك في (أن حكيم نيسابور قد سمّى نفسه بالخيّام أصلاً). ويسترسل فيقول: (إنما يبدو للنظر أن لقب الخَيّام يخصُّ أباه، فإننا لم ر من معاصريه والقريبين من عهده من دَعا الحكيم بالخيّام، وإنما هم كلما ذكروا أسمه جاؤوا بلقب الخَيّام أو الخيّامي بعد أسم أبيه، أو دعوه إبن الخَيّام. فيمكن الأعتقاد بأنهم لم يُسمّوا الحكيم خيّاماً في عصرِه، بل صار يُعرَف بالخيّام بعد ذلك نسبة إلى أبيه على سبيل التجوّز). [١]

وهذه ملاحظة جديرة بالتقدير والتسجيل، لو كانت صائبة. وهي تُدهشني حقاً لما فيها من تسرّع في الحكم على غير تمحيص وتَثبّت، ما كنت أتوقع مثله مِن مثل العلّامة المرحوم. ذلك إن العروضيّ السمرقندي [٢] كان معاصراً للخيّام وصديقاً، وقد سَمّاهُ «خواجه إمام عمر خيّامي» دون ذِكر لإسم أبيه إبراهيم. فهذا دليل دامغ على خطأ البحّاثة الجليل.

وقد بعث الإمام القاضي أبو النصر محمد بن عبد الرحيم النسوي مقطوعة إلى حكيمنا النيسابوري مَطلعها:

---

(١) المرحرم أقاي محمد على فروغي، كان أحد جهابذة السياسة والعلم والأدب في إيران، توفي منذ بضع سنوات أثناء الحرب العالمية الأخيرة [الأولى]. وله تصانيف في الأدب الفارسي منها مجموعة لرباعيات الخَيّام طبعها بإسم (رباعيات حكيم خيّام نيشابوري). وقدّم لها ببحث قيّم ممتع على إيجازه، وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه. طُبِعت في طهران سنة ١٣٢١ شمسية، أي ١٩٤٢م. (٢) رباعيات حكيم خيّام نيشابوري، ص ٣١.

إن كُنتِ ترعَينَ يا ريح الصَّبا ذِمَمي
فأقْرِي السلام على العلّامة الخِيَمي

دون ذِكر لإسم أبيه أيضاً.

فلقب الخَيّام، أو الخيّامي، أو الخِيَمي كان معروفاً إذاً للخواجه الإمام عمر بين معاصريه. والظاهر أن القاضي أبا النصر دعاه بالخِيَمي بدلاً من الخَيّام أو الخيّامي نزولاً على ضرورة الشعر، ولكن ذلك يدل من كل حال أن الإمام الحكيم كان يُلَقَّب بشيء له صلة بالخيمة. وقد سَمّاه البيهقي [١] الذي لقيه في صباه (الدستور الفيلسوف حجّة الحق عمر ابن إبراهيم الخَيّام). فربما كان أبوه إبراهيم يصنع الخِيَم كما يستنتج الباحثون فلُقِّب بالخيّام، ولعل إبنه الدستور الفيلسوف صار يُلقَّب بالخيّام تارة تبعاً لأبيه، وبالخيّامي تارة أخرى من باب النسبة. والإيرانيون ميّالون إلى إضافة ياء النِسبة إلى الألقاب وأواخر الأسماء، حتى ليسَمّينى بعضهم (أقايي فاضلي)! ولعل بعض معاصري الخَيّام فعلوا ذلك بلقبه فسمّوه بالخيّامي. ويبدو أنه آثر هو الأفصح والأسهل في قرض الشعر فسمّى نفسه في رباعياته بالخيّام.

والخلاصة أني أرى أن ذِكر أسم الخَيّام في الرباعية إن لم يكن دليلاً على صحة نسبتها إليه، ما هو بالدليل على صواب نفيها عنه، ما لم تَقُم على ذلك البيّنة القاطعة من رواية صحيحة أو سَنَد مقبول [٢]. ولا يستغربنَّ القارئ إطالتي في الرد على المرحوم فروغي هنا، فإن محو بضع رباعيات أو إثباتها لأمرٌ جَلل

---

(١) أحمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي في كتابه (جهار مقاله) أي المقالات الأربع.

(٢) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي (تتمة صوان الحكمة) تم تأليفه مابين سنة ٥٥٣ و٥٦٥هـ.

رباعيات أو إثباتها لأمرٌ جَلل في مثل بحثنا. وأن رباعية يتيمة واحدة يَصحُّ عندنا في هذه الفوضى أنها للخيام لأَثمنُ عند الخيّاميين من الدرّة اليتيمة. وفروغي بَحّاثة له مقامه في الأدب الفارسي، فإذا هو أرتئ رأياً فأصاب أو أخطأ تبعه الكثيرون على خطأه أو صوابه؛ ولهذا أجدني أكترثُ لرأيه.

مقارنة الرباعيات

وللمتشرق الروسي جوكوفسكي طريقة أخرى إيجابية، غير نظرية «الرباعيات الجوالة» السلبية. ذلك أنه وجد في بعض كتب الأقدمين بضع رباعيات ذكروها للخيام من باب الإستشهاد، فهي أخلَقُ أن تكون من نتاج قريحته، لأن رُواتها أقرب إليه عهداً، وروايتهم أوثقُ مما في أيدينا من نُسخ لا نعرف الذين جمعوها؟ ولا من أين جمعوها. منها مثلا رباعيتان رواهما الرَّازي [١] في «مرصاد العباد» وإستشهد بهما على ضَلال الخَيّام. فالمتشرق الروسي يرى أنهما لورودهما في «مرصاد العباد» ولوجودهما كذلك في النسخ القديمة من الرباعيات كان لنا أن نطمئن شيئاً إلى صحتهما [٢].

وقَفّى الباحثون على أثر جوكوفسكي فجعلوا يضيفون إلى الرباعيات الصحيحة رباعيات جديدة كلما عثروا على شيء منها في كتاب قديم،

---

(١) في هذه المجموعة ثمانٍ من الرباعيات الموسومة بأسم الخَيّام، هي الرباعيات:٤٤، ٤٨، ٧٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٨٨، ٣٣٠ و٣٣٣.

(٢) نجم الدين أبو بكر الرَّازي (مرصاد العباد) تأليف سنة ٦٢٠ هـ، اي بعد وفاة الخَيّام بنحو قرن واحد.

حتى وُفِّقَ المرحوم فروغي أخيراً إلى جمع ٧٤ رباعية نقلها عن ثماني روايات قديمة مختلفة، منها بضع رباعيات ذكرها رُواتها من الإستشهاد، ومعظمها من باب الإختيار والإستحسان. وإذا أخرجنا منها ثمان رباعيات تكرر ذكرها في هذه الروايات بقيَ لدينا ستٌّ وستون رباعية رواها قوم كلهم أقدم عهداً من أقدم نسخة بين أيدينا من مجموعات الرباعيات، فهي من أجل ذلك أحق بالركون إليها والإطمئنان إلى صحتها. وقد إتَّخذها فروغي وسواه مثالاً يقيسون عليها سائر الرباعيات، فما كان بها شبيهاً عدّوه للخيام، وما كان لها مغايراً عدّوه لسواه. فلِنُسَمِّها إذاً "الرباعيات المعتمدة".

مناقشة الرباعيات المعتمدة

ولكني أجدني أتساءل: عن أي المصادر أخذ القدامى هاته الرباعيات الست والستين، وأقدم كتبهم دُوِّن بعد وفاة الخَيّام بما لا يقل عن قرن من الزمن؟ ولكن ما العمل؟ فلنفترض أنهم قد أخذوها عن... مكانٍ ما، ونُسلّم موقتاً بصحتها.

يقول فروغي: (متى وضعنا نصب أعيننا هذه الرباعيات الست والستين التي يُحتَمل إحتمالا قوياً، بل يصح الأعتقاد، أنها للخيام، ووزنَ خصائص كلام الحكيم، كان الشيء الذي يواجهنا أنها جدُّ بسيطة عارية من التزويق، بريئة من التصنّع والتكلّف. بل إنها مجردة حتى من الأخيلة الشعرية، حتى ليمكن القول إنها ليس فيها من الشعر غير الوزن والقافية. ولكنها على غاية الفصاحة والبلاغة، صحيحة موجزة مُحكَمة، كل ألفاظها قالب للمعنى، لا نقصان فيها ولا زيادة، ولا عيب ولا شائبة. وأوضح أن قائلها لم يقصد إلى تنميق الألفاظ

والتفاصح، فكلّها مُقيَّد بأداء المعنى. وأما المعاني فمن اللطف والدقة والإبداع بحيث تسمو على كل تخيّل وإصطناع، فهي جدٌّ لا هزل فيها. وهو يبدي أحياناً بعض الطيبة، كثير الدقة والظرف، وكلامه ناعم لا وَخزَ فيه، ومضامين الرباعيات كلها نتاج طبع حكيم متفكّر مستطلع ... الخ).

وأذا لا أكره للخيام أن يكون كذلك، ولكن بين هذه الرباعيات المعتمدة ما ليس كذلك. فإليك هذه الرباعية:

«ما دام تركيب الطبائع وفق مرامك لحظة،
فاذهب وعِش سعيداً، ولو كُنتَ تُسام الضيم!
وكُن مَع أهلِ العَقل، فإن أصل جسمك؛
غبارٌ وَنسيمٌ وَشَرارٌ وَريح!».

فأنت تلحظ السخف ولا شك في الشطرين الأخيرين خاصة، حيث ينصحك صاحب الرباعية أن تكون مع أهل العقل.. لماذا؟ لأن أصل جسمك كذا وكذا! إن من عادة الخَيّام - كما سنرى عند قراءة رباعياته - أن ينصح المرء بالاستمتاع بمباهج الحياة لأنه سيموت، فأما إذا نصحك أن تكون مع العقلاء فلأسباب أَوْجه من كَوْن أصل جسمك غباراً ونسيماً وشراراً وريحاً! وقد إسترعى إنتباهك من غير شلف أيضاً أن المقصود بالنسيم والريح شيء واحد هو الهواء، وأنه كان عليه أن يذكر الماء بدلاً من إحدهما، لتَتُم العناصر الأربعة التي كانوا يعتقدون أن لا عناصر غيرها.

وهذا أبعد ما يكون عن الدقّة التي إتَّصف بها الخَيّام، وذكرها له فروغي. وإليك هذه الرباعية:

(أنا لا أتحاشى شرب الخمر لضيق ذات اليد،
ولا لِهَمّ الفَضيحة والسُكْرِ،
وإنما كنتُ أشرب الخمرةَ للسرور.
أما الأن وقد جلست على قلبي فلا أشرب!)

فهذا كلامٌ غَث لا يصدر مثله عن مثل الخَيّام. وحسبك أنه - أي قائل الرباعية المجهول - يزعم أنه لا يشرب الخمرة لأنكَ.. (أي حبيبه) قد جلست على قلبه! وما سمعنا أن سكيراً أقلعَ عن المُدام لأنه أحب، وإنما العكس هو المشهور وفي هذه المجموعة رباعية تؤذي نقيض هذا المعنى، جاء فيها:

صادَ لي عشقُكِ قلبي في أحابيل الدلال.
يا أَخا الحُسْنِ، وإلّا ما لصهباءَ وما لي؟

وقد لا تكون هذه الرباعية للخيام، ولكن معناها هو المعقول المقبول. فأي «حكمة أو تفكّر أو إستطلاع» في هاتين الرباعيتين، وأمثالهما من الرباعيات الست والستين غير نادر؟ وغريب أن يقول فروغي إن كلامه ناعم لا وخز فيه، فأي وخز أوجع من قوله:

إنَّ مَن صاروا محيط العلمِ بين العالمين
وغَدوا في الفضلِ مصباح الهُدى للمُهتَدين

لم يَشُقّوا لِدُجى الشَكِّ طريقاً لِيَقين
إنَّما قصّوا أساطيرَ، وناموا بعد حين!

أو قوله:

أبدَعَ الصانعُ تركيبَ طباعِ البشرِ
فلماذا شانَها بالنَّقْصِ أو بالوضَرِ؟
إن تَكُن جاءت مِلاحاً، فلماذا خَرَّبها؟
أو تَكُن جاءت قِباحاً، فعلى مَن عَيْبُها؟

وأمثال هاتين الرباعيتين - بين الست والستين - كثير! على أني لستُ أريد إلى إنتقاد فروغي هنا وتفنيد رأيه في خصائص الخَيّام، ففي وِسعك بعد قراءة الرباعيات أن ترى رأيك فيها، وفي رأيه فيها. فلْنَعُد إلى ما في بعض هذه الرباعيات المعتمدة التي يرويها المتقدّمون من غَثاثة وسُخْف، فإن هذا يدل على أن بينها ما هو مدوس محمول على شيخنا الحكيم. فالمتقدّمون كالمحدّثين عِرضة للخطأ، وقد طالما لَفّقوا الأحاديث وزيّفوا الأخبار، وقد طالما أخطأوا في النقل والرواية عن حسن نية أيضاً.. كالمتأخّرين، سواء بسواء. لهذا أرى أن الرباعيات الست والستين لا يصح إتّخاذها مقياساً دقيقاً لرباعيات الخَيّام، وأن كان يصح إتخاذها مقياساً غير دقيق، ومحكّاً غير مُنزَّه عن الخطأ. فإنما هي أمثلة إستشهد بها بعضهم، أو مختارات إنتقاها آخرون وفق
أذواقهم، فلم يقصدوا إلى الأحاطة والشمول، فيها الأصيل والدخيل. ولعل ثَمّة جوانب من فلسفة الخَيّام أو شاعريته لم تُعجِب منهم أحداً فأهملوها ولم

يذكروا منها رباعية واحدة. وليس بعيداً أن يكون له رباعيات في المجون أو الهجاء أو أي ضرب من ضروب القول نظنّهُ بعيداً عن الخَيّام وأمثاله، ولكلِّ شاعرٍ نزوات وبدوات. ولعلنا لو ظفرنا بمجمرعة الرباعيات الأصلية لأختار منها فروغي ولأخترتُ منها أنا غير ما أختار القوم.

وما دام الحدس والذوق هما كل سندنا في القياس للتمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها، فلا معدَى لنا عن أن نُلصق بالخيّام كل رباعية تشبهه من رباعيات غيره من الشعراء ما دمنا لا نعرف لها صاحباً سواه، وأن نجرّده من كل رباعية له ما دامت لا تُشاكل الرباعيات المعتمدة ولو كنا لا نعرف لها صاحباً سواه. فهذا عين الخطل، وهذا الخطل لا محيص لنا من ركوبه إلى أن نهتدي إلى طريقة أمثَل منه.

إن هذه الحيرة لا يشلنا منها إلّا نسخة قديمة يجدها أحد الباحثين تجمع رباعيات حكيمنا الشاعر كلها، ويَسَعنا الركون إلى صحّتها. وهذا لعمرك أملٌ يبدو كأنه بعيد..

عدد الرباعيات

إن هذا يحدو بي إلى ألّا أتشدد في أختيار الرباعيات تشدد المرحوم فروغي الذي أكتفى بإنتقاء ١٧٨ رباعية فقط - بما فيها المعتمدة- رغبةً منه في جعلها أقرب إلى الصحّة، وتجنّباً لخطأ الأخذ بما ليس للخيام من رباعيات. لأني أرى

أن خطأ المرء في نبذ رباعيات والخيّام لا يقل سوءً عن خطأه في الأخذ برباعيات غيره.

والواقع أن البحّاثة الجليل فروغي يشايع سواه من الخيّاميين في ميلِهِم إلى الإقلال من عدد الرباعيات؛ فبعضهم يرى أن ما للخيام منها لا يربو على الثلاثمائة، وبعضهم يرى أنه دون المائتين. وقد قال لي الخيّامي التركي المشهور رضا توفيق في حديث جرى لي معه في إستانبول إنه يعتقد أن الرباعيات الأصيلة لا تتجاوز المائة. قلت له إننا نعلم أن الخَيّام قد نيَّف على السبعين، ولعله شارف الثمانين أو جاوزها، بل إننا لا يَسعنا أن نقطع بأنه لم يبلغ المائة مثلاً، فليس لدينا على ذلك دليل من رواية أو قرينة [1].

فإذا أفترضنا أنه لم ينظم سوى رباعية واحدة (أي بيتين وحسب) كل شهر، وأنه لم يعش أكثر من سبعين عاماً، وأنه لم يمارس نظم الرباعيات قبل أن يبلغ الثلاثين - يكون على ذلك قد تعاطى نظمها أربعين سنة، ويكون مجموع ما نظمه منها ٤٨٠ رباعية! والخطأ في هذه الفرضية، إن كان فيها خطأ، أنه ليس محالاً أن ينصرم العام والعامان ولا ينظم الخَيّام رباعية واحدة، فما كان بالشاعر المحترف ولا المتفرّغ للقريض. ولكن هذا مجرد أحتمال، وقد يكون إحتمالاً ضعيفاً. ومن المحتمل أن يكون لقاء ذلك قد نظم أحياناً عدة رباعيات في يوم واحد.

أمّا دليل فروغي على قلة الرباعيات فهو هذا التكرار في معاني الكثير

(١) هما الرباعيتان ٧٤ و٩٥من هذه المجموعة.

منها ومبانيه. وهو يستبعد أن يُكرر الخَيّام نفسه إلى هذا الحد، وأنا أستبعد ذلك معه. ولا أنكر، ولا ينكر أحد، أن الكثير من الرباعيات قد نظمه مُقلّدو الخَيّام وأتباع طريقته.

ولكني أعتقد أن التكرار بالاضافة إلى هذا سبباً آخر، هو أن الخَيّام نفسه قد أعاد نفسه بنفسه وكرر بعض معانيه. ذلك أنه لم ينظم رباعياته في وقت واحد ليعالج موضوعاً خاصاً فيربط بين أجزائه، ويُهذّب فصوله، ويشذّب زوائده. إنّما هي خطرات عابرات، كلما سنحت له واحدة منها أفرغها في رباعية قد تشبه رباعية له سبقتها، وقد يكون بينها وبينها عشرات الرباعيات في معانٍ أخرى، وعشرات الشهور.

وسنرى عند قراءة الرباعيات أن خَطَرات مُعيّنة قد شغلت عقله فإنحصر فيها تفكيره، من ذلك كثرة ذِكره الموت حتى في معرض الدعوة إلى اللهو والحضّ عليه، ومن ذلك مسألة الجبر والإختيار. فكلما جاش في نفسه أحد هذه المعاني وألحَّ على ذهنه أطلقها رباعية مُجلجِلة يُفرّج بها عن نفسه. وما دامت هذه الأفكار تعاوده بعينها دائماً فلا جرم أن يُعالجها من شَتّى نواحيها، ويُفصِح عنها بشتّى التعابير. بل لا جرم أن يكررها بعينها، إذا تقادم العهد، وهو لا يدري. ومَن مِن الكُتّاب أو الشعراء أو الفلاسفة لا يُعيد نفسه على هذا النحو، ويعرض بعض أفكاره مِراراً متعددة في قوالب مختلفة- من حيث يريد ومن حيث لا يُريد؟

وهذا شوقي مثلاً، ما أكثر ما ساءل الموتى في مراثيه عَمّا لديهم من أسرار

الفناء، وهو ناسٍ أنه فعل ذلك وكرَّر. مراراً في مراثٍ سالفات. ولو قرأتَ لزوميات المعرّي ورأيتَ ما فيها من التكرار «لهالَكَ الأمرُ وإستهوتكَ أحزانُ»!

بل لقد كرر الخَيّام بعض معانيه في نفس هذه الرباعيات الثلاث والستين التي إقتنع فروغي بصحتها. أَفلَم يلحظ ذلك!؟
فليس حتماً إذاً أن تكون لغير الخَيّام واحدة من كل رباعيتين مكرَّرتين.

وعندي على كثرة الرباعيات دليل آخر إن لم تجدهُ قاطعاً فهو على كل حال جدير بالإعتبار. ذلك أن الرباعيات الأربع والسبعين التي جمعها المرحوم فروغي من ثمانية مصادر، لم يتكرر منها سوى ثمانية رباعيات وحسب؛ فبقي لنا منها ستٌّ وستون، كما رأينا قبل. فلو كانت رباعيات الخَيّام الأصيلة من القلة بحيث يتوهم المتوهمون لتكرر منها الكثير.

ولأضرب مثلاً: فلنفترض جدلاً أن رباعيات الخَيّام لا تربو على المائتين؛ فخُذ لقاءها مائتي بيت من ديوان المتنبي، ثم سَل ثمانية أشخاص أن يختاروا منها أربعة وسبعين بيتاً تُوزَّع عددها عليهم بنسبة ما ورد من الرباعيات في الكتب الثمانية الآنفة الذكر. أَفَتظُن مهما إختلفت أذواقهم أنه لن يتكرر إتفاق أي أثنين منهم في أختيار أية رباعية أكثر من ثمان مرات؟.

إني لأرى أن في تكرار ثمانية رباعيات فقط من تلك الروايات الثماني لَدليلاً على أن أصحابها قد إغترفوا من بحر واسع فلم يلتقوا إلّا قليلاً ولكن لا تَسلني

كم عدد رباعيات الخَيّام. فأنا لا أستطيع أن أحدد لها عدداً، ولو تخميناً. فخمّن أنتَ إن إستطعتَ.

مدرسة الخَيّام

أمّا التمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها - على أساس القياس - فلكُلٍّ من الباحثين مذهبٌ فيه. وإنك لَتَجد كل واحد منهم يقول هذه الرباعية للخيام، وتلك ليست للخيام لِعلَّةٍ لا أعرفها. وما وجدتُ أثنين من المحققين يتّفقان على ما يختاران منها، بل وجدتُ أن ما يعدّه أحدهم رباعية صحيحة لا غبار عليها، يعدّة سواه رباعية مدخولة عليها غبار كثير.

أما أنا فأعترف بعجزي عن تمييز رباعيات الخَيّام مما عداها تمييزاً تطمئِن إليه نفسي، لهذا أنفضُ يدي من هذه المهمة التي تبدو أقرب إلى المُحال. وقد جمعتُ في هذا الكتاب ما أستحسنتُ من جمهرة الرباعيات؛ فإلّا تكن كلها للخيام فلا بد أن الكثير منها له. وما أحسب أن ما فيها يُخالف رأيه، ولا أخالَهُ يُساء لو عاد إلى الحياة وقرأ هذه المجموعة فوجد فيها ما ليس له من رباعيات قد عُزِيَ إليه، بل لعله يؤسفه إغفالي بعض رباعيات له أهملتها لتكرارها ولإسفافها ظناً مني أنها محمولة عليه. ومهما يكن من الأمر فإن مجوعتي هذه جامعة أكثر منها مانعة، ولا بد أن يكون فيها رباعيات ليست للخيام.

وإنما هي في مذهبي رباعيات «مدرسة الخَيّام» تُمثّل أفكار الخَيّام وطائفة من مثقفي عصره وما تلاه من عصور في فارس كما كانت رسائل «إخوان الصَفاء»

مثلاً تصَوّرِ أفكارا طائفة أخرى في بلاد العرب.

وأمّا الرباعيات الست والستون فقد ترجمتُ منها سبعاً وأربعين، أشرتُ إليها بجانب أرقامها بهذه العلامة (*) تمييزاً لها، لكي يتبَيّنها القارئ ويتخذ منها مثالاً يقيس عليه بقية الرباعيات، إذا هو شاء القياس. وأما الرباعيات الأخريات التسع عشرة التي أهملتها فإنما أهملتها لغثاثة معناها أو تكرره في رباعيات أقوى منهنَّ أو أدق؛ مما تخيّرته من مختلف النُسَخ.

على أنني لا أريد أن أقول إنَّ لنا ملء الحرية في أخذ كل ما يقع في أيدينا من رباعيات بحجة أنها من رباعيات «مدرسة الخَيّام» ولا أن أنكر كل فائدة للقياس على هذه الرباعيات الست والستين، ولكنّي إنما أردتُ أن أقول إن هذه الرباعيات الست والستين ليست كل رباعيات الخَيّام فهي ليست جامعة، وإن فيها ما ليس للخيام فهي ليست مانعة. وقد أسقط المرحوم فروغي نفسه أثنتين منها فلم يذكرها في مجموعته. (١)

شعره العربي

وما دُمنا نريد أن نقيس مضطرين ما لا نعرفه على ما نتوهم أننا نعرفه، فقد خلص إلينا شعر عربي للخيّام لم يطعن أحد في صحته فيما أعلم، والرأي الذي نظيفه إلى الرباعيات المعتمدة التي نفترض صحة معضمهافذلك أعوَن لنا على القياس. وهو على كل حال قليل أُثبتُهُ فيما يلي:

---

(١) لاحظ المرحوم فروغي أن الخَيّام كان في عِداد المشهورين من الفلكيين سنة٤٦٧ هـ حين أشترك في وضع التقويم الجلالي، فلا بد أن يكون عندئذٍ قد بلغ الثلاثين أو الاربعين من عمره. وقد توفي على المشهور سنة ٥١٧ هـ أي بعد وضع التقويم بخمسين عاماً، فيكون قد عاش ثمانين عاماً على أقل التقديرين.

تُدين ليَ الدنيا بل السبعةُ العُلى
بل الأفقُ الأعلى إذا جاش خاطري!
أصومُ عن الفحشاء، جَهراً وخِفيَةً
عَفافاً، وإفطاري بتقديس فاطري
وكم عُصبَة ضلَّت عن الحقِّ فأهتدَت
بطُرقِ الهُدى من فَيضيَ المُتقاطِرِ
فإنَّ صِراطي المستقيم بصائِرٌ
نُصِبْنَ على وادي العَمى كالقناطرِ!

٢

إذا قنعَت نفسي بميسورِ بُلْغَةٍ
تُحصِّلُها بالكَدِّ كَفّي وساعدي
أمِنْتُ تصاريفَ الحوادثِ كلّها
فكُن يا زماني مُوعِدي أو مُواعِدي!
ولي فوقَ هام النَيّرينَ منازِلٌ
وفوق مناط الفَرقدَيْنِ مُساعدي
أليسَ قضى الأفلاك [1] في حكمِها بأَن
تُعيدَ إلى نحسٍ جميعَ المَساعدِ؟
فيا نفس صبراً في مقيلِكِ، إنَّما
تَخرُّ ذَراهُ بإنقضاض القواعِدِ

متى ما دَنَت دنياك كانت بعيدةً
فوا عجباً من ذا القريب المُباعِدِ!
إذا كان محصول الحياة مَنيَّةً
فَسَيّان حالاً كُلِّ ساعٍ وقاعِدِ!

٣

سَبقتُ العالمينَ إلى المَعالي
بثاقِبِ فكرةٍ وعُلوِّ هِمَّة
فلاحَ بحكمتي نورُ الهُدى في
لَيالٍ للضَلالة مُدلَهمّة
يُريد الجاحدون ليطفئوهُ
ويأبى الله إلّا أن يُتمّه!

٤

العقل يعجبُ في تصرُّفِهِ
ممَّن على الأيامِ يَتَّكِلُ
فنوالها كالريحِ مُنقلِبٌ
ونعيمها كالظِلِّ مُنتَقِلُ!

---

(١) ربما كان الأصح: "أَما قَضَت الأفلاك" وقد وردت في شِعره العربي بعض أخطاء صححناها بمقابلة مخلف الروايات.

٥

زَجَّيتُ دهراً طويلاً في إلْتِماسِ أَخٍ
يَرعى ودادي إذا ذو خِلَّةٍ خانا
فكَم أَلِفْتُ وكَم آخَيْتُ غيرَ أَخٍ
وكَم تَبدَّلتُ بالإخوانِ إخوانا
وقلتُ للنفسِ لما عزَّ مَطلبَها
بالله لا تأْلَفي ما عِشتِ إنسانا

وإنّا ليسَعنا أن نُطمئن إلى صحة نسبة هذه الأبيات، فأسلوبها كما يرى القارئ أشبه بالعلماء منه بالشعراء. وإن ما فيها من إستعارات وتَشابيه، وذكر للأفلاك، والمناحس والمساعد، وإنقضاض القواعد، وإنقلاب الريح، وإنتقال الظل - يُشير إلى أن قائلها من المُشتَغلين بالطبيعة والأفلاك. فهي من هذه الناحية أدَلُّ على الخَيّام حتى من رباعياته الفارسية. على أن معانيها، بإستثناء الفخر، تُطابق معاني الرباعيات مطابقة مُمتعة. بل إن الفخر ليَؤيّد لنا بعض التأييد صحة الرباعية التي نفاها عنه روزن وفروغي، فيما تقدّم بنا من البحث. والفخر وإن كان شائعاً في شِعره العربي، قليلٌ في رباعياته الفارسية. ولا أدري لماذا أفرغ معظم خُيلائه ومُباهاته في هذه الأبيات العربية على قلّتها، فلعله كلما إنتابته نزوة من العجب بنفسِهِ وحكمتِهِ لجأ إلى لغة الضاد، لشيوع الفخر في شِعر العرب. وإذا إتخذنا هذه المقطوعات العربية محكاً للرباعيات وجدنا أن قوله:

تُدينُ ليَ الدُنيا...

أشبه بقوله في إحدى رباعياته:

فُصِّلَت أسرار دنياكم لدينا في الدفاتر

وأن قوله في نفس البيت:

..... بل السبعةُ العُلَى،
بل الأفقُ الأعلى إذا جاشَ خاطري

يُذكّرنا برباعيته:

قد حَلَلْنا مُعضلات الكَوْن طُراً للمِلل
مِن حَضيض الأرضِ تالله إلى أوجِ زُحَل
ووثبنا من أحابيلِ خداعٍ وحِيَل
فَفضَحْنا كُلَّ سِر..

وأما قوله:

إذا قنعَت نفسي بميسورِ بُلْغَة
تُحصِّلُها بالكَدِّ كَفّي وساعدي
أمِنْتُ تصاريفَ الحوادثِ كلّها
فكُن يا زماني مُوعِدي أو مُواعِدي!

وقوله:

أليسَ قضى الأفلاك [1] في حكمِها بأَن
تُعيدَ إلى نحسٍ جميعَ المَسَاعدِ؟

فما أكثر ما ينطبق عليه من رباعيات. وأمّا قوله:

إذا ما دَنَت دُنياك كانت بعيدةً
فوا عجباً مَن ذا القريبُ المُباعِدِ

يُذكّرنا بهذه الرباعية التي يَعرض فيها لأمثال هذه المتناقضات:

كلّما باعدتُ نفسي زدتُ من نفسي دُنُوّا
وأراني أتدلّى كلّما رمتُ عُلُوّا
يا لها خَمْرٍ وجودٍ أحتسيها، بَيْدَ أنّي
كلّما زِدتُ بها سكراً أراني زِدتُ صَحوا!

وأما قوله:

فكَم أَلِفْتُ وكَم آخَيْتُ غيرَ أَخٍ
وكَم تَبدَّلتُ بالإخوانِ إخوانا
وقلتُ للنفسِ لما عزَّ مَطلبَها
باللهِ لا تألَفي ما عِشتِ إنسانا

فأشبه بهذه الرباعية:

صاحِ أَقلِل ما تَمكَّنتَ عديد الأصدقاء
وأصطَحِب إن شِئتَ أهلَ الدهرِ لكن مِن بعيد
إنَّ مَن تَركُنُ في الدنيا إليهِ بالوَلاء
ليس في باصرةِ العقلِ سوى خصمٌ لَدود!

وأما قوله:

إذا كان محصول الحياة مَنيَّةً

فسيّان حالاً كُلّ ساعٍ وقاعِدِ!

فشبيه برباعيته:

إنَّ مَن فَكَّرَ في الدُنيا إبتداءً وإنتهاء
وَجَد الأفراح والأتراح في الدنيا سَواء
ومصير الطِيبِ والخُبْثِ إذا كانَ الفَناء
فلتكُن إن شِئتَ داءً كلّها، أو فَدَواء!

وليس معنى هذا أن كل رباعية يتَّفق معناها مع شيء من شعره العربي فهي له، ولكنّها إن لم تَكُن لهُ كانت تتفق مع أفكاره، وكان لنا أن نختارها، حتى يثبت لنا أنها لسواه.

عقلية

الخَيّام العالِم

ما نكاد نجِد في تاريخ الثقافة الإسلامية كله عقلاً ممتازاً كعقل الخَيّام أحاط بكل ما كان معروفاً في عصرِه من العلوم وأَلَّفَ بين متناقضاتها. فلقد جمعَ الفَلك إلى الفِقه، والطِب إلى قراءات القرآن والفلسفة إلى علوم اللغة، والشِعر إلى الكيمياء، واللاهوت إلى الرياضات ...

وكان في هذه المواضع كلها مبرّزاً، معدوداً في الطبقة الأولى من أحبارها المتوفرين عليها. يُناظِرُهم في فنونِهم، ويُباريهم في ميادينِهم فيظفَر منهم بالإعجاب والإكبار. ولكن عقله آثرَ من كل هذه العلوم أعسَرَها وأصعَبها تحصيلاً في ذلك العصر، فنَفذَ إلى صميم العلم الخالص والفكر المطلق، فتخصص في الفلَك والرياضيات حتى كان فيهما واحد دهره، ورائد جيله.

كان أحد أعضاء اللجنة التي وضعت التقويم الجلالي على عهد السلطان جلال الدولة ملكشاه السلجوقي، فجعلت يوم النيروز مبدأ

السنة، أي أول نقطة من الحمل على إصطلاح المتقدمين [١]. ويُعَد هذا التقويم أصح من التقويم الجولياني، وقريباً في دقّته من التقويم الغريغوري، ويفنله بعضهم على هذا الأخير أيضاً.

ولم يذكر لنا المؤرخون صِفة الخَيّام في هذه اللجنة ومكانته بين أعضائها، ولكن الأرجح أنه كان رئيسها. يدلّ على هذا ما حكاه القزويني حيث قال: (وكان - أي الخَيّام - في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي، سَلَّم إليهِ مالاً كثيراً ليشتري بهِ آلات الرصد ويتَّخذ رصد الكواكب، فمات السلطان وما تمَّ ذلك [٢] وكان هذا سنة ٤٦٧ هـ أي نفس السنة التي إجتمعت فيها اللجنة لوضع التقويم. فلو لم يكن أعلَم القوم في الفَلَك لما آثره السلطان بمهمة إنشاء الرصد. والواقع أن بعض الرواة يقول إن السلطان عَهَدَ بإنشاء الرصد إلى جماعة من الفلكيين منهم شاعرنا الخَيّام. ولكن الظاهر أنه كان أرجحهم، فإن تفوّقه أمرٌ ذَكرَهُ غير واحد من الرواة القدامى.

أما في الرياضيات فقد بقي لنا كتابه القيّم «الجبر والمقابلة) الذي حَلَّ فيه بعض ما كان مستعصياً على مُتقدّميه من مسائل الجبر والهندسة، فأضاف بذلك ثروة جديدة إلى ثروة العلم. [٣]

---

(١) ما زال النيروز رأس السنة في إيران، وهو أول أيام الربيع (٢١آذار) الذي يتساوى فيه الليل والنهار؛ وأكبر الأعياد لدى الايرانيين شعباً وحكومة، من قديم الزمان. فهو عيد الطبيعة ورأس السة حقاً.

(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، (آثار البلاد وأخبار العباد) تأليف سنة ٦٧٤ هـ

(٣) حلَّ في هذا الكتاب المعادلة ذات الدرجة الثالثة بطريقة هندسية. وقد ألّفه بالعربية كأكثر كتبه. طُبِع بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٨٥١ م.

وكان فوق هذا طبيباً نطاسياً، بلغ من حَذَقه وبُعد صيته أن دُعِيَ لمعالجة السلطان سنجر حين أصابه الجدري في صباه. وكان مُبرزاً في علوم الطبيعة فعدّوه (تِلوَ أبي علي - أي إبن سينا - في أجزاء علوم الحكمة) [١].

وأما التاريخ والجغرافيا وعلوم اللغة وعلوم الدين فقد بلغَ فيها ما بلغ أصحابها المنقطعون لها، وقد تأدّى إلينا في هذا خبر طريف رواه البُيهَقي [٢]

حيث قال: (... وقيل دخل الإمام عمر يوماً على شهاب الإسلام الوزير.. وكان عنده إمام القرّاء أبو الحسن الغَزّال، وكانا يتكلمان في إختلاف القُرّاء في آية؛ فقال شهاب الإسلام: على الخبيرِ سَقطنا! فسأل الإمام عمر عن ذلك فذكر وجوه إختلاف القُرّاء، وعَلَّل كل واحد، وذكر الشواذ وعلَّلها، وفَضَّلَ وجهاً واحداً على سائر الوجوه.

فقال إمام القرّاء أبو الحسن الغزّال: كثّر الله في العلماء أمثالك! إجعلنا من أدمة أهلك وإرضَ عنّي، فإني ما ظننتُ أحداً من القُرّاء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفه، فضلاً عن واحد من الحكماء! ..).
فإذا كان هذا مبلغ علمه في مثل هذا الفن الخاص الذي قَلَّ مَن يطلبه، فما بالك بالعلوم الشائعة الأخرى من فِقه وتفسير وحديث وكلام؟
وقد كان الأقدمون يعرفون له هذا التفوّق ويُشيدون بهِ، فما وقعت عيني على

---

(١) و(٢) (تتمة صوان الحكمة)، وقد مرّت الإشارة إليه في الحاشية.

أسمه في إحدى الروايات إلّا مقروناً بالتبجيل.

ولَئِن طَعَن بعضهم في دينه فما طعن أحد منهم في عملِهِ أبداً. حتى الشيخ الرازي [١] الذي إستشهد على ضلال الخَيّام برباعيتين ذكرَهُما، أغدقَ عليه ما شاء من صفات المديح قبل أن ينعته بالضَلال، فقال: (.. حتى أن أحد الفُضَلاء المشهور لديهم بالفضل والحِكمة والكَياسة والمعرِفة، وهو عمر الخَيّام، قال من فرط الحيرة والضلالة...»، ثم يذكر الرباعيتين [٢].

إلّا أنه كان قليل التأليف، فلم يترك لنا من الكتب إلّا (الجبر والمقابلة) الذي تمَّت الإشارة إليه، وإلّا عدداً قليلاً من الرسائل في شتّى أصناف علوم الطبيعة. والحق أن المتقدّمين ذكروا له هذا الإقلال أيضاً وعابوه عليه، فعدّه بعضهم من باب البُخل بالمعرفة.

الخَيّام الفنّان

كان عبقرينا الفلكي بالإضافة إلى كل عِلمه هذا أديباً شاعراً، يذوق الأدب ويحفظ الشعر، ويقرضه بالعربية على قِلّةٍ طوراً، وبالفارسية أطواراً. وقد خلّف لنا هذه الرباعيات الباهرة المتألقة في سماء الأدب الفارسي خاصة، والأدب الشرقي عامة، تألّق النجم الوَهّاج. وهي من أنفَس ما أنتجتهُ الثقافة الإسلامية في كل عصورها، وأشهر كتاب شرقي على الإطلاق في الشرق والغرب، والغرب على الأخَص.

---

(١) مر ذكره في الحاشية.

(٢) هما الرباعيتان ٧٤و٩٥ من هذه المجموعة.

وما مِن لغة حيّة إلّا وقد تُرجِمَت إليها الرباعيات أكثر من مرة، فما ينازعها من تراث الشرق في ذيوعها في العالم اليوم إلّا (ألف ليلة وليلة). وهو كتاب لا يُعزى الفضل في تأليفة إلى أحد، فقد أشتركت فيه أجيال ومؤلفون.

عقيدته

من المؤمنين طائفة لا يُحبّون أن ينسِبوا أحداً إلى الكفر. فهم من باب التقوى، يصفون بالإيمان حتى من كان كُفره صراحاً لا مرية فيه، ولا سيما بعد وفاته، على سُنّة: «أذكروا موتاكم بالخير». وهؤلاء على طيب قلوبهم وكرم نفوسهم لا يصلحون لتمحيص التاريخ على أساس علمي. ومن هذه الفئة من عَزا إلى النبي العربي أحاديث أرادوا بها إلى الإصلاح فأفسَدوا، فحكى بعضهم عن الرسول مثلاً (أَنَّ من قرأ سورة الضُحى صجاحاً كان له أجر سبعين ألف مَلَك، لكل مَلَك سبعون ألف رأس، في كل رأس سبعون ألف لسان، وكل لسان يُسبّح الله بسبعين ألف لغة)..

وأمثال ذلك من الأحاديث الموضوعة كثير. أرادوا أن يُصلحوا بترغيب الناس في تلاوة القرآن مثلاً فأفسدوا الدين وشحنوه بالخرافات، كأنما توهَّموا أن النبي كان عاجزاً عن قول ما قالوا، أو أنهم أوحِيَ إليهم من أمور الدين ما لم بوحَ إليه! ونسوا أن الحقيقة ضالّة المؤمن، وأن في وصف أحد الزنادقة بالإيمان لَضَرراً بالغاً بالدين، إذ يتوهّم سواد الناس أن ما قال ذلك الزنديق ليس زندقة ولا كُفراً، فيحذون حذوه ويقولون قَوْله. وليت شِعري ما يَربح الدين من الزغم بأن بَشّار بن برد مثلاً مؤمن تَقيّ، وهو لا مؤمن ولا تقي؟ حتى المعرّي والخيّام ما الفائدة من ستر زندقتهما، وقد كانا زنديقين، وشِعراهما الحافل

بالزندقة مَلَء الأفواه.؟
إنَّ الباحث الحق يجب أن يكون كالطبيب، يُشرّح ويتحرّى الحقائق الباردة بلا تستّر ولا تحرّج. الأعضاء عنده كلها سَواء لا حُرمة لبعضِها دون بعض، ولا فَضل لبعضِها على بعض إلّا بالعافية. وإذا كان «لا حَياءَ في الدين» فلا مُداجاة في العلم والتاريخ.

ولا أعلم هل كان المرحوم فروغي من هؤلاء الأبرار المُفسدين حين نَفى الإلحاد عن الخَيّام بالرغم مما في رباعياته من صريح الإلحاد. فهو يدافع عنه ويتأوَّل بعض رباعياته، كأنما يدافع عن قريب له أمام المحكمة ليُنقذه من حبل المشنقة، ثم هو يتغافل عن رباعيات له إلحاديّة لا تقبل التأوُّل، كأنه لا يراها. وكان الخَيّام يكتم إلحاده في حياته خيفةً على حياتِهِ، أما اليوم وقد تصرّمت عليه طوال القرون فقد أنجاه الموت مِن خيفة الموت.

وما كان الخَيّام وحيداً في إلحاده، في عصره ولا فيما سبقه أو تلاه من عصور. وقد كان عصره على الأخص يمور كالبحر الهائج، تضطرب فه العقائد وتتمرّد، وتتلاطم - بعد أن حرَّك ساكنها إنتشار الفلسفة اليونانية وذيوع زندقة الفرق الباطنية. فكان في ذلك وفي فَساد سيرة الكثيرين من رجال الدين، ما عاون على فشوّ الإلحاد بين عامة الناس كخاصتهم، وجَهَلتهم كمثقفيهم.

وحجة المرحوم فروغي في الدفاع عن الخَيّام هي أنه إنما كان يتساءل عن حكمة الله في أمور لم يدركها عقله ولا عقل سواه، وأن التساؤل ليس كفراً.

«فالذي يلوم الخَيّام إذاً بسبب إظهار حيرته في شؤون الدنيا لم يفطن إلى أنه هو أيضاً لم يفقه شيئاً وأنه جاهل مُركَّب، وأن معنى كلامه هو أن الحقيقة لي، فسلِّم بالطاعة ودَع عنك الفضول، وأَرِح عقلك الذي أعطاكه الله لتنشد الحقيقة. وهذا هو الكفر في شرع الحِكمة والمعرفة» [1]. الحق أنهُ لا مجال للإنكار أن بعض الرباعيات يمكن عَدَّه من باب التساؤل وإظهار الحيرة في شؤون الدنيا، على حَد تعبير المرحوم فروغي. لكن ثَمّة بعضاً آخر لا يأتيه الشك ولا يمكن عَدّه إلّا من باب الجحود وإظهار الكفران.

تأمَّل هذه الرباعيات:

إنَّ قُرآناً دَعَوْهُ في الورى خير البَيان
ليسَ يُتلى دائماً، بل بينَ آنٍ وأوان
وعلى الأقداحِ خُطَّت آيةٌ بَيّنةٌ
أبداً تُقرأ، في كُلِّ زمانٍ ومكان؟

***

قيل لي: ما أطيبَ الجَنّاتِ بالحور الحِسان
بَيْدَ أنّي قلتُ: ما أطيبَها بنت الدِنان!
فدَع القرض، عليكَ الآن بالنقد الوَكيد
يا صديقي، إنَّ صوت الطَبْل يَحلو من بعيد!

---

(١) رباعات حكيم خَيّام نيشابوري، ص ١٣.

أبدَعَ الصانعُ تركيبَ طباعِ البشرِ
فلماذا شانَها بالنَّقْصِ أو بالوضَرِ؟
إن تَكُن جاءت مِلاحاً، فلماذا خَرَّبها؟
أو تَكُن جاءت قِباحاً، فعلى مَن عَيْبُها؟

***

حارَ قَومٌ بينَ شَكٍّ ويقينٍ، يا صديقُ
وأطالَ الفكرَ في المذهَبِ والدينِ فريقُ
أنا أخشى أن يُنادى ذاتَ يومٍ: أَنْ أَفيقوا
أَيّها الجُهّال، لا هذا ولا ذاك الطريقُ!

أفهذا مقال من يتحرّى حكمة الله؟ وإن لم يكن هذا كُفراً، فالكفر كيف يكون؟ إنَّ هذه الرباعيات موجودة كلها في مجموعة فروغي، والأخيرتان منها من الرباعيات المعتمدة. وفي مجموعة فروغي من أمثالِها ما يَربو على العشرين!

الإلحادُ الرياضي:

كان عقل الخَيّام رياضياً أ قبل كل شيء، فهو أخو أعدادٍ مضبوطة، وأشكال هندسية منتظمة. يحسبها بالمنطق الرياضي الدقيق الذي لا يقبل زيادةً ولا نقصاً، ويقيسها بالأدلة الهندسة الموزونة التي لا تقبل تأوّلاً ولا نقصاً. فالرياضيات لا مذاهب فيها ولا جدَل ولا أحزاب - كما في الدين والإجتماع

والسياسة. بهذه العقلية الرياضية نظر الخَيّام إلى الدين، وناقش مسائله مُسائلة مَسائِل الجبر والهندسة، فما إنتهى إلى نتيجة رياضية لا تقبل الجدل. وكيف يمكن أن يكون الدين كذلك، وليس في التاريخ ما أثارَ الجدَل وإختلاف الآراء كالدين؟

إننا نعلم أن المسلمين إنقسموا إلى نحو سبعين فرقة، لكُلٍ منها كُتبها وأحبارها وعقائدها، وقعت بينها إلى جانب المناظرات والمهاترات حروب سُفِكَت فيها الدماء، ولم يمنع ذلك أن يكونوا كلهم مسلمين. فأمّا مسائل الرياضيات فلا فِرَق فيها ولا حروب، يتَّفق فيها الناس على إختلاف مِلَلِهم وأجناسِهم. فإذا عرضت مسألة رياضية على مسلم في الحجاز وكنفو شيوسيٌّ في الصين كان جوابهما واحداً. فإذا إختَلفا فلا بد أن يكون أحدهما، على الأقل، مخطئاً؛ ولا مفرَّ لهُ من التسليم بخطأه إذا أرشَدْتَهُ إليه. وأما إذا إختلفَ إثنان في مسألة مذهبية، ولو كانا من دين واحد، فالأمل جدُّ ضعيفٍ في وصولهما إلى نتيجة يتّفقان عليها. ذلك بأن الدين أمرٌ روحانيٌّ إلهامي، لا مادي ولا حسابي.

ومعلوم أنه لا بُدَّ لذي الدين من الإيمان بأمور فوق إدراك عقله، وعلى هذا الإيمان يبني إيمانه بما يدخل في متناول عقله. فإذا عَرَضَت له قضية لا يفقهها سَلَّم بأن عقله أصغر من أن يُدركْها. أما محاكمة كل مسألة على هذا النحو الرياضي فخليقٌ بأن ينتهي بالمرء إلى مثل ما إنتهى إليه بالخَيّام من حيرةٍ وإنكار.

أنظر الى هذه المسألة الحسابية:

قِيلَ في الجنّةِ حورٌ قاصرات الطَرفِ عِيْن
وخمونٌ جارياتٌ في نهورٍ وعيون
أيُّ ضَيْرٍ إن طَلبْنا الفوزَ والخمرَ هُنا؟
إنَّ هذا هوُ عُقبى الأمرِ فيما يذكرون!

فهر يأتيك أولاً (بالفرضية)، ثم يأتيكَ (بالبرهان الرياضي).

وأنظر إلى المسألتين التاليتين:

أنتَ يا رَبّي كريمٌ، أنتَ ذو لُطْفٍ وَمَنّ
فلِماذا تطرد العاصيَ عن جَنَّةِ عَدْنِ؟
ليسَ جوداً مِنكَ أن تُعْطِيَني عن حسَناتي
إنما جودكَ أن تؤتِيَني عن سَيئاتي!

وتأمّل هذه المناقشة الغريبة:

يَعلمُ اللهُ بِشُربي هذه الصَهباءَ، قِدْما
فإذا لم أَحسُها لَمْ يَكُ علمُ الله عِلما

وإقرأ هذا الإستنتاج الطريف:

قالَ مَن صارت لهُم في العِلم والتقوى الإمامَة:
(يُحشَر المرءُ على ما كان إذْ لاقى حِمامه)
فَلْنُلازِم ويحَكَ الحسناءَ دوماً والمُدامَة
فعَسانا هكذا نُحشَرُ في يوم القيامة!

لقد كان يُدرِك من غير شك ما في هذا الإستنباط الأخير من مغالطة، ولكنه فيما يبدو أعجبته النكتة في منطقها الظاهري وسترى الكثير في رباعياته من أمثال هذه المناقثات والمغالطات.

وشغلت فكره قضية الثواب والعقاب بإعتبارها ثمرة الإئتِمار بأوامر الدين والإنتهاء عن نَواهيه، ولكن عقله لم يُهدِهِ إلّا إلى الإنكار.

يا فؤادي، لَم يَرَ الجنَّةَ والنار بَشَر
أم أتى من ذلكَ العالَمُ آتٍ بخبَر؟
إنّ ما نخشى وما نرجو مَنوطان بشيءٍ؟
ليسَ يبدو مِنهُ إلا أسمٌ ووصفٌ للنَظر!

ثم يُفضي به طول التفكير في الموضوع إلى هذه النتيجة:

كَرَّ بِي الفِكرُ إلى أوَّل يومٍ في الخليقة
ناشداً في اللوحِ والجنَّة والنار الحقيقة
وإذا العقلُ يُنادي قائلاً: ما أَضْيَعَكْ
وَيكَ إنَّ اللوحَ والجنَّةَ والنار مَعك!

ومن أهم ما يستغرق تفكيره كذلك مسألة القضاء والجبر تلك المسألة العويصة التي شَغلت أذهان المفكرين في كل زمان ومكان، من ملاحدة ومؤمنين. وقد إنتهى منها الخَيّام كما إنتهى الكثيرون من ملاحدة ومؤمنين، إلى أنَّ الإنسان مُسيَّر لا خِيرة له في شيء، من يوم خُلِق إلى يوم يموت. فكان ذلك من جملة الأسباب التي أدَّت به إلى إنكار الثواب والعقاب، والكُفران بذات الله.

قلمُ المِقدار أجرُوهُ بأمري دون أمري!
فلماذا ساءَلوني مِنهُ عن خيرٍ وشَرّ؟
ذَهَبَ الأمسُ بدوني، وأَتى اليومُ بدوني
فغَداً باللهِ ما حُجّتهم إن حاسبوني؟

وعمدَ إلى علم الكلام فجعلَ يناقش صِفات الخالق في رباعيات له وافرة العدد، على طريقتِهِ الجدلية الرياضية. منها:

قيلَ لي: ثَمَّ حِسابٌ وعقابٌ يوم حَشْرِ
يومَ يشتَدُّ الحبيب المُرتَجى في كُلِّ أمرِ
ليسَ عند الخَيِّرِ المَحْضِ سوى الخير لَعَمري
فإغتَبِط وَيْكَ فعُقبى الأمرِ ليسَت غير خيرِ

* * *

إنني يا رَبُّ عبدٌ مُذنِبٌ، أينَ رِضاؤُك؟
وفؤادي كالدَياجي مُظلِمٌ، أينَ ضياؤُك؟
وإذا أَعطيتَنا الجَنَّةَ بالطاعةِ مِنّا
كان هذا مِنكَ بَيْعاً، أينَ يا رَبّ عَطاؤك؟

* * *

يا إلاهي، أنا مَن قَد بَرَّأتْني قُدرتُك
وترعرتُ عزيزاً، دَلَّلتْني نِعمَتُك
سوفَ أمضي في المعاصي جاهداً سبعينَ عاماً
لِأَرى مَعصِيَتي أوسَعُ أم مَغفرتك!

مقارنة بين زنديقين

أبو العلاء المعرّي أيضاً أنكر الدين وكَفر، ولكنّه وقف عند حدّ، أما الخَيّام فقد مضى في كُفرانِهِ إلى النهاية.

ثار المعرّي على المجتمع وإنتقدَ أخلاق بَنيهْ وكذلك فعل مِن بعده الخَيّام، وثار على المشعبذين من رجال الدين وحمَلَ عليهم، وكذلك فعل الخَيّام، وثار على الدين كذلك وكذلك فعل الخَيّام، ثم قرَّ عند هذه المرحلة وأقام.

قال المعري في إنكار دين الإسلام وكُلّ دين:

هَفَت الحنيفةَ والنصارى ما إهتَدَتْ

ويهودُ هامَت والمجوسُ مُضَلَّلة

إثنان أهلُ الأرضِ: ذو عَقلٍ بَلا

دينٍ، وآخرَ دَيِّنٌ لا عقلَ لَه!

ولكنه تحيّر في أمر البعث بعد الموت، فأنكرهُ مرةً، وآمَنَ بهِ مرةً، وتردَّد فيه طويلاً. فمِن إنكارِهِ قولَه:

تُحطّمنا الأيام حتّى كأنّنا

زجاجٌ، ولكن لا يُعاد لهُ سَبْكُ

ومن إيمانِهِ قوله:

قالَ المُنَجِّمُ والطبيبُ كلاهما:

لا تُحشَر الأجسام. قلتُ: إليكُما

إنْ صَحَّ قولُكُما فلَسْتُ بخاسرٍ

أو صَحَّ قولي فالخَسارُ عليكُما!

وكأنّه نظر في هذا الى الخَيّام نفسه، فقد كان منجّماً وطبيباً، فكان بذلك على صِلةٍ وُثقى بأسرار الكون وعجائبه؛ يُريه الفلك عَظَمة الأجرام الضخمة ومسافاتها الشاسعة لا يُدركها الكفر، ويُظهرُ الطب على أسرار جسم الإنسان وهو أعجبُ جهاز وأدقّه على سطح هذه الكرة الشَريدة التائهة. ناهيك بما يَقترِن بهذا الجُرْم الصغير، الذي إنطوى فيه العالم الأكبر، من نفسٍ زاخرة بالأحاسيس وعقلٍ حافلٍ بالأَخْيلَة والأفكار - مما يكاد يجعله على ضآلته أضخم من الأفلاك وأفسَحُ أبعاداً. ومن عادة المؤمنين إذا أرادوا إثبات وجود الخالق أن يتفكّروا في خلق السموات والأرض كالفلكيين، أو في خلق أنفسِهم كالأطباء -فيستدلّون بالصنيع على الصانع. ولكن يظهر أن المُنجّم والطبيب كانا مضرب المثل في الكُفر في ذلك الزمان فقرنهما المعرّي.

ولستُ أعلمُ هل كان شيخ المُعرَّة جادّاً أم هازلاً حين ردَّ على الطبيب والمُنجِّم إنكارهما المَعاد، وأثبتَ إيمانه هو على هذا النحو الصَيرفيّ، في حسبان الربح والخسارة. ولكني أذكر أني مُذ وقعَت عَينايَ على هذين البيتين، في صِغري، وقعَ في نفسي أنه يتهكّم.

على أن له أقوالاً غير هذا لا تهكّم فيها، أدلُّ على إيمانه بالحشر، ومنها:

إذا ما أعظُمي كانت هباءً

فإنَّ الله لا يُعييهِ جَمعي

ولكنه وقد آمنَ بحشر الجَسَد هُنا، نجده يقول في مكان آخر:

أمّا الجِسومُ فللترابِ مآلُها

وعَييتُ بالأرواحِ أنّى تَسلِكُ!

ثم يعود فيقول في مكان آخر:

وإن صَدئَت أرواحَنا في جسومِنا
فيوشِكُ يوماً أن يُعاوِدُها الصَقْلُ؛

ثم هو يقول متردّداً متحيراً:

إن يَصحَب الروح عَقلي بعدَ مَظعَنها
للموتِ عنّي، فأجدر أن تَرى عجبا!
وإن مَضَت في الهواءِ الرَّحْبِ هالِكةً
هلاكَ جسمي في تُربي، فوا شَجَبا!

فمن العَبَث إذاً أن نحاول تحديد عقيدة المعرّي في الحشر تحديداً دقيقاً وهو نفسع حائر في أمره، عاجز عن تحديد عقيدة نفسه في الجسم والروح، وفي رأيه في خلودهما أو فنائهما.

وأما الخَيّام فقد أنكر الحشر بجملته، فلم يذكر جسماً ولا روحاً:

أَيَهذا الغافِلُ الجاهلُ ما أنتَ نضارُ
فيُواروه الثَرى كي ينشروه بعد طَيْ

هذا إلى أنه ليس في رباعيات الخَيّام ما يجحد به الروح، بل إن ما يدل على إيمانه بوجوده مع الجسم، فالمفهوم من نكرانه البعث إذاً أنه يعتقد بفنائِهِ مع الجسم. ولكن المعرّي آمن بالله بعد أن كفر بالدين وثلثَشَكَّ. في المعاد، أما الخَيّام فقد كفر بالله أيضاً.

قال المعرّي:

أثبتُّ لي خالقاً حكيماً *** ولستُ من معشرٍ نُفاةِ؛

وقال الخَيّام:

قال لي القلبُ: هو العلْمُ اللدنِيُّ خَيالُ
فإذا إستعطتَ فعلّمنيَ مِنهُ ما يُقالُ!
قلتُ فأسمَع، أَلِفَ. قالَ: تَمَهَّل وَيْكَ يكفي
إن يكُن في الدارِ مَن يُسْمَى فحسّي فَرْدُ حرفِ!

تناسخ الأرواح

وتوهئم بعض المتوهّمين أن الخَيّام كان يعتقد بتناسخ الأرواح، إستناداً إلى رواية تَزعم أنه لما كان أستاذاً في مدرسة نيسابور شاهدَ مع تلاميذه حماراً كان ينقل الآجر لترميم المدرسة، حَرَنَ ووقفَ بالبابِ فلم يدخل. فتبسَّم الخَيّام ودَنا من الحِمار وأنشدَ في أذنِه هذه الرباعية على البديهة:

أيها الذاهِبُ، ها قد عُدْتَ حيواناً أضلّا
وَيْكَ ضاع أسمك من بين الأسامي وإضمَحلّا
إن أضفاركَ صارت حافراً مُجتَمِعاً
وغَدَت لحيتُكَ الشَمطاء في عَجزِكَ ذَيْلا!

فدخلَ الحمار. ولمّا سُئِل الخَيّام عن ذلك قال لهم إن هذا الحِمار كان أستاذاً في هذهِ المدرسة، فلمّا ماتَ تقمَّصت روحُهُ جسمَ حِمار،

فأستحى أن يدخل. غير أنه لما وجد أصحابه قد عرفوه لم يجِد مناصاً من الدخول [١].

فإن كان لهذه الحكاية من الحقيقة نصيب، فلقد حدثت لأحدٍ ما، فلمّا ذاعت عُزيَت إلى الخَيّام لشهرتِهِ، فعفى الزمان على أسم صاحبها. وإن تكن وقعت للخيام فلا بدَّ أنه قال هذه الرباعية سُخرية بالبشَر، وتهكّماً بالأستاذية. وله في الأستاذية مثلاً هذه الرباعية:

قد لزِمنا في صِبانا مجلسَ الأستاذِ حينا
ودُعينا بعدُ أستاذاً ففزنا ورَضينا
فأستَمِع آخرَة الأمرِ إلى أينَ إنتهينا:
مِن ثُرى الأرضِ خَرجنا، ومعَ الريحِ مَضينا

وأيّاً كان قائل هذه الرباعية الحمارية فإن أسلوبها لا يدلُّ على أن صاحبها يؤمن بتناسخ الأرواح، فإنَّ ما فيها من مَزْحٍ قاسٍ وسُخرية تُثير الضحك يوجِب علينا أن نَستنتج أن قائلها - سواء أكانَ الخَيّام أم سواه - يكفر بتناسخ الأرواح، ويهزأ به وبمن يعتقد به. وقد سخر فيلسوف المعرّة كذلك من هذه العقيدة حيث روى في رسالة الغفران على لسان بعض النُصَيْريّة هذين البَيتَين [٢]:

أعَجَبني أمَّنَا لصرفِ الليالي *** جَعَكَلَت أختَنا سُكَيْنة فارة!

---

(١) أحمد بن نصر الله التَّتوي السندي المعروف بأكبر شاه الهندي: (التاريخ الألفي) تأليف سنة ١٠٠٠هـ ولا نعلم المصدر الذي أخذَ عنه هذه الرواية، فهي لم يذكرها مَن تَقدَّمه من الرُواة فيما يظهر. (٢) الدكتور طه حسين، (تجديد ذكرى أبي العلاء).

فازجري هذه السَنانير عنها *** وأتركيها وما تضمُّ الغراره!

وإنما تُنبئ رباعيات الخَيّام أنه كان يؤمن (بتناسخ الأجساد) إن صحَّ الصتعبير. تستحيل تراباً بعد موت أصحابها، ثم تكون أجساماً لسِواهم، ثم تعود تراباً، ثم تصير أجساداً.

كان من قبلك في الدنيا رجالٌ ونساء،
زَيَّنوا الأفاق، كالأنجُمِ لاحوا وأضاؤوا
سوف يغدو جسمك المُختالُ طيناً، فهو طين
كان جسماً لألوف الناسِ مِن قبلِكَ جاءوا

إلحادٌ وتقيّة

ومن عجائب المرحوم فروغي وقد أثبت إيمان الخَيّام وسلامة عقيدته - أن نفى عنهُ كل رباعية فيها تديّن وإيمان، بحجّة أنذ هذه الرباعيات الدينية على العموم ضعيفة المعنى، لا إبداعَ فيها ولا عُمق تفكير. والحق أن فروغي ليس وحيداً في نبذ هذه الرباعيات، فإن المتأخّرين من الباحثين، ولا سيما الغربيون، كلهم على هذا الرأي، وما كان من فروغي إلّا أن شايعهم.

أما أنا الذي قلتُ بإلحاد الخَيّام على العكس من فروغي، فأعتقد على العكس منه أيضاً، أن للخَيّام رباعيابت دينية كأمثال رباعيات المؤمنين الأبرار. وتعليل ذلك يَسير، فقد قالها تمويهاً وتقيّة. يَدرَأ بها عن نفسِهِ مقالة السوء وتهمة الكفر، تلك التهمة الخطيرة التي كثيراً ما أدَّتبأصحابها إلى القتل حرقاً بالنار أو رجماً بالحجارة أو ضرباً بالسيف. وأمثال إبن المقفّع والحَلّاج ليسوا بالقليلين.

فليس ببعيد إذاً يتّقي الخَيّام القتل ببضع رباعيات ينظمها إيهاماً للناس. وأخالُه قد هيأ عدداً منها في جيب ذاكرته، فإذا سأله أحد الشانئين عن رباعياته يُريد بذلك إحراجه في مجلس من رجال الدين مثلا - تلا عليه الخَيّام بعض الرُّقى من هذه الرباعيات الدينية يتخلّص بها من مأزقه. فهي سلاحٌ أشبه بسلاح سامّ أبرص، إذا دهمه عدوٌّ تركَ لهُ ذيله يتلوّى بين يديه ويشغله، ونجا هو بنفسِه.

وعندي على ذلك أكثر من دليل. وإليك أولاً مقطوعته العربية هذه، وما أحسَبُكَ نسيتها:

تُدين ليَ الدنيا، بل السبعةُ العُلى***بل الأفقُ الأعلى إذا جاش خاطري
أصومُ عن الفحشاء، جَهراً وخِفيَةً ***عَفافاً، وإفطاري بتقديس فاطري
وكم عُصبَة ضلَّت عن الحقّ فأهتدَت***بطُرقِ الهُدى من فَيضيَ المُتقاطِرِ
فإنَّ صِراطي المستقيم بصائِرٌ *** نُصِبْنَ على وادي العَمى كالقناطرِ!

فكُفرِهِ في البيت الأول صَراح لا لَبسَ فيه. فما إكتفى بأن تُدينُ له الدنيا ثم السبعة العُلى، وإنما تطاوَل إلى الأفق الأعلى أيضاً. وكِلا الإصطلاصحين «السبعة العُلى» و «الأفق الأعلى» تعبير قرآني. وكأن هذا المعنى ظلَّ يجيشُ في نفسِهِ فلم يَطِق إلّا أن ينفثهُ في هذا البيت ويَستريح، على الرغم من خِشيتِهِ مَغبّة هذا التجديف. ولكن الخِشية دفعتهُ إلى أن يدس البيت الثاني:

أصومُ عن الفحشاء، جَهراً وخِفيَةً ***عَفافاً، وإفطاري بتقديس فاطري!

تمويهاً وتضليلاً. وإذ وضعَ هذا البيت بعد سابِقِهِ مباشرةً ليبعث الإبتسام من هذه المحاولة الماكرة. ومن الطبيعي أن يكون هذا البيت - الذي قالَهُ مُكرَهاً

ليعبّر فيه عن نقيض عقيدته - متكلّفاً، ضعيف المعنى، مزوَّق الألفاظ. ثلاث صفات ينفيها فروغي عن شعر الخَيّام، في أكثر من مكان من مقدمتِهِ.
وأحسَب أن الخَيّام نظم في أول الأمر ثلاثة أبيات، ثم صنعَ هذا البيت فحشرهُ مخالسةً بعد البيت الأول عسى أن يُخفِّف من وقعه. وقد غيّر هذا البيت معنى البيتين اللذين يليانه كل التغيير، فإن شئتَ أن تعرف قصد الخَيّام فإحذفْهُ وأقرأ الأبيات الثلاثة من جديد. وكأنكَ بهِ يقول عندئذ إنه في الإلحاد إمامٌ مُجتهِد، لهُ أتباع مُقلّدون، يقودهم إلى سَواء السبيل، في وادي العمى، الذي يقصد به «الإيمان» فيما يبدو.
والتقية معروف أمرها في تلك العصور. ولقد أباح الشرع للمسلم إجتراح المحرّمات عند الضرورة وخِشية الهَلاك، من شربٍ للخمر وأكل للحم الخنزير وكَذب. فلَئِن إقترفَ المؤمن المحرَّمات إضطراراً، فقد أباحَ الملحِدون لأنفسِهم التظاهر بالتقوى، إضطراراً أيضاً. وناهيك بفيلسوف العرب المعرّي وإستقامته في حياته وصبره على مكاره الدنيا، وهو الذي أخذ نفسه بعمل كل ما كان يعتقد أنه خير، وترك كل ما كان يعتقد أنه شَر، حتى لقد إنزوى في بيتِهِ وقنعَ ببلغة العيش بعد أن عزف عن مُتَع الحياة وطيّباتها من مال وجاه ومرأة وخمرة ولحم. ومع مع هذا لم يجد مناصاً من التقيّة دفعاً للهَلَكة. قال:

أصدُقْ إلى أن تظنَّ الصِدق مَهلكةٌ
وبعد ذلك فأقعد كاذباً وقُمِ

وقال:

لا تَخبِرَنَّ بكُنهِ دينُكَ معشَراً
شُطُراً فإن تفعل فأنتَ مُغرَّرُ
وأصمُت فإنَّ الصمتَ يكفي أهلَهُ
والنُطقُ يُظهِرُ كامناً ويُقرّرُ

وقال:

ما لي رأيتُ دُعاة الشَرِّ ناطقةٌ
والرُشد يصمتُ خوفَ القتلِ دعواهُ؟

وقال:

إذا قلتُ المُحال رَفعتُ صوتي****وإن قُلتُ اليَقينَ أطلْتُ هَمسي!

ويَقْرُب من هذا قول الخَيّام:

فُصِّلَت أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاتر
قد طويناها، ففي النَشْرِ وَبالٌ ومخاطر
لم نَجد في الناسِ من يَعقلُ من أهل البصائر
فغدا يُعجزِنا إظهار ما تُخفي الضمائر

ويَحكي لنا القَفطيُّ أن الخَيّام حَجَّ البيت الحَرام خوفاً على دمه «وأمسَك من عِنان لسانِه وقلمه» وجعل بعد عودته إلى بلده يغدو إلى المساجد تظاهراً بالإيمان. أَفَمَن يتجشَّم السَفر من نيسابور إلى مكّة في ذلك العهد الذي كان فيه «السَفر قطعة من سَقَر» لا يُجشِّم نفسه تزجية بضع رباعيات سقيمة متكلّفة المعنى والمبنى ينجو بها بحياته، في ذلك العهد الذي سادَ فيه التعصّب،

في نيسابور خاصة، لسوء حَظ الخَيّام؟
ويذكر فردريك روزن رسالة للخَيّام في مجموعة «روضة القلوب» [١] يريد ليستنبط منها عقيدة الخيّام فيقول: «ولا يمكن فهم أفكاره الفلسفية فهماً كاملاً من هذه النسخة أيضاً، ولا يمكن حمل تضاذ أفكار عمر الخَيّام. كالاعتقاد بالله ورحمته من جهة، وجور الخالق في التقدير وغيره من جهة أخرى - إلّا على سِعَة أدفكاره وتنوّع نظرياته» [٢].

وأنا أستبعد أن تبلغ سِعَة أفكار الخَيّام وتنوّع نظرياته من الخَلْط والتناقض هذا المبلغ الرائع، وهو الرياضي الفذ، الدقيق الفكر. فالواضح أن حكيمنا الشيخ يُضلل ويُراوغ، فيقول أولاً ما يعتقد ثم يعود فيموّهه ويُضيّع أثره بنقيضه ليستر إلحاده.

ولو قد فطِنَ الدكتور فردريك روزن إلى نبوّ البيت في مكانه من المقطوعة العربية، وإلى حَج الخَيّام «مُتاقاة لا تقيّة» على حد تعبير
القفطي، وإلى رباعياته التي يشكو فيها الناس لأنهم يحولون بينه وبين إعلان آرائه والإفصاح عن أسرار عقله - لغيَّر رأيه في «سِعَة الأفكار وتنوّع النظريات».

---

(١) رسالة خَطيّة موجزة كتبها الخَيّام لإبن نظام الملك الوزير.
(٢) رباعيات حكيم عمر خَيّام، ص ٤٧.

الصَهباء والحسناء

الصَهباء

ما ترددت كلمة على لسان الخَيّام في رباعياته تردّد الخمرة، حتى لَتَخالَهُ في إدمانها والعكوف عليها قريع أبي نؤاس، على حين أننا نجهل أنه قد ذاقها في حياته قط. ولقد حَدا هذا ببعضهم أن يتوهَّم أنه قصَد بها الخمرة الإلهية، وواضح من تأمّل رباعياته أنه لم يَذُق الخمرةَ الإلهية أبداً. فما كان الخَيّام صورفياً، ولا كان له من الصوفية نصيب غير القناعة الأبيّة، والعزوف عن زخارف الحياة، والإجتناب فِتَن السياسة، إيثاراً للعافية، وتغفرغاً للعلم والتأمّل. ولكنه كثيراً ما حمل على المتصوفة في رباعياته وسَمّاهم الزاهدين المنافقين، كما فعل أبو العلاء. فإذا وجدتَ في هذه المجموعة أو في أي مكان، رباعية فيها تشبيب بالخمرة ووجْدٌ بالحبيب، واقتنعتَ أنها صوفية المفغزى فإقنع من فورِكَ أنها ليست للخَيّام.

وإن كان أراد بالخمرةِ شيئاً غير بنت العنب. فإنما كَنّى بها عن عموم المعصية في بعض الأحيان، فإتَّخذها رمزاً لما نهى عَنه الدين من مُحرَّمات. كمثل قوله:

عَلِمُ اللهُ بِشُربي هذه الصَهباءَ، قِدْما
فإذا لم أَحسُها لَمْ يَكُ علمُ الله عِلما

فهذا ينطبق على شرب الخمر وعلى كل معصية يرتكبها عمر الخَيّام. ولكن أتراهُ شَربها قط؟

عند إستعراض رباعياته نجده إذا أخذت بخناقه الهموم دعا بالصهباء:

إسقِني الجريال شَقراءَ بلون الأرجوان
أيها الساقي، فإني ضاق بالهَمّ جَنَاني
إسقِنيها تُذهِبُ العقلَ ولو بعضَ أوانِ
عَلَّني أذهل عن نفسي وأحداث الزمانِ!

وإذا ذَكر الموت وأرادَ أن يغتنم فرصة الحياة دَعا بالصهباء:

آتِني كأساً ودعنا اليومَ نغنَم كُلّ أنسِ
فغداً نصبَحُ آجُرَّاً لِقَصرٍ أو لِرَمسِ

وإذا إشتهى أن يعتزل الدنيا مع الحبيب فالخبز والصهباء، ثم الصَهباء:

أنا إن فُزتُ من القمحِ المصفّى برغيفِ
ومن الخمرِ بزقٍّ معَهُ فخذ خروفِ
ثمَّ أحيا وحبيبُ القلبِ في عَرضِ تَنوفِ
فهَي العيشةُ، ما تاحت لذي المُلْك المُنيفِ

وإذا رأيته إشتهى فخذ الخروف هنا، فإنما هو نُقْلٌ من مُلحقات الصَهباء! .

إن رباعيات الخَيّام مُكتَظَّه بذكر الخمرة، يَلهجُ بأسمها أبداً هنا وهناك. فهل من المعقول أنه لم يَشربها؟

أما الذين يؤثرون أن يُنزِّهوا الخَيّام عن معاقرتها فيستدلّون على ذلك بأننا لا نجد بين الروايات التي بأيدينا ما يُنبئ بأنه كان يشربها. فهذا أضعف دليل. وقد رأينا أن معاصريه لم يكتب لنا عنه منهم إلّا الأقلّون، وأن هؤلاء الأقلّين، لم يذكروا لنا شيئاً فيه غِناء. والواقع أن كل من كُتِب عنه من القدامى، حتى الذين تَلوه بقرون ثلاثة أو أربعة وكتبوا ما كتبوا على السماع والإشاعة - لم يخبرونا عنه إلّا باليسير الذي لا يكاد يشفي غليلاً.

أنهم مثلاً لم يُخبرونا بشيء عن صباه، فهل لنا أن نستنتج أنه لم يكن صبياً في حياته، وأنه إنما وُلِدَ كَهلاً عالِماً قد أخذ من كل العلوم بطرف؟ وهم لم يخبرونا كذلك بشيء عن أمه، فهل يدل ذلك على أن أباه إبراهيم قد وَلدَه لغير أُم؟

وما دامت المسألة مسألة إستنتاج فإنما يحق لنا أن نستنتج أنه شرب الطَلا، ولو على قِلّة، لأنه هو أقرَّ بشربها في الكثير من رباعياته.
وحجذةٌ أخرى ذكرها فروغي، هي أن غيره من شعراء الفرس مثل سعدي وحافظ وجلال الدين قد ذكروا الخمر مع أن عفّتهم وزُهدهم لا ترقى إليهما الرِيَب. وهذا قول لا يخلو من وجاهة، وقد ينطبق على مثل هذه الرباعية:

عَسعَس الليلُ فقُم باللهِ، يا كنزَ الدلالِ

إحتَسِ الراحَ وناغِ العودَ، حالاً بعد حالِ
فالمقيمون مقيمونَ إلى غير مَطالِ
والذينَ إرتَحلوا لَنْ يرجعوا بعدَ إرتحالِ

ولكنه لا ينطبق على هذه الرباعية:

إنها الخمر، حياة الخُلْد أو خُلد الحياهْ
إنها حظّكَ من عهدِ الصِبا، وهي مناهْ
ذا أوانُ الوِرد والخمرةَ، والصَّحْب نَشاوى
فأغنَم الصَفوَ، فإن العيشَ هذا لا سواهْ

ولا هذه الرباعية:

إنَّ آجرَّ سَدادِ الدَنِّ خيرُ من عُلا جَمْ
وشَذا الأقداح أشهى نكهةً من رِزق مَريمْ
رُب آهٍ يُرسِل الخَمّار في جوفِ الدُّجى
هيَ أحلى من تسابيح أبي سعدٍ وأدهَمْ (١)

ولا هذه:

قيلَ لي: ثَمّة جنّاتٍ بها حورٌ وكَوثَرْ
وبها أنهارُ خمرٍ، وبها شَهدٌ وسُكَّرْ

---

(١) في الأصل الفارسي « بو سعيد وأدهَم» وهما صروفيان معروفان أما(جَمْ) فإختصار لأسم جمشيد، وهو ملك فارسي قديم.

فعلى ذِكر الحُمَيّا هاتِ كأساً وتَعجَّلْ
إنَّ نقداً في يَدي أفضَلُ من ألفٍ مؤجَّل؟

ولا هذه:

إن أتُيحَت لي من الحورِ كعابٌ في الربيع
أتحسّى من يَديْها الراح في المرجِ المَريع
صاحِ مهما إشتدَّ قولي في الوَرى قبحاً وهُجنة
فأنا أدنى من الكلبِ إذا إستذكَرتُ جَنّة!

وهذه الرباعيات كلها موجودة في مجموعة فروغي، وأمثالها كثير.
فإذا كان في مقدور فروغي أو غيره من أساطين الأدب والتحقيق أن يَبُت لنا أن الخَيّام قصَد في هذه الرباعيات بالخمرةِ شيئاً غير الخمرة، التي تُصَب في الأقداح، وتؤخَذ باليد، وتُشرَب بالغفم، وتلعب بالرؤوس - كان في مقدورهِ أيضاً أن يُبرهِن لنا على أن كرة الأرض مكعَّب قائم على قرن ذبابة لا قرون لها! والحق أن ثمّة من فحول التأويل والتفسير مَن إستطاع أن يُثبِت ما هو أروع من هذا من حقائق باطلة؛

وإذا رجعنا إلى ما في أيدينا من روايات قليلة ألفَيْنا أن الخمر كانت شائعة في عصر الخَيّام، وأنه كان يُجالِس الملوك ويُنادِم العِلّية، وقد كان لهؤلاء مجالس شرابهم ولهوهم، فليس ببعيد على من يُنادمهم أن يُشاركهم.

وقد لحظتَ من غير شك أنَّني لم أجزم أن الخَيّام كان يشرب الخمرة، ولكني لا أتفق مع مَن يجزم بأنه لم يشربها.

إني لأتصوّره أحياناً عائداً الى بيتِهِ، متأبطاً بعض كُتبه وأوراقه، وقد دسَّ محبرته ومقلمتِه في نطاقه، وهو كئيب النفس ضيّق الصدر لِما لاقى مِن عَنَت البيئة ومُزعجات الزمان، أو لما إنتابه من فِكر في الموت أو تبرّم بالحياة. فإذا هو أراد أن يكتب أو يؤلف عكَّرت عليه الأشجان صَفوَ قريحته، فيتناول كتاباً ليقرأ فيركبه الغَم ويستعمصي عليه الفهم، فيلجأ إلى إبريق الصَهباء يشرب من دمه القاني حتى يثمل وينام.

إشرب الراحَ، فإنَّ العمرَ يتلوهُ الحِمامْ
لَخليقٌ أن تُقضّيه بسُكْرٍ أو منامْ

الحسناء

هذا شأنه مع الصَهباء، فما شأنه مع الحَسناء؟

إن دور المرأة في حياة الخَيّام لأخفى وأعقد. فإنَّ ذِكرهُ لها في رباعياته لَكثير وإن يكُن أقل من ذِكر الخمرة. والحقُّ أن مَجال التأويل هما أوسع، فما أكثر مَن تَغزَّل من الشعراء وتدلّه بلحاظ الحبيب ونهوده وأردافه وسائر مفاتِنه. وهو ليسَ لديه من حَبيب ولا نهود ولا أرداف ولا مَفاتِن. وإن كانَ عُمر الخَيّام قد تزوّج فالظاهر أنه لم يكن موفَّقاً في زيجتِه:

إنَّما الراحة في الدنيا، ولَذّات الصفاء
خُلِقَت للمُطلَق الضارِب في كلِّ فَضاء!

فإذا أصبحَ فردٌ مُستريح البال زوجا
فَلقد بَدَّل مِن راحتِهِ أيَّ عَناء!

ولكن أتراهُ لم يَعشَق أبداً؟
هذا أيضاً سؤال تصعب الإجابة عليه. وإن كانت الخمرة فضولاً لا ضرورة لها، فإن المرأة ضرورة موجودة في دم الرجل كامنة في شعوره. فلا بُدَّ أن يكون لها شأنها في حياة الخَيّام، حتى لو لم يكن قد ذَكَرها في رباعياته.

وأخالَهُ قد أحبَّ، مَرّةً أو مَرّات. فما من شاعر في الدنيا لم يعشق، مهما كانت بيئته وظروف حياته. وأما نصيبه من وِصال مَن أحب فأمرٌ آخر.
كانت ظروف البيئة وتقاليد المجتمع تَحول بينه وبين المرأة عن غير طريق الزواج. وأما حُب السُوق فكان عَسيرُ المنال على مَن كان مثله مكانةً ووَجاهةً. فهل أُتيحَ له أن تتصل أسبابه بإحدى الحرائِر على الرغم من تعنّت الرُقَباء وشِدّة نَكير العُذّال؟ ليس هذا مستحيلاً:

ولو كان عاش في أوروبا لقلنا إنه كان في حياته فُسحة للمخادَنة وإتخاذ العشيقات. ولكن الشرق وسَّعَ على العُزّاب والمحرومين بنظام الرِق والتَسَرّي الذي كان جارياً في زمانِه. فهل كانت له جارية أو جَوارٍ مما مَلكَت يمينه؟ هذا أيضاً أمرٌ نجهله كل الجَهل. ولكنني أُرجّح نفيه، لفقرِهِ وعجزِهِ عن شِراء الإماء وإعالتهن.
إن الموضوع بِكرٌ لم يتصدَّ لهُ أحدٌ من الباحثين الخَيّاميين فيما أعلم، ولعل

البحث سيكشف فيهِ عن جديد. ومهما يكُن من الأمر فإنّي أخالُ حياته الجنسية لم تكُن طبيعية راوية بل كان يغلب عليها الحرمان. وقد أثَّر ذلك من غير مَراءٍ في نفسه وأطواره، على نحوٍ ما. فلا غَرابة أن يكون ضَيّق العطن سَوداوي المزاج، كما يروي الرُواة.

وهو يذكر الحبيب في رباعياته تارةً بأسلوب نفهم منه أنه يعني حبيباً بذاتِه قد تامَ فؤاده، ويذكر الحسناء تاراتٍ بلهجةٍ توحي أنه يقصد أي حسناء يجود بها القدر عليه ويُلقيها بين يديه. ولعَلَّ هذا آية مِن آيات الحِرمان ومَظهر من مَظاهره.

***

ولكن هناك نقطة جديرة بالملاحظة، وهي أن معظم ذِكر الخَيّام للصهباء والحسناء إنما كان في سياق الإفصاح عن فلغوسفةٍ أو الإعراب عن فكرة. وقد لحظ هذه النقطة كل الذين أرادوا تبرئة الخَيّام من تهمة الغرام ومعاقرة المدام. ولكني وقد إفترضتُ أنه ربما شرب الراح، وجزمتُ أنه لم يسلم من عِشق المِلاح، أُسائِلُ نفسي: بأيّ حق نُحرّم على الخَيّام أن يقول بضع رباعيات يُفصِح بها عن محض شعوره في الحب أو الشَرب؟ لقد كان شديد الحِس، شاعريّ النفس، مفتوناً بألوان الحُسن - يهيمُ بالجدول المترَقرِق، ويَشغَف بالزهرِ المتألّق. أَفَيُعقَل ألّا يذهب بصوابه سحر الثغور، وفِتنة الجفون، وتمايل القدود، خصوصاً وهو محروم؟ وهل يُعقَل أن يُعبّر عن ذلك كله في سياق الفلسفة، دون أن يقول رباعية واحدة خالصة لوجه الجمال؟

حتى الرباعيات التي سَمّيناها معتمدة وردت فيها رباعيات لا فلسفة فيها، خالصة للغرام والمدام. ودَعْك من تلك الرباعية السقيمة التي عددناها مدسوسة على الخَيّام، والي زعم قائلها انه أقلع عن الصَهباء لأن حبيبته قعدت على قلبه..

في هذه المجموعة غزليات خالصة لوجه الجمال تحت عنوان «نُخب الحبيب»، وخمريات صِرف لذات السلاف تحت عنوان «نُخب الأنخاب» - تخيّرتها من بين رباعيات كثيرة من أمثالها. فإن لم تكُن للخَيّام حقاً فإقرأها على أنها ترفيه للخاطر من عناء ما سبقها من فلسفتِهِ، وإراحة للأعصاب من وطأة تشاؤمه القاسي.

كَهانةٌ وتنجيم

من سوء حظنا وحظ الخَيّام أنَّ أقرب الرواة إليه من معاصريه الذين وصلتنا روايتهم عنه هو أحمد بن عمر بن عليّ النظامي العروضي السمرقندي. وقد كان له تلميذاً وبهِ مُعجباً، فأصبحت روايته من أجل هذا تُعَد عند الخَيّاميين أوثق الروايات طُرَّاً. إلّا أنه بدلاً من أن يزوّدنا بشيء فيه غناء عن رباعيات أستاذه وعِلمه، ومؤلفاته، وأطواره، والخطير من أحداث حياته مما نَفتقِر إليه أشدَّ الإفتقار - نقل لنا في كتابه «المقالات الأربع» خَبرين زَعمَ في أحدِهِما أنَّ الخَيّام تنبَّأ بالغيب، وفي الثاني أنه تكهَّن بالتنجيم!

حكايتان عجيبتان تَدعوان إلى الحيرة، فلا تعلم أَتُكذِّبهُما أم تُصدِّقْهُما. وما كان الخَيّام..

ولكن إليك الحكايتان أولاً:

الحكايــة الأولى :- «في سنة ست وخمسمائة كان الخواجة (أي السيد) الإمام محمد الخَيّامي والسيد الإمام مظفّر الاسفزاري قد نزلا مدينة بلخ في حي النخّاسين، في قصر الأمير (بو سعد جره) وكُنتُ مُتَّصِلاً بتلك الخدمة. وفي أثناء مجلس الصحبة سمعتُ من حجة الحق الإمام عمر أنهُ قال: ليكن قبري في موضعٍ تَنثرُ الشمالُ عليَّ فيه الزهر كل ربيع. فبدا لى كلامه هذا مُحالاً،

وعلمتُ أن مثله لا يقول جزافاً. فلمّا بلغتُ نيسابور سنة ثلاثين كان ذلك الكبير قد حجب وجهه بنقاب التراب منذ بضع سنين، وأصبح منهُ العالم السفليّ يتيماً. وكان له عليَّ حق الأستاذية فنهجتُ لزيارته ذات جمعة وإحتملتُ معي مَن يدلّني على ثَراه. فخرجَ بي إلى مقبرة الحيرة وعرجتُ يساراً، فشاهدتُ ثراه تحت حائط بستان، وقد مَدَّت أشجار الكمثرى والمشمش أغصانها من ذلك البستان، ونثَرت من أوراق النَّور على ثَراه ما غطّى ثَراه بالزهر. وذكرتُ تلك الحِكاية التي كنتُ سمعتها مِنه في مدينة بلخ، فغلبني البكاء، فما كنتُ رأيت في مكان من بسيط العالَم وأقطار الربع المسكون نظيراً لهُ قَط. أنزَلهُ الله تبارك وتعالى الجِنان بمنّه وكَرَمه».

الحكاية الثانية :- «إني وإن كنتُ رأميت حكم حجة الحق عمر إلّا أني ما رأيته قط يعتقد بأحكام النجوم. وما رأيتُ ولا سمعتُ من العظماء أحداً قط يعتقد بالأحكام. في شتاء سنة ثماي وخمسمائة أرسل السلطانذ في مدينة مرو شخصاً إلى السيد الإمام عمر أن يعمل الإختياراً لنذهب إلى الصيد بحيث لا ينزل في بضعة الأيام تلك ثلج ومطر.

وكان السيد الإمام عمر في صحبة السيد وقد نزل في قصره ٠ فأرسل السيد من أستدعاه وأخبرهُ بالأمر. فإنصرف واإشتغل بذلك يومين وصغنع اختياراً حسناً، ونذهب بنفسه وأركب السلطان بالإختيار. فلما ركب السلطان وذهب مدى صيحة في الأرض إنعقدِ السَحاب وهَبَّت الريح وقام الثلج والضباب

فضحكوا، وأراد السلطان أن يعود. فقال له السيد الإمام: لتطمئن نفس الملك، فإن السحاب سينقشع
الساعة، وفي هذه الأيام الخمسة لن يكون بلل قَط.
فإنطلق السلطان زإنقشع السحاب، ولم يكن في تلك الأيام الخمسة بَللٌ قَط، ولم يَرَ أحد سحاباً. إن أحكام النجوم وإن تَكُن صناعة معروفة إلّا أنه لا ينبغي الإعتماد عليها إعتماداً بعيداً، ويجب على المُنجِّم أن يُحيل على القَضاء كلّ حكم يصدره».
ولا بد أنك لحظتَ الذاجة والغَرابة في تعابير راويتنا السمرقندي وتفكّك بعض جُمَلِهِ وضَعف الصِلة بينها - في قالبها العربي، ولعلها في نصّها الفارسي أسوأ، فقد عُنِيتُ بالوضروح والدقّة في ترجمتها لكي لا يفوت القارئ شيء من معناها. وإني أتخذ من هذا أول دليل على سذاجة عقل الراوية وغرابته، وضعف الصِلة بين أفكارِه، ومن ثم على ضعف روايته. فأنا كما تَرى لا أُكذِّبه، ولكنّي أُكذّب روايته فحسب.
زعم لنا في الحكاية الأولى أن أستاذه الخَيّام قد تنبأ بأنه سَيُدفن في موضع كذا صفته ولا أعرف أي أحداً من الباحثين حاول أن يُفنّد الخبر. أمّا أنا فلا يستطيع عقلي أن يتقبّل شيئاً من التنبؤ، وأنا يكفيني هذا دليلاً. ولكن لا بُدَّ من إقتناع القارئ أيضاً..

ما كان الخَيّام من العَرّافين، ولا الأولياء ولا الأنبياء. وما عَرف الغيب بشَر، حتى ولا هؤلاء. وقد جاء في الآية {.... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ....} سورة لقمان، الآية ٣٤

وجاء في آية أخرى {... وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ...} سورة الأعراف، الآية ١٨٨، وما أبدعها كلمة. فمن كان مُسلِماً فحسبه هذا!
ولو إستطاع عقل الخَيّام أن يؤمن بشيء من التنبؤ والغيب لكان أحرى به أن يؤمن بالله وملائكته وكُتبه ورُسله وباليوم الآخر.

ويُخَيَّل لي أن الخَيّام إنما أراد بكلمتِه أن يُفصِح عن مجرّد رغبته في أن يكون قبره في موضع كذا وكذا، فتوهّم صاحبنا السمرقندي أنه تنبأ بذلك. وتقوم خرافته فيما أرى على كلمة واحدة فارسيه هي «باشَدْ». فهي تعني «فَليَكُن» قياساً، وقد تعني أحياناً «سيكون» على خلاف القياس، وهو الوجه الذي أخذ به الراوية. وإيضاحاً للأمر أُحب أن أنقل لكَ الفقرة الأولى من مقالة الخَيّام، بنصّها الفارسي، وتحت كُل كلمة منها ترجمتها العربية:

كور مَنْ دَر مَوْضِعي باشَدْ كه هر
قبر.. ي في موضع فليكن بحيث كل
بهارى .. إلخ ....
ربيع

فإذا أخذنا بالقياس، وهو الأصح في الفارسية لغةً-، وفي كل اللغات عقلاً - «ليكُن قبري..» فالرجل إنما إشتهى أو طلَبَ أن يكون قبره في موضع كذا وكذا. فالجملة إذاً إنشائية لا خَبَرية، وما في الإنشاء تنبّؤ. ولكن الراوية ظلَّ المعنى: «سيكون قبرى..».

وما أدَّعي أنّي أعلم بالفارسية من الخواجة العروضيّ السمرقندي، ولكن

إدعائي أني أعرَف منه بالخيّام، ليس إلّا. فهو يعتقد أن أستاذه رجل دين وتقوى، فيما يظهر. بَهَرهُ منهُ ولا شك من التَفقّه في الدين وعلوم القرآن ما بهر شيخ القُرّاء أبا الحسن الغَزّال مِن تفقّهٍ في ١ القراءات حتى لَقالَ لهُ: «كَثَّر الله في العلماء أمثالك! إجعلني من أدمة أهلك وإرضَ عنّي..» مما تقدّم بنا حديثه. فمن أجل ذلك وما ماثَلهُ تَوهَّم الخواجة السمرقندي أنه من الأولياء أرباب الكرامات، فطفق يُسميه الإمام طوراً وحُجّة الحق طوراً. بينا أعرف أنا، ويعرف معي القارئ أن الخَيّام كان ملحداً، ويكتم إلحاده عن السمرقندي وعن الكثيرين من أمثاله من تلاميذه وغيرهم من المؤمنين. فهو إنما يعرف من شخصية أستاذه المزدوجة ظاهِرَها، كأكثر عارفيه. ولولا أن العروضي قد أغفل كل شيء عن الخَيّام عدا هاتين الحكايتين، لقلتُ إن في إغفالِه ذِكرُ الرباعيات لدليلاً على جهلِهِ بها وبحقيقة أستاذه.

فبعد هذا لا يُدهشني أن حَمَّل مقالة حُجة الحق الإمام عمر مَحمل الخبر وهي إنشاء. فلما زار ثَراه ووجده على تلك الصِفة لم يَعُد يُخامرهُ الريب في حدوث المعجزة. فبكى، وروى لنا الخبر!

أما دفن الخَيّام في ذلك الموضع فإن لم يكُن إحدى الصِدَف، فأكبر الظَن أنه كان بناءً على وصيّه. أو لعلَّ بعض أصدقائه أحبَّ له بعد وفاتَه تلبية هذه الأمنية الشعرية التي لعلّه كرَّر ذِكرَها في مجالس أخرى، فكثر بذلك عارفوها من مُحبيه، وحقَّقوها له.
ولولا تعقيب السمرقندي على كلمة الخَيّام بقوله: ((فبدا لي كلامه هذا مُحالاً، وعلمتُ أن مثله لا يقول جُزافاً» لكانت الحكاية معقولة طريفة، نَمُرُّ بها مر

الكرام، ونشكره على نقلها لنا. ولكان معناها عند راويها كمعناها عندنا: ((أمنية شاعر يحب الزهور والربيع.. تحققت بالصدفة أو بنحوٍ ما»، ولحَمدنا للراوي بُكاءه على مثوى أستاذه العظيم. والحقُّ أن وفاءه هذا أجمل ما في حكايتِهِ - على شريطة ألّا يكون بكاؤه من باب الخشوع لتوهّمه حدوث المعجزة! ولا أكتمُ القارئ أن نفراً من الإيرانيين لم يوافقوني على رأيي في تأويل هذا الحديث، وإن كان بعض أدبائهم قد فعل.

وقد تراءى لي أن سلطان الرِواية ومكانة الرَّاوية هما عِلّة تَردّد الكثيرين في مشاركتي الرأي، فعمدتُ إلى الحيلة وجعلتُ أهيأ عبارة فارسية تشبه عبارة الخَيّام ثم أسأل مَن أسال أن يُخبرُني عن مذهبه في فِهمها لو وجدها في كتاب قديم، كهذه العبارة:

منزل مَن دَرْ مَيان دَرْ خَتان باشَدْ كه
دار.... ي في بين الأشجار فلتكن بحيث
دَرْ تابستان زير سايه بماند.
في الصيف تحت الظل تبقى.

فكلهم أجاب: «فلتكن داري بين الأشجار... الخ». فإذا أنا أطلعتُهم على رواية العروضي السمرقندي، وعرفضتُ لهم رأيي فيها وافقني بعضهم، وخالفني بعضهم مُنساقين مع الراوية الفارسي.

فإذا كنتُ واهماً في تأويلي هذا لم يبقَ لي إلّا أن أقول إن صديقنا السمرقندي كاذِب. وهذا أمر أستبعده كثيراً، ولهذا أجدني أستبعد كثيراً أن أكون واهماً..

وسواء أصحَّ مذهبي في تأويل الخبر أم أخطأ، فأنا لا أصدّق حكاية تنبؤ الخَيّام، وهذا كل ما في الأمر. ولا على القارئ أن يصدقها إذا هو شاء.

* * *

وأما الحكاية الثانية فهي تنقض نفسها بنفسها، لأن أولها يُكذِّب آخرها. فقد إعترَفَ راويتها أنه لم يَرَ ولم يسمع أن الخَيّام ولا أحداً من العظماء آمنَ بأحكام النجوم. وتعجبني نصيحة السمرقندي التي يختم بها حكايته إذ يقول إن على المنجّمين ألّا يعتمدوا على أحكام النجوم كل الإعتماد، وأن يُحيلوا أحكامهم على القضاء. فهو يسمح لهم فيما يبدو بشيء من الإعتماد عليها فقط.

وأنا إلى تَصديق الخَيّام وعظماء زمانِه أمْيَل منّي إلى تصديق هذا العروضي السمرقندي الذي بكى على ضريح شيخه ظناً منه أن في دفنه تحت حائط البستان مُعجزةً كُبرى.

هذا إلى أنه لم يُخبرنا بالمصدر الذي أخذ عنه روايته، فلعلّهُ مصدر كأحكام النجوم لا ينبغي الإعتماد عليه كثيراً. وأحسَبُ أنه كان أجدر به أن يُحيله على القضاء، بدلاً من توريط نفسه بنقله لنا.

وتَحييرنا في أمرِهِ.

على أن الحكاية إن صحَّت لا تدخل في باب التنجيم، وإنما هو ما يسمونه اليوم بعلم «الأنواء الجوية» يتعرّف به الخبراء ما ستكون عليه حالة الجو في المستقبل القريب. ولكن عقل صديقنا العروضي السمرقندي، هو عقل خرافي كما يَتَّضح من بعض حكاياته في مقالاته الأربع،

لم يستطع أن يدرك أن علم أستاذه في الفَلك والرياضيات والطبيعة، قد يجدي نفعاً في التنبؤ بحال الجو، فعزا الأمر إلى «التنجيم» و «الاختيار»، بالرغم من أنه لم يرَ ولم يَسمع أن الخَيّام أو سواه من عظماء الزمان كان يؤمن بالتنجيم قط!

ولعل بعضهم قد زعم أن الخَيّام تنبأ بصحو الجو لخمسين يوماً مقبلة بدلاً من خمسة، ولكن السمرقندي لم تصله رواياتهم فلم يأخذ بها مع الأسف. ولو قد فعل لقلنا من فورنا إنه حديث خرافة، وإسترحنا.

إني تروّيتُ في الأمرِ طويلاً وتردَّدتُ كثيراً. ذلك أني لم أجد بين الوسائل التي يستخدمها الخبراء اليوم في التنبؤ، من خرائط إتجاهات الريح، وإحصائيات الأنواء للسنوات الماضية، وأجهزة الرصد الحديثة، ما يُمكّنهم - كلما أرادوا، أو أمرهم السلطان - من معرفة صحو الجو لخمسة أيام تأتي، على ذلك النحو الجازم الذي حدَّثتا به السمرقندي.

ولكن الذي لا شك فيه أن الملاحظة الدائبة قد علَّمت الإنسان من قديم الزمان أن بعض حالات الجو لا بدَّ أن تتلوها حالات أخرى معيّنة، على وتيرة لا تتبدَّل، كما يتلو الليل النهار، فإذا لاحَ أولها كان علامة على دِنوِّ تاليها. وإن في قصص العرب الأقدَمين ما يدل على أنهم، على بداوتهم وجهالتهم قبل الإسلام، قد عرفوا من ذلك ما مكّنهم من التنبؤ أحياناً وأفادهم في شؤون حياتهم. وما زال في الشرق اليوم فلّاحون وملّاحون، من الأميين الذين لا يخطون الألف ولا يعرفون التنجيم،

يستطيعون متى رأوا بعض العلائم أن يتكهّنوا بحال الجو ليوم أو يومين، بنظرة قصيرة يُسرّحونها في أقطار الفضاء.
ظننتُ أول الأمر أن حكاية العروضي السمرقندي مُبالَغٌ فيها، وأنَّ الخَيّام إنما تنبأ بيوم أو يومين على أساس من الملاحظة أو العِلم، ثُمَّ تَزيَّد الرواة حتى أصبحت الأيام خمسةً حين بلغ الخبر السمرقندي.

ولكني غيّرت رأيي أخيراً، فقد إكتشفتُ على غير إنتظار أن الخَيّام كان خبيراً بعلم الأنواء. ذلك أني كنتُ أراجع قائمة مؤلفات الخَيّام فوجدت بينها عنوان رسالة لم تكُن تُثير إهتمامي قبل، على خطورتها في هذا الباب وصِلَتها الوثيقة بحكاية السمرقندي. وهي رسالة ((لوازم الأمكنة)) ألّفها الخَيّام ليشرح فيها تغيّر الفصول وشرائط تقلّبات الجو في مختلف الأمصار. وما ألَّف الخَيّام شيئاً ليُعيد فيه ما عرفه سِواه من العلماء وألَّفَ فيه، وإنما كان يؤلِّف حين يأتي بجديد في العِلم أو الرأي. ولا بد أنه قد جاء أبناء جيله في هذه الرسالة بالطريف القَيِّم. فهذا أيضاً يدل على أن شاعرنا الحكيم لم يكُن مُلِمّاً بعلم الأجواء وحسب، وإنما كان متفوّقاً فيه. فليس ببعيد إذاً أن يكون قد استطاع التنبؤ للسلطان بصحو الجو خمسة أيام.
ولكن كيف؟

طَفَقتُ أتحرّى وأُسائِلُ كل مَن صادفت من المشتغلين بالأنواء من شرقيين وغربيين فعجزوا عن تعليل الخبر. حتى إهتديت أخيراً إلى السِرّ، وأذا بهذه المسألة العويصة ككل المسائل قبل معرفتها، شديدة البساطة ككل المسائل بعد العِلم بها.

إن فترات الدفء في المناطق المعتدلة إذا أعقبتها موجة برد وإعصار دَلَّ ذلك على قدوم صحو مُتَّصل رائق لا تشوبه شائبة، يدوم أياماً قد تبلغ الخمسة. فهذا هو سِر «تنجيم» الخَيّام.

وقد إتَّفَق أن وصل رسول السلطان قبل الصحو بيومين كما يظهر من رواية السمرقندي، فما كان من الخَيّام إلّا أن جعل يتربَّص إنقضاء فترة البرد، فلمّا إنقضت ذهب إلى السلطان وأشار عليه بالركوب، فتوهم العروضي السمرقندي أن الخَيّام كان منهمكاً أناة هذين اليومين في التنجيم ورسم الرموز الغريبة الأشكال، وحل أسرار الأفلاك، فقال إنه «إشتغل بذلك يومين، وصنع إختياراً حسناً» وأنه ليروي الحديث بسذاجة الأطفال، حتى لَيَكاد يوهمكَ أن الخَيّام طفقَ يشتغل طوال هذين اليومين بما يشبه السحر إلى أن أرغم الطبيعة بتنجيمه وإختياره على أن تصحو خمسة أيام كاملة، نزولاً على مشيئة السلطان وإحتفالاً برغبته في الصيد. وما كاد يُتم الحكاية حتى ملأه الذعر من هذا السحر، فإستعان بالله، ونصح المنجّمين أن يُحيلوا أحكامهم على القضاء، تخلصاً من شرّها.

ولما ركب السلطان «فإنعقد السَحاب، وهَبَّت الريح، وقام الثلج والضباب» ظن القوم أن الخَيّام قد أخطأ حسابه فضحكوا، وهَمَّ السلطان أن يعود. ولكن هذا الأمر الذي خيَّب رأيهم في صِدق الخَيّام هو الذي زاده ثقةً بصحة حكمه، فأخبر السلطان بلهجة قاطعة أن السحاب سينقشع الساعة،

---

(١) توصلتُ إلى هذه الحقيقة بمعونة المصري السيد أميل فريد، المتنبئ الجوّي في مطار فاروق بالقاهرة.

وأنه لن يكون في الخمسة الأيام التالية بَلَلٌ قَط. وهكذا كان.. وهكذا تنبأ الخَيّام بصحو الجو، على أساس العلم لا تنجيم فيه ولا كهانة.

* * *

أما فردريك روزن فلم يشأ أن يُكذِّب إحدى الحكايتين. ولكنه بالإضافة إلى تصديقهما علَّق عليهما بما يُفهَم منه أنه إتخذهما دليلاً على أن للخَيّام في هذا الميدان آيات أُخرَيات.

«كان الخَيّام يتنبأ بالغيب أيضاً. ولما كان هذا العلم [١] سابقاً في القرون والوسطى توأماً للهيئة فليس من كبير عجيب في إقدام شخص عمر على هذا الأمر. فقد كانت هذه الحال موجودة بعينها في بلاد الفِرَنجة كذلك، وقد أضطر **كپلر** الفلكي المشهور مثلاً إلى أن يقرأ طالع القائد المشهور فالنشتاين سنة ١٦٠٩م المصادفة ١٠١٨هـ، ويُنبئه بمستقبله. وبيدِنا نبذتان صريحتان من تنبؤات الخيّام إحداهما أن السلطان..إلخ» ويسرد النبذتين الصريحتين، وهما الحكايتان اللتان رويناهما للسمرقندي آنفاً [١].

ولستُ أدري كيف هضم عقل الدكتور روزن هذه الرواية العسيرة، ولا كيف قرأ **كپلر** طالع فالنشتاين، ولا في أي صفحة من صفحات السماء قرأه. ولو كان في (عِلم) التنجيم فائدة لما إندثر، بل لكان أرتقى اليوم وإزدهر.

---

(١) رباعيات حكيم عمر خَيّام، ص ٦٠

ولكن بما أن كلاً من الدكتور المستشرق والفلكي المتنبئ من بلاد الفرنجة، وهي بلاد العِلم، فإني أتهيّب مناقشتهما والرد عليهما. وأكتفي بأن أُذكّر القارئ بأمر واحد، هو أن راويتنا قد نبأنا بصراحة أيضاً لحُسن الحظ أن الخَيّام لم يكُن يؤمن بالتنجيم، فأنا أظن أن «إقدام شخص عمر على هذا الأمر» بالرغم من عدم إيمانه به يدعو إلى «كبير العجب» «ولو كان قد مارسه ونجحَ فيه هذا النجاح الباهر المزعوم لكان عدم إيمانه به يدعو إلى عجب أكبر!

شخصيته

الخَيّام في مقدمة كتابه «الجبر والمقابلة» الذي وضعه بالعربية، ما نَصّه:

«... فإنّا قد مُنينا بإنقراض أهل العلم إلّا عصابة قليلي العدد، كثيري المِحَن، همّهم إفتراض غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها إلى تحقيق، وإتقان علم. وأكثر المشبهين بالعلماء في زماننا هذا يُلبِسون الحَق بالباطل ولا يتجاوزون حَد التدليس والترائي بالمعرفة، ولا يُنفقون القدر الذي يعرفونه من العلوم إلّا في أغراض بَدنية خَسيسة. وإن شاهدوا إنساناً معنياً يطلب الحق وإيثار الصِدق، مجتهداً في رفض الباطل والزور، وترك المراياة والخداع إستَحْمَقوه وسَخِروا منه..».

وما زالت هذه الكلمة الموجزة تفصح حتى اليوم، في الشرق خاصة، عما يُكابدهُ العقل الممتاز الذي يطلب العلم لذات العِلم، من محَنٍ بين مَن يتشبَّهون بالعلماء، بما ينالون من شهادات مدرب يُدلّسون بها على الجمهور ويُدَجّلون، ويتَّخذونها ذريعة لجر المَغْنَم، تسنّم المنصب، وإشباع الشهوة، ومكافحة الإصلاح والعلم.

كان الخَيّام ذائع الصيت، مُحتَرَم الجانب، مرموق المكانة، يُدنِيه

الأمراء والملوك إليهم ويُقرّبون مجلسه، عِرفاناً لعلمه وفضله. حتى لقد «كان السلطان ملكشاه يُنزِلهُ منزلة النُدَماء، والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظّمه غاية التعظيم، يجلس الإمام معه على سريره»، كما يقول البيهقي. فكان في هذا المحل الأرفع قادراً على أن يتسنَّم ما شاء من المناصب، ويحشد ما إشتهى من الأموال. ولكنه كان مؤثراً للعزلة والدرس، زاهداً في حُطام الدنيا، مترفعاً عن خدمة الرؤساء والازدلاف إليهم.

كَم تُذِلُّ النفسَ في خدمة أوغادٍ لِئامِ؟
تَنْتَحي كُلَّ طعامٍ، كالذباب المترامي؟
كُلْ رغيفاً كُلَّ يومَيْنِ بِلا مَنْ الأنامِ
فَلأَنْ تَطويَ خيرٌ لَكَ مِن خبزِ الكِرامِ!

إن أصابَ المرء في اليومِ رغيفاً واحداً
وإحتَسى من كوزِهِ المكسور ماءاً بارداً
فلماذا يا تُرى يَخدِم مَن دونِهِ
ولماذا يا تُرى يخدم نِدّاً سائداً؟

ولقد مرَّ بنا أنه بالرغم من غزارة معرفته في علوم ذلك الدهر آثَرَ التخصص فيما هو أبعد ما يكون عن منفعة مادية، وأمل بالحظوة لدى عُظماء الزمان، فإنصرف إلى خالص العِلم من رياضيات وفَلَك. وما عرفنا أنَّهُ تَكَسَّب بشعرِه أو بعلمِه. وحَسبنا مِن رأيه في المتكسّبين الذين سَمّاهم «المتشبّهين بالعلماء» ما

تقدَّم بنا من نص كلامه. ويتَّهمه بعض القدامى بالضِنّة بالتأليف والبُخل بنشر المعرفة. وقد دفع المرحوم فروغي هذا عنه دفعاً جميلاً. حاراً، فقال: «الحق أن الحق ليسَ بالأمر الواجب، وليس التأليف والتصنيف من طبع كل عالم. وأهل العلم يأخذون بهذا الأمر أحياناً إذا دَعَت الضرورة، وكذلك الخَيّام لما ظفر بمعلومات جديدة في فن الجبر والمقابلة صنَّفَ كتاباً في هذا الباب، وهو معروف، وهو تراثه العلمي. وله رسائل أخرى في موضوعات أخرى، كلها جِدُّ صغير ومُختَصَر. ويمكن التصديق على العموم أن الخَيّام ما كان يحب الهَذر، وهذه الصفة إن لم تكُن حَسِنة فهي ليست عيباً. وهي على كل حال لا تدل على بُخل وضِنّة، إلّا إذا إفترضنا أن الذين وصموا الخَيّام بهذا كانوا مُطَّلعين شخصياً على هذه الصفة فيه» [١].

وليس لديَّ ما أضيفه إلى هذه الكلمة الحصيفة سوى أمر واحد، وهو سبب آخر دعا الخَيّام إلى الإقلال من التأليف، لا أدري لِمَ أغفَلَهُ الخَيّاميون وهو أحَقُّ شيء بألّا يغفلوه، لأنه سبب ذَكَره الخَيّام بنفسِهِ بلسان مُبين، في مقدمة كتابه «الجبر والمقابلة» هذا الذي طالما لهجوا بذكره، قال الخَيّام عند كلامه على المسائل الرياضية التي تصدّى لحلّها في كتابه: (... وإني كنتُ ولم أزل [٢] شديد الحرص على تحقيق جميع أصنافها،

---

(١) رباعيات حكيم خَيّام نيشابوري، ص ٥.

(٢) النص: (وأني لم أزل كنتُ) وهو فيما يبدو من أخطاء النسّاخين، ولعل ما ذكرناه أقرب إلى الأصل

وتمييز الممكن من الممتنع من أنواع كل صنف ببراهين، لمعرفتي بأن الحاجة إليها في مشكلات المسائل ماسّة جداً. ولم أتمكّن من التجرّد لتحصيل هذا الخبر والمواظبة على الفكر فيه، لإعتراضٍ ما كان يعوقني عنه من صروف الزمان. فإنا قد مُنِينا بإنقراض أهل العلم إلّا عصابة قليلي العدد، كثيري المحن، همُّهم إفتراض غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها إلى تحقيق، وإتقان علم». إلى آخر ما تقدم بنا.

وإني في الحق لَمفتون بلهجتِهِ العصرية هذه حين يتحدث عن العلم ويحلّه هذا المحل الكريم الجليل من نفسِهِ وحياته.

ولسنا نعلم على التحقيق ما هي هذه المِحَن التي صرفته دهراً عن تأليف هذا الكتاب، ولكن في مقدورنا أن نستنتج من رباعياته وبعض أخباره أنه إبتُليَ بالكثير من المتاعب حالت ولا شك بينه وبين تأليف الكثير من الكتب.

لعلَّ من هذه المِحَن خيبته في إنشاء الرصد الذي عهَدَ إليه السلطان ملكشاه بإنشائه، لموت السلطان قبل إتمامه على رواية، وبعد إتمامه على رواية أخرى، فوقف العمل فيه على كلا الحالين، وبقيت حسرته بلا مَراء في نفس الفلكي العظيم. ومَن كان من طبقة الخَيّام نبوغاً وغراماً بالعلم كان الرصد عنده أعزُّ من المال والولَد - يرقب به النجوم ويكتشف مجاهل السماء. وإني لأَشعرُ معه بالأسى والكآبة لخيبة هذه الأمنية الرائعة.

ومن مِحَن الزمان كذلك إنقراض أهل العلم في زمانه إلّا عصابة قليلة العدد،

مع كثرة المشعبذين المتشبّهين بالحُكَماء، مِمَّن يتخفّون به وبأمثاله من طالبي الحق ومُؤْثري الصِدق، ويوذونهم.

ومن مِحَن الزمان أن أتَّهمه القوم بالكُفر، حتى بلغ الأمر حَد الخطر فخاف على دمِه. ويروي لنا القفطيّ هذا الخبر بأسلوبه السَجَع، حيث يقول: «ولما قدح أهل زمانه في دينه، وأظهَروا ما أسَرَّهُ من مكنونه، خشِيَ على دمِهِ، وأمسَكَ من عِنان لسانه وقلمه. وحَجَّ متاقاة لا تقيّة، وأبدى أسراراً من السَرائر غير نقية! ولما حصل ببغداد سعى إليه أهل طريقته في العلم القديم، فسَدَّ دونهم الباب سَدّ النادم لا سدّ النديم! ورجع من حَجّه إلى بلدِهِ يروح إلى محل العبادةِ ويغدو، ويكتم أسراره ولا بُدَّ أن تبدو! وكان عديم القرين في علم النجوم والحِكمة، به يُضرَب المثَل في هذه الأنواع.. لو رُزِق العِصمة».

وقد تعمّدتُ هنا. إثبات الفقرة الأخيرة مع أنها لا صلة لها بسياق حديثنا، لأُدِلُّ على ما سبق أن نَوَّهت به من أن القوم كانوا يُقرّون له جميعاً بالعلم والتفوّق، حتى من خالفه منهم في الرأي والعقيدة. وهذا إنصاف وفضل نذكرهما لأسلافِنا بالإعجاب والثَناء، فهم بالرغم من فرط تعصّبهم - أكرم نفوساً من أبناء جيلنا ممن يُجرّدون خصومهم، السياسيين مثلاً، من كل فضيلة ومكرمة.

لقد أضطر الخَيّام إذاً إلى تجشّم عناء السفر لكي يحج، وإلى

---

(١) القاضي أكرم جمال الدين القفطي،"تاريخ الحكماء"الذي تم تأليفه بين سنتَيْ ٦٢٤ و٦٤٦ هـ

الإنقطاع عن صحابته الذين تألفهُم نفسه ويحنُّ إلى مجالسهم ومحادثتهم عقله. فكان الرجل في هذه الحقبة قلقاً مضطرباً، يُعاني وحدة النفس وسجن العقل. وتهمة الزندقة في ذلك العصر أشبه بتهمة الشيوعية اليوم، في أسبانيا الفاشية مثلاً. فيا لها من مِحنة...

إن الخوف على حياته إن كان أزمة عابرة أبتُلِيَ بها حيناً من عمرِه، فإن الحَجْر على تفكيره والعجز عن إعلان رأيه، والإضطرار إلى تزييف شخصيته بالظهور بين الملأ على خلاف حقيقتِهِ، أمرٌ لازَمهُ طيلة حياته العقلية. وهذا شديد على مَن كان مثل الخَيّام حريةَ فكرٍ ورهافَة حِس، فكان الأمر ولا شَكْ يُكرِبُ صدره ويُزعجه. وقد أفصح المعرّي عن نفسِه وعن الخَيّام، وعن أمثالهما مِنَ الكاتمين آراءهم عن أبناء جيلهم، بقوله:

أهوى الحياة، وحَسبي من معايبِها *** أني أعيشُ بتمريهٍ وتَدليسِ
إكتُم حديثَكَ لا يشعر بهِ أحدٌ *** من رَهطِ جبريلَ أو مِن رَهطِ إبليسِ

ولعلَّ الخَيّام أراد أن يشكو هذه الحال حين قال:

رُبَّ سِرٍّ لستُ أستطيع لهُ في الخَلْقِ فَضْحا
فأستَمِع موجَزَ قَوْلي، ولا تَسَلْني عنهُ شرحا!
آهِ مِن حالٍ أراني عاجزاً عن وصفها
آهِ مِن سِرٍّ طَواهُ القلبُ، لا يَقبلُ بَوْحا

والحق أن له رباعيابت كثيرة طافحة بالشكوى المرّة، والتشاؤم القانط، والتبرّم بالحياة.

هو عَيْشٌ يتولّى بعضُهُ في إثْرِ بعضِ
فتأمَّل كيف يمضي العمرُ بالحزْنِ المُمضِّ
إنَّني لم أعرِف الغِبطةَ والراحَةَ عمري
فسلامٌ لحياةٍ هكذا تأتي وتَمضي!

قد نزَلْنا هذه الدُنيا بطاءً مُذ نزلنا
وأنحططنا عن عُلى الإنسان فيها، وذُلِلْنا
وحياةٌ زَوَّدتنا غيرَ ما كُنّا أمَلْنا
ليتها كانت تَوَلَّت، فلعَمري قَد مَلَلْنا!

أجِدُ العالَمَ غَمّاً دائماً، والدهرُ غولا
وأرى الأفلاكَ آفاتٍ وظُلْماً وكُبولا
كلّما فكّرتُ في الدُنيا أرى المرتاحَ فيها
ليسَ موجوداً، فإنْ كان فقد كان قَليلا!

لكأنَّ كل واحدة من هذه الرباعيات جمرة نار!
ويبدو أن الخَيّام خُلِق بطبعِهِ مُتَّقِد العصَب حاد المِزاج، فإلّا يَكُن كذلك فقد كفلَت له المصائب ذلك. ويبدو أيضاً أنه خُلِق بطبعِهِ مُتشائماً كالكثير من العباقرة، فإلّا يَكُن كذلك فيكفي ما عاناه في حياته من آلام نفسية يجعلهُ واحداً من أشدّ الناسِ تشاؤماً. وقد ذكرَهُ بعضُهم بضيق العطن وسوء الخُلق. فأمّا ضيق العطن فظاهِرٌ أمره، وأمّا سوء الخُلق فلم يذكروا لنا حادثة معينة

نَفقَه منها قصدهم به. ولا شك عندي أنهم لم يقصدوا لؤم الطويّة وخِسّة النَفْس، وإنما هي حِدّة مِزاج على الغالب لا بُدَّ أن تبدر منه مع البُلَداء المُماحكين والسُخفاء، وكثيرٌ ما هُم. والمعرّي على سماحة خُلْقَه ودماثَة طبعَه، وإفتخار، والترفّع عن الهجاء، لم يتمالك نفسه من أن يهجو، يومَ دخلَ عليه رجلٌ يُدعى أبو القاسم فتلا الآية" {وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} سورة الإسراء الآية ٧٢، فإستاء منه وهَجاه. والظاهرُ أن الخَيّام كان مبتَلى بأمثال أبي القاسم هذا من ذوي القحّة والبَلادة. فقال في إحدى رباعياته:

أَفَتبغي أنتَ أن تعرف ما نار الجحيم؟
هي في الدنيا لَعَمري صُحبة الفَدْمِ اللئيم

وما في هذا المعنى جِدَّةٌ ولا طَرافة، ولكنّها نَفثَة مصدور. والحقُّ أن العباقرة على العموم يَضيقون بالناس على العموم، ويُؤثِرون الإقلال من المعارف والأصدقاء ما إستطاعوا. فإن كُثرة الخلطة وتشابك العلائِق يُضيع عليهم أوقاتهم التي يُؤثرون إنفاقها في التأمّل والدرس من جهة، ويخلق لهم من المشاكل ما هُم في غنىً عنه، ويُعرّضهم لسماع ما لا يُحبّون أن يسمعوا وقول ما لا يُعجبهم أن يقولوا، وعمل ما قد يسوؤُهم أن يعملوا، من جهة أخرى. ولا سيما مَن كان كالخَيّام ذي مزاج خاص وآراء خاصة وتَفوّق في التفكير خاص، فنأى ذلك به عن ملاءمة الناس ومجاراتهم.

وقد كان مُستطار الشهرة معروفاً في الآفاق حتى لقد إجتمعَ عليه أهل طريقته لما حلَّ ببغداد، كما ذَكر القفطي، ولكنَّهُ كان عَزوفاً عن الشُهرة مُحباً للعزلة.

وليس غريباً أن يعتزل سائر الناس ما دامت ظروف البيئة أضطرتهُ إلى إعتزال مَن يأنَس إليهم من أصدقاء عقله.

السعيدُ الحَق مَن لم يَكُ معروف المكانِ
لم يَصِر في فوطَةٍ، أو جَبّةٍ، أو طَيْلَسانِ
فهوَ كالعنقاءِ، قد طارَ عن الدارَيْنِ طُرّاً
لم يكُن مثليَ يوماً بين أطلالِ الزمانِ!

وإن كان الخَيّام قد ذاق الرفاهةَ شيئاً في بعض فترات من حياته فقد كان فقيراً قانعاً على الجملة.

إذا قنعت نفسي بميسورِ بلغَةٍ
تحَصّلها بالكَدِّ كَفّي وساعدي
أمنْتُ تَصاريف الحوادثِ كلّها
فكُن يا زَماني موعِدي أو مُواعِدي

أو لعل الفاقة ألحَّت عليه أحياناً، فكان يعجز أن يُحصِّل بالكدِّ حتى بميسور البلغة. ومن كان مثله أَنَفَة كان خليقاً أن يُعاني طول العوز والإدقاع. فكان من أجل هذا يتحسَّر حيناً على المال، ويثور أحياناً على الدهر الجائر يغدق النِعَم على الجَهَلة الأوغاد ويضطهد العلماء الأحرار.

ليسَت الفضّة في الدنيا بذُخرِ الحكماءْ
بَيْدَ أنَّ العادِميْ الفضّة فيها سجناء!

* * *

يا زماناً بأفاعيلِ يَدَيهِ يعتَرِف
وهوَ في زاوية الجور مُقيمٌ مُعتكِف
تَسبَغ الفَضْلَ على الوَغدِ وتُؤذي مَن أنِف
أنتَ لا تَخلو مِن إثنينِ: حِمارٍ أو خَرِف!

آه لَوْ كُنتُ على الأفلاكِ رَبّاً في سمائي
لَمَحوْتُ الآن هذا الفَلَك الضَّخمَ البناءِ
ولأَنشأتُ بنفسي مِن جديدٍ فَلَكاً
يدرِكُ الأحرارُ فيهِ ما إشتَهوا، دون عَناء!

وكأنّه أراد في هذه الرباعية الأخيرة أن يبني المدينة الفاضلة ويُنشئ فيها المجتمع الأمثل. وليتَه كتبَ لنا شيء من التفصيل عن هذا الفَلَك الفاضل الذي كان يودُّ إنشاءه لنرى طريقته في بنائه بحيث يدرك الأحرارُ فيه ما يشتهون، بغير عَناء - كما كتب بعض فلاسفة الشرق والغرب من عهد أفلاطون. وأخال أنه لولا خَوْفه نِقمة رِجال الدين والسياسة عليه لَفعَل.

* * *

كان الخَيّام عالِماً كلّ عالِم، فنّاناً أيَّ فَنّان، شاعراً، مُرهَف الحِس. ومَن كان على شاكلته من الرجال كان سريع الإنفعال، كأنَّ في أعصابه مُكبّراً للحس مثل مُكَبّر الصوت، يُضخِّم له الهموم. ومن هنا كان الفنّانون أقدَر على التعبير من سواهم، لأن إحساسهم بمؤثّرات الأشياء أعظم مِن سواهم.

فلا غَرْو أن تَصرِفُهُ الأشجان المُكَبَّرة عن الدرس والتحقيق، وتقعد به عن التأليف، حتى أصبحَ هَمّهُ كما يقول إفتراص غَفلات الزمان. ولا غَرْو أن يقول:

إسقني الجريالَ صَهباءَ بلونِ الأرجوان
أيها الساقي، فإنّي ضاقَ بالهَمّ جِناني
إسقِنيها تسلبُ العقلَ ولَوْ بعضَ أوانِ
عَلَّني أُذهَلُ عن نفسي وأحداث الزمانِ!

وكان لحُسن حظّه ذَوّاقةً للجمال، مُغرماً بالطبيعة من زهور وربيعٍ ومياه. فكان له في متاعِها عِوَضٌ عمّا زَهدَ فيه من مَتاع الدنيا. وقد تمنّى كما رأينا أن يدفنوه في مكان تنثر الشَمالُ فيهِ الزهرَ على ثَراه، كأنه لم يشبع من الزهور في حياته فأراد أن يستمتع بهِ ولو مِن تحت التراب. وهذا كثير من الخَيّام، وهو مَن نعلم إنكاراً للحشرِ وايماناً بفَناء الروح.

والواقع أنه ما يَفتأ يذكر من مفاتن الطبيعة هذه الأقانيم الثلاثة: «الماء والخضراء والوجه الحسن» بأسلوبه الخاص. وقد يُضيف السَماع أحياناً وديوان الشعر حيناً. فهو مؤمن باللذة الإيجابية في دعوتِهِ إلى الإستمتاع بمسّرات الحياة، وإن كانَ يُفهَم منُه أحياناً أنه يَعدُّ اللذة مُتعة سلبية هي مجرَّد إسكات الألم، على المذهب الذي إنتحاه المتشائم الألماني الكبير شوبنهاور - بعد الخَيّام بقرون.

وقد جعلهُ تشاؤمه المُفرَط ساخراً كبيراً، كما جعل شوبنهاور كذلك، فقد كان كِلاهُما يستخرج الفُكاهة المُضحِكة القاسية من آلام نفسه، ويسخر.

فَلسَفَتُه

فلسفة الخَيّام هي بيت القصيد في هذا البحث، والزبدة من هذا الكتاب، لأنها موضوع هذه الرباعيات التي أُزجِي ترجمتها إليك. وهي مزاجٌ من الفلسفة اليونانية، ومن العَقائد الباطنية القائمة على الجَدَلية الإلحادية، ومن نزعات القرن الخامس الهجري، ومن شخصية الخَيّام. وما بيَ حاجة الى التوسّع في وصف عقلية ذلك العصر، فمن شاء فليرجع الى التاريخ لتفهّم ما راج فيه من تَزلزل العقائد وتضارب المآرب والأفكار، في الإمبراطورية الإسلامية. ولا شك في أنه تأثَّر في الكثير من أفكاره بأبي العَلاء المعرّي.

فقد وُلِد حكيم نيسابور في شيخوخة حكيم المعرّة، الذي كان صيتُهُ يومذاك قد طبقَ الآفاق وأشعاره تسيرُ بها الرُكبان، ومات بعده بنحو سبعين عاماً. وكان الخَيّام يقرأ الأدب العربي، ويحفظه ويرويه، فلا يُعقَل أن يهمل منهُ أدب المعرّي وهو أقرب إلى روحه وطراز تفكيره. وإنّا لَنجِدُ بعض رباعياب للخيام وكأنّها ترجمة لبعض أشعار أبي العَلاء [١].

(١) سنذكر في آخر الكتاب من شِعر المعرّي بعض ما يُشابه رباعيات الخَيّام {المُشار إليها بهذه العلامة ﴿ ﴾ لكي يُتاح للقارئ فرصة المقارنة بين تَفكيرَيْ الفيلسوفَيْن.

ولي على تأثّر الخَيّام بالمعرّي دليلٌ غير دامغ، ولكنه لا يخلو مِن وَجاهة، ولعلَّك لاحظته معي. وهو إنتهاج الخَيّام طريقة المعرّي حين إلتَزَم ما لا يَلزَم في قافية المقطوعتين الأوليين من شِعرِه العربي الذي مرَّ بنا آنفاً. ومَن يدري، لعلّه إنتوى أن يؤلّف كالمعرّي ديواناً من اللزوميات، ثم أقلَع.

وقد وجدتُ في اللزوميات مقطوعة للمعرّي مطلعها:

خُطوبٌ تألَّتْ لا يزالُ مُعذّبا
أخوها، وحَلَّت كُلّ كَفٍّ وساعدِ

وهي تتفق في الوزن والقافية مع مقطوعة الخَيّام العربية التي مطلعها:

إذا قنعَت نفسي بميسورِ بُلْغَةٍ
تُحصِّلُها بالكَدِّ كَفّي وساعدي...

فأنتَ ترى أن الخَيّام لم يكتَف في محاكاة المعرّي بإلتزام حرفَيْ العين والدال في مطلع مقطوعته كما فعل في سائر أبياتها، وإنما إلتزَمَ فيهِ كلمتين. وقد يكون هذا من توارد الخواطر، وقد لا يكون. وليست هذه المقطوعة من خيرة شعر المعرّي لنقول إن الخَيّام أُعجِبَ بها فإحتذاها، ولكنّي لا أستَبعد أن يكون جُرْس القافية قد عَلقَ بذهنه، فعارَضَها من حيث لا يَدري.

على أنّي لا أقصد أن الخَيّام سَرَق أفكاره من المعرّي أو اقتبسها منه، غير أنه من المعقول جداً أن يكون قد تأثّر به كما يتأثّر كلُّ مُفكِّرٍ بمَن يُشاكِلُه مِمَّن سبقوه. وكان كلٌ من الشيخين يمتاز على صاحبه في ناحية ويَتخلَّف عنه في ناحية، فالخيام أشْعَر والمعرّي أفْكَر. شِعر المعرّي مَنطقٌ وتفكير يكاد يخلو من

شِعر وطلاوة، ومَنطق الخَيّام وتفكيرُهُ في رباعيّاته يكاد يسيل طلاوةً وشعراً بالقياس إلى صاحبه. وأحسَب السبب يرجع إلى الآفة التي أبتُلِيَ بها شيخ المعرّة منذُ صِباه، فقد كانَ ضَريراً لا يَرى إلّا بعين عقلِه وخيالِه، فلم يُلطِّف سِحر الطبيعة من أسلوبه ما لَطَّف من أسلوب الخَيّام الذي كان جَشِع الذوق فما يشبع من مَشاهد الجمال. يُضاف إلى هذا أنَّ حكيم العرب كان عازفاً عن المرأةِ والخمرة، وهُما مع الطبيعة مدار الشِعر والخمر في رباعيات حكيم الفُرس.

أنظر إلى قول المعرّي:

سِر إن إستَطعْتَ في الهواءِ رويداً
لا إخْتيالاً على رفات العِبادِ

وأنظر إلى قولِ الخَيّام في نفس المعنى:

يا لِزهْرٍ مونِقٍ رَفٍّ على شِطْءِ الغَدير
أتُراه قد نَما فوقَ خدودٍ وثغور؟
فَتيَقَّظ، لا تَطأْهُ بإحتِقار وغرور
فلقد أينعَ من تُربَةِ وَجهٍ كالزهور!

ولكن المعرّي كان أوسعُ آفاقاً في فلسفتِه وأكثرُ تفاصيل. والعِلّة فيما أرى نفس العِلة الأولى، فقد كان الخَيّام مُشاركاً في كل العلوم، ومنها ما لا يَقدر عليه إلّا المُبصرون، من فَلَكٍ ورياضيات وطب وكيمياء وغير ذلك من علوم الطبيعة. فكان نشاط عقله موزَّعاً لا يستطيع أن يَحبسُهُ في الفلسفة وحدها.

ومع هذا فلا شك أنه كان يعرف ويتناول في أحاديثه مع صحبه وفي محاضراته على تلاميذه من مواضيع الفلسفة ما لَم يُفصِح عن شيءٍ منه في رباعيّاته. فالرباعيّات ليست سِجل فلسفته، وإنما هي كما قُلنا قَبلُ خَطراتٍ عابرات، قال فيها ما ضاقت به نفسه فلم يجد بُدّاً من قوله مما يتَّصِل ينفسِهِ إتّصالاً مباشراً من الأفكار. فأمّا ما تَركَ ذِكرَه منها فأكثر بلا مَراء. وهو يقول إن خوفَهُ نِقمة الجهالة كان سبب الكتمان.

جَزِعَ الدهرُ علينا مُذْ رَحلْنا وقَنَط
أَنْ ثقبنا دُرَّةً مِن مائَةٍ فيهِ فقط!
لَهْفَ نفسي، كم ألوفٍ مِن معانٍ في السَّفَط
حاقَ عن إعلانِها بالناسِ جَهْلٌ وشَطط!

ولكن يلوح لي أنَّ خَوفه جَهالة الناس لم يكُن السبب الوحيد الذي حالَ دون إعلانِه ألوف المعاني، لأنه أعلنَ في رباعياته في الواقع أشدَّها وقعاً على أبناء جيله وتحدّياً لعقائدِهِم مِن كُفره وتَجديفِهِ - لا لشيء سوى أن هذه العقائد كانت تواجهه أنّى ذَهب، وتتحدّاه، ولكنه إنّما أغفَل من مواضيع الفلسفة ما لا يمسّه ويُضايقه. والظاهر أنه قصَدَ بهذهِ الرباعية أنه لم يستطع تفصيل هذه المعاني في كتبه، وإنما نَوَّه بها إجمالاً في رباعيات سائرة تتناقلها الأفواه، ويسعه التنصّل منها وإنكارها متى دعَت الضرورة. ولا كذلك الكتب.

وأما المعرّي فقد كان حبيس الثلاثة من سجونه، يملك من الوقت فراغاً كبيراً لا يدري كيف يملأه. فكان من أجل هذا يتسلّى بألفاظ اللغة يلعب بها،

وبـإلتزام مـا لا يَلـزم في قوافيـه يـروّض بـهِ ذهنـه [١]. وعلى هـذا النحـو الغريـب القاسـي جعـل يكتـب عصـارة أفكـاره وتأمّلاتـه وشـتّى ملاحظاتـه في قوالـب العروض.

ومهما يكُن فإننا إن أردْنا إستنباط فلسفة الخَيّام والإحاطة بها لم نجد مصدراً نستمدُّ مِنه غير هذه الرباعيات. فإن الذي كتبه نثراً لعامة القُرّاء لا يُعَوَّل عليه، لأنه كان يراوغ فيهِ ويُمَوّهِ. وأما هذه الرباعيات فقد إفترضنا أنه كان ينظمها لنفسه ويقرأها على مَن يَطمئن إليه وحَسْب. فهي لذلك تُمثّل فلسفتِهِ وآراءه أصدَقَ تمثيل.. وإنْ كانت ناقِصة.

فكيف نستخلص هذه الفلسفة من هذه الرباعيات؟ وجدتُ بين يديَّ ركاماً منها مُختلِف الألوان متعدد الأغراض، فبعضها يدعو إلى الزُهْد في الدنيا والعزوف عن زخارفها، وبعضها يدعو إلى الإنغماس في لهوِها وإختطاف مَلذّاتها. وبعضها كفر، وبعضها غَزَل. وبعضها ذكرٌ للموت وتذكيرٌ بهِ، وبعضها تناسٍ لهُ ودعوة إلى تَناسيه. وبعضها إدّعاءٌ بالمعرفة الشاملة، وبعضها إقرار بالجَهل الشامل، وتقريعٌ للمدَّعين بالمعرفة، وسُخرية منهم.

فما قوام فلسفتِهِ وجماع آرائه من هذا الخليط العجيب؟ كنتُ أُقلّب وجوه الرأي وإذا بفكرة تومِضُ في خاطري، فتراءَت لي هذه الرباعيّات المتنافرة؛ وكأنّها أوصال تمثال رائع قد تَحطَّم وإنتَثَرَت شظاياه.

---

(١) كشف عن هذه الناحية الدكتور طه حسين باشا في كتابه (أبي العلاء في سجنه).

فهذي كَفٌّ تختلف عن الركبة، وذاك فَمٌ يُباين الأذن، وذاك أنفٌ لا يُشاكِل العنق. فلو جمعتُ شَتات هذا التمثال على نظام، ووصَلْتُ بين أجزائه على نَسَق، فوضعتُ كل شيء منها في مكانه، لصنعتُ منها هيكلاً تام الخلقة، مُنسجم الأعضاء، ففعلت.

وإذا بالرباعيّات كتابُ مُتَّسق التفكير، لهُ مُقدّمة وله نتيجة. يتألَّف من فصول يتَّصل كلّها بما قبله ويؤدّي إلى ما بعده. وإذا بهذا التناقض الظاهري أشبه بما تجده في كتاب تُفَرِّقُ صفحاته ثم تجمعها على غير ترتيب وتقرأ، فيختلِط عليكَ الأمر.

وبديهي أن الخَيّام لم يكتُب رباعياته على هذا الترتيب الذي إصطنعته ولا على أي ترتيب سِواه، ولكنّي وجدتُ تنسيقها على هذا النحو لا مَناصَ منه لإبراز فلسفتِه.

وقد لَخّصتُ هذه الفلسفة مستنبطاً من الرباعيات فيما سَمّيتُهُ «فهرس الثورة» أوضَحْتُ فيه الصِلة بين أجزاء الكتاب وفصوله.
فإلى الفهرس إذاً...

فهرس الثورة

١ - ثورة على المجتمع

كان الخَيّام كسواه من المفكّرين المتشائمين، ولا سيما ذوي الأمزجة الفنيّة الحادّة، ساخطاً على المجتمع. ينعى على أبنائه إنحطاط مداركهم، وإنكارهم على العالِم أن يُعلِن عن آرائه مما لا تفقهه عقولهم. وكان يحتقر أخلاقهم ويَضيق بصداقاتهم وبعِشرة الأغبياء اللؤمَاء منهم خاصةً. وكان ينقم على المجتمع سيئته القديمة الكبرى من الترفيه على كل جاهل أرعن من أبنائِه وحمايتِه، والتقتير على كل عالِمٍ حُر، إيذائه. فأنفَ من السعي إلى حشد المال صوناً لعزَّتِهِ، مُؤْثِراً للقناعة بكفاف العيش. وترفَّعَ عن خدمة العُظماء، وسَخر من حرصهم ومتاعبهم التي يَضيقون بها، ولكنّهم مع ذلك يحتقرون مَن لم يكُن حريصاً مثلهم. وتَعجَّبَ للحاكمين لِمَ يستخدمون مَن دونهم، وللمحكومين لِمَ يخدمون أندادهم؟

فزوى وجهَه عن الناس، وتقشَّف.. وثارَ على المجتمع.

٢ – ثورة على الدجالين (من رجال الدين)

لقد ضَلَّ الناس سَواء السبيل ولا شك لأنهم لم يَتَّبعوا هُداتَهُم ومُرشديهم. وكان الهُداة المُرشدون في تلك العصور هم رجال الدين. فألقى عليهم نظرة فاحصة، فألْفى أكثرهم جَهَلة دجّالين، يَتّهمون بالكفر والفلسفة كل مَن تَفَكَّر في كُنه نفسه أو تَدبَر في خلق السموات والأرض. وسَخَر من ضيق أذهانهم، يُشاحنون مَن تأمَّل في قُدرة الصانع وصنعته من أهل النَظر، وهُم مُنهمكون في أحكام الحيض والنجاسات. ثم يتَبَجَّحون بالزُهد وهُم أشَد تهالكاً على الحطام الفاني، وينهون عن شرب الكأس ثم هم يشربون دم الناس. ويَلزَمون المِحراب رياءً وغروراً ثم يبيعون دينهم من وراء سِتار الزُهْد والتَقوى.. فثار على الدجالين من رجال الدين.

٣– ثورة على الدين

إنهم ضَلّوا وأضَلّوا. ولو قد إتَّبعوا الدين الذي بإسمه يعملون ما يعملون لَأهتَدوا وهَدوا. فما هو الدين إذاً؟ نظر الخَيّام إلى الدين نظرة رياضيةً صِرفاً، وكأنَّه كتاب في الجبر والمقابلة. فجعلَ لا يأخذ إلّا بالدليل، ولا يخرجُ إلّا بالقياس. فرأى الدين يَحرِم العاصي من الجنّة وهو يعتقِد أنَّ الناس كُلَّهم عُصاة[1]، فإستنتَجَ أنَّ الجنّة ستظل خاوية على عروشِها. ووجدَ أنَّ ثواب الطاعة هو الحور والخمور؛ فتساءلَ لِمَ نُحرِّمُها على أنفسِنا هُنا وهي العاقِبة المُرتَجاة، ولعلنا لا نَظفر بها، هناك؟

(١) الرباعيّة ٣٢

فأنكرَ الثَواب وأنكرَ العِقاب. وإنتهى إلى أن الجنّة والنار واللوح الذي سُطِّرَت فيهِ مَصائِر الإنسان كامنة في نفس الإنسان، لا وجودَ لها في خارجه، فهي مِن أوهامه وصُنع خياله. وإرتأى أنَّ على المرء أن يصنع الخير ولا عليه بعد ذلك أن يَخرُج على الدين، ويُحَلُّ لنفسِهِ ما إشتهى مِن مُحرّماته. وجَحَد الحشر بعد الموت.

وطفَقَ يُناقش هذا وأمثاله من مسائل الدين فأنكرها.. وثار على الدين.

٤ – ثورة على السماء

ذلك أن عقله لم يَطمئِن إلى أنهُ الدين الحَق.
والدين الحَق هو الدين المُنَزَّل من السماء طبعاً، فلا بدَّ لمعرفتِهِ والإهتداء إليه من معرفة السماء أولاً.

رفعَ الخَيّام بصره إلى السماء فصدمت عقله قبل كل شيء مسألة القضاء والقَدَر. فقد خُلِقَ الإنسان ولا خيرةَ لهُ في خلقه. وخُلِقَت معه أهواء وآمال، فإذا هو جرى مع أهوائه وتعلَّق بأهداب آماله حُوسِبَ على ذلك وعُوقِب. وقد قدَّر الله عليه أن يفعل كذا ثم نَهاهُ عن فِعله، وخَلَقهُ شريراً ثم أراد منه أن يكون خَيّراً. وإن لم يكُن الله قد قدَّرَ عليه فِعل الشَر فقد كان يَعلَم منذُ الأزَل أنَّهُ سيفعله، فلو إمتنَع الإنسان عن فِعله لما كان عِلْم الله عِلماً.

ثُمَّ راحَ يُناقش صِفات الله. فهو كريم، فَلِمَ يبيع الجَنّة بالطاعة؟

وهو ربٌّ، إذا جازى عبده على السوء بالسوء فما الفرق بينِه وبينَه؟ وهوَ رحيم، فلِمَ يُعذّب؟ ويتمسَّك الخَيّام بالرحمة فيقول إنها إنما يستحقها المُذنبون، لأن المُتَّقين لا يحتاجون إليها، فليُذنِب إذاً ليَنعَم بها. والله خَيِّرٌ مَحض، وليس عند الخَيِّر سوى الخَير، فلا تخشى العاقبة إذاً؟ وهو واسع المغفرة، فليَتَمادى الخَيّام في المعصية طوال حياته، ليرى أيَّهما أوسَع - معصِيتَهُ أم مغفِرة الله؟

وهكذا يمضي في مناقشاته حتى يدور رأسه، ويَقرّ بعجزِه وعَجز أعلام الوَرى عن معرفة ذات الله. ويسترسِل في إنكارِهِ حتى يقول إن هذه السماء العالية، بأجرامها الزاهية، قد حَيَّرت أفهام الباحثين. لهذا فهو ينصَح بالتمسّك بالعقل، لأنه لا تدبير في السَماء ... وهكذا ثار على السَماء.

٥ - ثورة على الدهر والأفلاك

فمَن المُدَبّر إذاً؟ أهوَ الدَّهر؟ كلّا. فالدَّهر جائِر يغدق نعمتِهِ على كلِّ نذلٍ لئيم، وينزل نقمته بكلِّ حُرٍّ كريم، فهو إمّا حمار وإمّا خرف!
أهو الفَلك إذاً؟ كَلّا أيضاً. فالفلَك كالدَّهر في جورِهِ وحُمقِه. ولو كان الخَيّام ربّاً لَمحقَ هذا الفَلك، ولأنشأ فلكاً آخر ينال الأحرار فيهِ ما يشتهون. فلا تُحيلوا على الأفلاك خيراً ولا شَراً، فهيَ أعجزُ منكم ألف مرّة. وقد أخبرهُ الفَلك بذلك حينَ هَمسَ في أذن عقلِهِ يقول:

أنا لو كان دُوراني بأمري لأزَحْتُ نفسي من التجوال والدوار.. وهكذا ثار على الدهر، وثار على الأفلاك.

٦ – هَل مِن منازل؟ (أَلغاز الوجود)

فيا ويحَ الخَيّام إذ ينتهي إلى هذه النتيجة، ويعود من بحثِهِ صِفر اليدين، قانطاً ساخطاً على الأرض والسماء. من المسؤول إذاً عن هذا الوجود الهائل ليتَّجه إليه الخَيّام ويُناقشه الحِساب، ويثور عليه إذا دعا الأمر؟ مَن ذا يُخبره فيمَ جاءَ إلى الحياة، ومِن أجلِ ماذا سيفارقها؟ بل مِن أين جاء وإلى أين سيذهب؟ وما هي حال الذاهبين يا تُرى؟ وأنتَ يا هذا الروح من أجل ماذا حَلَلْت هذا البَدَن، ما دُمتَ سترحَل بعدَ حين؟ وما كان قصْدُ نقاش الأزَل لمّا خَلقَني وأحسَن صورَتي ثم ألْقاني على المسرح، في مَلْهى التُراب؟ ثمَّ ما باله يُهلِكُني بعد ذلك ويُفنيني، كأنَّهُ الخَزّاف يتأنَّق في صنع الزجاج ثم يضرب به الأرض؟
وهذا الكون الشاسع ما بِدؤه وما نِهايتُه؟ كيف شَرعَ الفَلك يدور كأنَّه الطاس الذهبي؟ وكيف سيندثر وينهار وكأنَّه البناء الشامخ؟
ألغاز تحيَّرَ فيها الخَيّام.

٧– ثورة على العقل

مَن ذا يَحل لهُ هذه الطلاسم؟ العقل؟ .. الحَق أنه بعد أن ثار على كل شيء، وجحَدَ كل شيء، لم يعُد لهُ ما يلوذُ بهِ ليأخذ بيدِهِ في هذا الليل الداجي سوى العقل. فلو كان آمَنَ بالدين لتلمَّس الجواب على هذه الأحاجي لدى الدين، ولو كان آمَن بالله واليوم الآخر لفوَّض أمرَه إلى الله وإصطَبر إلى اليوم الآخر. ولكن سُرعان ما خاب أملُه في هذا العقل الضئيل المسكين، فقد طفَقَ يتلفَّت

ويتطلَّع فلم يفقه مما حوله شيئاً. أنه لم يُدرِك من العالم إلّا تشبيهاً: الكون فانوسُ خَيال، مصباحَهُ الشمس، ونحنُ نتسكَّع فيه كالصوَر! أمّا ما قال القائلون، وإدَّعى المُدَّعون؛ فكلُّهُ هراءٌ وظنون. وأمّا الحقيقة فلم يُدرِكها أحد.. الأستاذ في ذلك كالمُبتَدئ. وأمّا الذين توهَّم الناس أنهم مُحيط العِلم ومصابيح الهُدى، وأنهم ثقبوا دُر المعاني، فإنما قصّوا أساطير ولفَّقوا خُرافات.. ثم ناموا. فيا لأسرى العقل والتمييز، ما كان نصيبهم إلّا أن هلَكوا في حسرة الموجود والمعدوم. وما كان جهدهم إلّا كجهد من يحتلب الثور! ويا ضلّة العقل، ما أبخسَه. إنه اليوم لا يُباع بهِ ضَغثٌ من كرّاث!

لقد توسَعتُ في كل معرفة، ووغلتُ بعقلي على كل شَر، حتى لعلمتُ كلّ معلوم. بَيْدَ أني اليوم وقد نَيَّفتُ على السبعين، راجعتُ عقلي فعرفتُ أني لم أعرف شيئاً قط.

فاطلب الجهل إذاً أيها العاقل، بدلاً من طلب العلم. أما الجاهل الحَق فهو من لا يُدرِك الجهل؛

٨- الموت في الميدان (فناء البقاء)

هنا، في هذه الحيرة القانطة، والقلق القاتل.. يتراءى من وسط الظلمة الطاخية الموحِشة شبحٌ هائل مروّع، ينعقد لرؤيته لسان الخَيّام، وتنسَدَّ عليه مَسالك الحيلة، ويتعطَّل التفكير. شيء لا كالأشياء. جبّار، مُخيف، يلتهِم كل شيء.. هو الموت!

إنه يلتهم الناس أفراداً وجماعات، والقصور والقبور. ويأتي على،

الأفكار والآمال والأعمال. ويطمس الخير والشر، والبؤس والنعيم، فلا يُبقي على شيء.

فما الحيلة؟ لا حيلة. وأين المفَر؟ لا مَفَر.

صار شَبح الموت يتمثَّل لعينَيْ الخيّام حيثما إلتَفتَ. فهذا جسدك كان طيناً لأجساد الغابرين، وسيصير طيناً لأجساد الآتين. وهذه حياتك ليسَت إلّا موتاً، ففي كل ليلة يموت منها يوم. ولتأكلنَّك الأرض، فإن كان غَرَّك أنها لم تأكلك بعدُ فاصطبر، فما فات الأوان.

الموت، الموت. في كل مكان وفي كل زمان، وفي كل شيء. أصبح الخَيّام يرى الأجساد في كلِّ جماد. يمشي على الأرضِ فيشفق أن يَطأ العيون الناعسة والثغور اللعساء، ويضع شفته على جام المُدام فيتوهَم أنه يُقبِّل شفة كاعب حسناء، تُكلّمه وتُذكّرهُ أنها كانت مثله. ويرفع بصره إلى شرفات القصور فيرى في لَبِناتِها كف مَليك أو رأس وزير.
إذا وقعت عينه على كوز قال إنه إنسان بإعتبار ما كان، وإذا بَصَرَ إنساناً قال إنه كوز بإعتبار ما سيكون. وإذا شاهَدَ الوجه الجميل تذكّر أنه سَيُدفَن في التراب فتنمو منه الزهور، وإذا نظرَ إلى الزهور قال إنها نَمَت من الوجه الجميل.

ورُبَّ طينٍ يركُلُه الإنسان بقدمِهِ فسمعه الخَيّام يقول مُستعطِفاً:
«لقد كنتُ مثلك، فارْعَني!» أو مُهدِّداً: «مهلاً، فلتَذوقَنَّ الركلَ مثلي!». فيا وَيْح الخزّافين يصفَعون الطين ويلكِمونه غافلين، وما يدرون أنه تُراب الآدميين.

أنظر إلى هذهِ الوردة الرائعة، تستيقظ مع الفجر وتقصُّ حكاية لنسيم الصَبا، فما تكاد تُتِم حكايتها حتى تنتفِض إنتفاضة الموت، وتهوي. أَفَهكذا؟ في عشرة أيامٍ وحَسب، تنبثق برعماً صغيراً حبيباً كالطفل الوليد، ثم تنمو كما تنمو الصبيّة الكاعب، ثم تكتَمِل كما تكتمل الغادة الناهِد، ثم تموت؟.. يا لغَدر الدهر.

لو كانت هذه السُحُب تحمل التراب كما تحمل الماء، لأمطرَت حتى القيامة من دِماء الأحباب.

أوّاه. ما أكثر ما ستُبقي الدنيا بعدنا. لم نكُن في الكون فما كان به نقص، وسنُغادره وسيبقى كالذي كان! فما أحقر شأننا.

ما كَرِه الخَيّام شيئاً كما كَرِه الموت. ولا هابَ شيئاً كما هابَ الموت، ولا شَغلَ فكره شيء كما شَغلهُ الموت. ولكن الشيء الوحيد الذي لم يَثُر عليه ولم يُناقشه الحساب هو الموت.

إنّي حَلَلْتُ مُشكلات الكَوْن كلَّها، ووثبْتُ مِن كل أحبولةٍ نَصَبها الخداع لإقتناصي. ففضحْتُ كُل الأسرار... إلّا سِر الموت.

٩ – فشل الثورة (مآسي الحياة)

ما جدوى هذه الحياة إذاً؟ ها قد أدبَر الشباب، وأخفَقَت الآمال؛ وتراكمت المِحَن والأحزان. فوا أسَفاً على مثل هذا العمر، مضى عبثاً كما تمضي ليلة السُكْر، ومَرقَت فيه الآمال مروق السمَك من الشَبَك! ما نحنُ إلّا لعَبدٍ بيَد الفَلَك، لَعِبَ بنا بُرهةً على مسرح الدهر؛

في حياة كلّها خيبة آمال وقنوط، ثم جمَعتْنا يدُهُ الجبّارة واحداً واحداً

وألقتنا في صندوق العدَم. أَلا ليتَ الإنسان يعود بعد دهور إلى الحياة، ولكن هيهات.

أخد الخَيّام يتلفّت إلى الماضي الضائع والمستقبل المُكفَهِر، ويجتز الآلام. فجعل يتلمَّس العُزلة، وينتظر الأجَل. ثم صار يتمنّى لو لَم يكُن، أَمَا وقد كان فليتَه يُعاجِلُه الفَناء فقد مَلَّ المقام. ثم جعَل ينعي نفسه سَلَفاً في شيء من الإستلام، ويُخبِرُنا عن ذلك الخَيّام الذي خاطَ خِيام الحِكمة، كيفَ قطعَ أطنابه مقراض الأجَل، وباعَهُ رخيصاً دَلّالُ الأمل. ثم هو يتطامن ويسألنا أَلّا نحزن عليه إذا مات، فقد أفلتَ من قبضة الردى.. وهكذا فشلت الثورة.

١٠ - فرار الثائر (عدم الوجود)

لا تَأسَ إذاً على ما فاتك من أوطار الحياة ومَباهِجها، ولا تَبتئِس لِما أصابكَ من أشجانِها وكوارثِها. فما دامَت العاقبة هي الفَناء، فَكِلا الأمرين سَواء.

لَعمري ما الكون إلّا أوهام، وما الأقاويل إلّا تُرّهات، ولا الدنيا كلّها إلّا هذه اللحظة القصيرة، العابرة. لقد درسنا على الأساتذة زمناً، وفرحنا يوم صِرنا في عداد الأساتذة، فإليكَ آخر حكايتنا: خَرجنا مِن التُراب، ومَضينا في الريح. فهل الحياة إلّا مَنام، وخَيال، وصلال، وغرور؟

يا فؤادي.. هَبْكَ حَقَّقتَ أوطارَك كلّها، وإستَمتَعتَ بمباهج الدنيا كما تَتشَهّى،

فكأني بكَ قطرة طَلّ، باتت ليلةً على الزَهر، ثمَّ تبخَّرت في الصباح.

وهَبْكَ قرأتَ أسرار الوجود، وسخّرت الدهر، ومَلكْتَ البَر والبحر، وعِشتَ قرناً كاملاً، أو قرنين. فهل لذلك كله من نهاية غير القَبر؟

وما دام المعدوم موهوماً، والموجود منقوصاً، فهَب المعدوم موجوداً والموجود معدوماً، وإستَرِح.

ولو فكَّرث في البداية والنهاية، لوجدتَ الأفراح والأتراح، والطِيْب والخُبث، والحُسْن والقُبْح، والهَناء والشَقاء، كلّها سواء بسواء، وهباءٌ في هواء.
عَبثٌ إذاً رؤيتك الدُنيا، وعبثٌ كل ما قلتَ أو قيلَ لكَ. وباطل إن ركضتَ في الأفاق، أو قَبَعتَ في بيتك!

باطلٌ جسمك هذا أيَهذا الغافل، وباطلٌ هذا الفَلَك المنَمَّق الحافل ولَئِن أُسِرْنا بُرهةً في دار الكون والفساد، فلا تَكتئِب. فهذا أيضاً باطل!.. وهكذا فرَّ الثائر.

١١ – في المنفى

(أ) نُخب الهموم

فشلت الثورة، وفرَّ الثائِر، وإذا هو مقهور يائِس في جزيرة الحياة، كأنّه نابليون في سانت هيلانة. فكيف الصبر على هذه المحنة؟

أَما من دَواء لتخفيف الألم؟ أَما من حيلة لإنامَة الأفكار، والقلق، والهواجس؟

بلى.. أيها الساقي، إذ العلاج لديك. لقد ضاق صدري ورَكبَتْني الهموم - هموم الحياة والموت، والدين والناس، والأرض والسماء، فإسقنيها شقراء بلون الأرجوان. إسقنيها تَسلب العقل ولو هُنَيهة يسيرة، عساني أُذهل عن نفسي وأحداث الزمان. فلنغسل أشجان الدنيا بماء الذهب. وأرفِق بنفسِكَ المُعارة الحبيسة، وأرِحْها بالصَهباء من عِقال العقل.

آه يا صهباء! ما لي في الدُنيا صديق صافي الدخيلة، خارج الجام، أيها الساقي فلا تقبض يدك على الكأس، فلم يبقَ باليدِ سواه! أنتَ تدري أنَّ هذه الحياة ليسَت غير ريح، فإسقِنيها عسى أن تمضي بسرعة الريح. وأنك لَتعْلَم أن الدنيا صائِرة إلى الخراب، فكُن بالسُلافة أنتَ أيضاً خَرِباً! أَمَا تَرى أننا في الصَحْوِ لا يكمن لنا غير الحُزن في كل شيء؟ فمتى تَملنا فليكُن ما يكون. فالحُميّا إذاً راحة روحك، وطبّ جروحك. فتعلَّق بها كلّما إجتاحَك طوفان الأسى، فهي فَلَك نوحك!

لا تَحسب أني خَليعٌ سكّير، فأنا لا أشربُ الخمر طلباً للنشاط أو الطرَب، ولا إبتغاء المروق على الدين أو الخروج على الأدب، وإنَّما أشتهي الغَفلة عن نفسي قليلاً. وهذا كل ما في الأمر.

(ب) نُخب الموت

وهل من مَلاذ غير الخَمرة والعمر يَمرق من الأيدي مروق الزئبق؟ فما لي أحمل الهمَّ لفَقري أو ثَرائي، وشَقائي أو هَنائي؟ أفلا يستوي الحلو والمر إذا تَصرَّمت حِبال الحياة؟ فهات الكأس أنعَم بها، فإني أخشى أن يَدهمني الأَجَل قبل أن أشربه!.

يا صديقي. كَفكِف من أنانيتك، وخفِّف من غلوائك، وعليكَ بالصَهباء، فإنَّ حياةً يعقِبُها المَمات لخليقةٌ بأن تقضيها بالسُكر أو بالسُبات! لقد زرعَ الدهرُ من أمثالنا كثيرين، ثم إحتصدهم. فَلِمَ الغَم؟ هاتِ قدحاً آخر، فإن الكائن كائن! إن المقيمين سيرحلون، والراحلين ليسوا بالعائدين. إنهل كأس خمر، فمتى حان الحين لن يُمهِلْنا هذا الفَلَك العابِس الحَقود أن نَنهَل كأسَ ماء. فلا تَدَع رغبة تِفُتْكَ ولا لذّة تفلت منكِ.

إنظر إلى هذا البدر شَقَّ نورُهُ جلباب الدياجي. فهل تطمع بأجمل من هذه الآونة؟ لا تُفكّر يا حبيبي وأشرب الراح، فكم سيطلع هذا البدر ويغشى الأرض بنورِهِ، يُفتِّش عنّا فلا يجدنا.. إذْ نحن تحت التراب.

ها قد أشرقَ الصبحُ بهيجاً طيباً، فعصِّب ما بقيَ لنا من خَمرة الأمس وهاتِها يا حلو في الكأس قبل أن تصنع الأفلاك من طيني ومن طينكَ، الدِن. لقد الصقتُ شَفتي بشفَة الكوزة ذات مرّة لعلها تنفحني طول الحياة، فقالت لي همساً: إنني عِشْتُ كما عِشْتَ، فعاشرني قليلاً!

تأمَّل هذه الخمائل الناضرة، والزهور العاطرة، فلقد أيْنعَت من ثَرى الأسلاف، وستذوي وشيكاً. فلْنستَمتِع بها قبل أن تنمو من ثَرانا.

(ح) شيوخ الحان

عرجتُ أمس على الحانوت فرأيتُ شيخاً يحملُ على منكَبِهِ الدِّن فقلتُ لهُ: ألا تخجل من الله تعالى؟ قال: الله كريم فأشرَب وأسكت!

ورأيتُ شيخاً ثانياً يحملُ القدح بِيَد والسِجّادة بيَد، فقلتُ لهُ: ما هذا يا شيخ؟ فقال: خُذ قدحاً، فإن الكَوْن ريحٌ؟ ورأيتُ شيخاً ثالثاً قد إجتمعَ حوله السامرون يُحدّثهم. فقلتُ له: خَبّرنا عن الغابرين؟ قال: إشرب يا صاحبي، فقد ولّى الغابرون ولم يأتِ عنهم خبر؟ ورأيتُ شيخاً رابعاً قد أنطرحَ مُنهَكاً من فرطِ ما شَرَب، وإذا هو يُتَمْتِم: الله لطيفٌ بعبادِه!

(د) نُخب الزاهد الدجال

فيا أيّها الزاهد الدَجّال، المعني بقصير الحياة، لا تَقُل لي: أين ذهابي بعدَ الموت؟ أعطِني الكأسَ وأذهب حيث شِئت!

حَسبُكَ تشهيراً بالسُكارى، ومُخاشنَةً لمَن هم أفضل منك وأكرم. وإنهَل الرَاحَ، فلستَ بشربِها أو تركِها تدخل الجنّة إن كنتَ مِن أهل الجَحيم. إن جرعةً من الصَهباء خيرٌ من عروش المالكين، وأنيناً يرسله الخَمّار في جوفِ الدُجى لَخَيْرٌ من تأوُّه الزاهدين الكاذبين.

(هـ) نُخب الدين

لقد سَئِمَت نفسي طول النِفاق، فقُم أيّها الساقي وبِع سجّادتي بكأسٍ من الشَمولِ، وإدفع طَيلَساني أيضاً - لكي يصيح إفتخاري بما يبقى لي بعد ذلك؟ ورُبَّ قائِلٍ يقول لي: إن شرب الخمر يؤدِّ بِكَ إلى النار في الآخرة. دَعوني من أطماع الآخرة والدُنيا؛ فإن جُرعةً من بنت العِنب خيرٌ من كِلَيْهِما!

يا فؤادي: فإتَّخذ الجنّة هنا من طلعة الحبيب وإبريق الحُمَيّا، فقد لا تُدرِك الجنّة هُناك. وإنَّ نَقداً في اليَد لخير مِن ألف نسيئة. فدَع كُل صلاةٍ وصيام، إلّا إذا توضَّأتَ في الحانِ بالمُدام، أو تَيَمَّمْتَ بثراه، لَعلَّك في الخَمّارة تسترجع عمراً غابراً ضيّعته في المدارس. ولَعَمري إنَّ الذي يحسو أفاويق الطَلا مُستريحٌ من المحاريب خَاليٌ مِن الديور، فارغ البال من الأديان والمذاهب، وأمَل الرحمةِ وخَوف العذاب. فمَن أرادَ أن يَعرِف ديني فهو الفراغ من الدين والكفر!

(و) اللهُ كريم

ورُبَّ قوم يقولون لي: «تُب لله!» فإذا لَم يُرِد الله لي كيفَ أتوب؟ كلا. إن الله لا يقبل توبَتي، وإنّي لن أتوب ولو قَبِلَها؛
إغتَنِم اللّذات يا صديق، وأظفَر بمتاحات الأماني؛ فإن الله غنيٌّ عن تقواك ومعصيتك جميعاً. أَلا تُدرِك أنَّ مَن يَخلق هذه الأكوان لا يُبالي بشاربَيْ مثلُكَ أو لِحية مِثلي؟ اللهمَّ فأحفظني صريعاً بالحُمَيّا طوال عمري، فمِنَ الغَفلةِ لا أعرِفُ ما يُقلِقُ فِكري؛

(ز) نُخب العقل وألغاز الوجود

إننا لا ندري ماذا وراء الستار.. ولا نعلم كيف حلول الروح في الجسم.. ولا مثوى لنا غير التراب. فحتّامَ هذهِ الحكايات؟ وإلامَ نبقى أسارى بِيَد العقل العاجز؟ إنْ هذي إلّا أساطير كلّها لا نَفعٌ فيها. وما القديم والحديث بعد أن نموت؟ حَسْبُنا نَتفَكَّر مِن أينَ جِئنا وإلى أين سنذهَب، وتتحيّر في الأربعة (العناصر) والخَمْس (الحَواس) والسِت (الجهات) والسبعة (الأفلاك)، ونتجادل في الواحد والكثير، ونَعْبَأ بما يكونُ في الدهرِ كأنّما أُنيطَ بنا تدبير الكون. إنَّنا نُعنّي أنفسنا بتحصيل العِلم ثمَّ لا نَظفَر بغيرِ الشَك، وأمّا اليقين فلا يقين. أَفَنُفْني حياتَنا القصيرة في هذا العَبَث؟ عليكَ بالراحِ، ففي ظلام الجَهْلِ يستوي السكران والصاحي! أمّا أنا فلأَصُبَّنَ جُرعةً من الخَمرِ على هذا العقل الفضولي حتى ينام! بل لأُطَلِّقَنَّ العقلَ والدينَ ثلاثاً، وأتزوَّج بنت الكرام!

(ح) نُخب اللحظة الحاضرة

الأمسُ مضى وفاتَك، فلا تعاوِدُ ذِكره. والغَدُ غيبٌ لَمّا يجيءُ، فلا تَتدَبَّر أمره. إنَّك إنَّما تملك مِن حياتِك كلها هذه اللحظة الحاضرة، فأغتنِمْها.

إلْقِ عن قلبك أثقالَ الأسى والأحزان، وإنْسَ ما لَم يكُن وما كان، وأطَّرِح هموم الجاه والمال، وتحرَّر من الآلامِ والآمال. إن هذه الأنفاس في جسمك عارية، فإغتَنِم عاريةَ العُمرِ وعِشها عارية!

إيه يا خَيّام. إن شربت السُلافَ فأسكُر وأطرِب، وإذا جالستَ الغادة الحسَّانة فتمتَّع وألعَب. آخر الدنيا فَناء فأفترض أنَّكَ فانٍ، وبما أنّكَ موجود فتنعَّم بما يُتاح لكَ من لَذائِذ الحاضِر وغِبطتِهِ.

هَلّا حاسَبتَ نفسَك ماذا جلبتَ معكَ يومَ أتيت، وماذا ستحِملُ مَعك إن تولَّيْت؟ فأينَ أنتَ مِن صافيةِ الرَاح وحسناوات المِلاح؟ إنَّ كُل نَفَس ينقضي إنَّما ينقضي من عُمرك هذا الذي لا تملك في الكون سواه، فهو رأسُ مالَكَ. فلا تُقْضِهِ بغير اللَّهوِ والسرور، وأعلم أنَّه يَنقضي كما تَقضيه أنتَ. وإيّاكَ أن تتوب عن الخمرة أو غيرها من نِعَم هذه الدُنيا. ها هِيَ الأزهارُ تفوح والأطيار تنوح... أَفي وقتٍ كهذا يجوز المَتاب؟
لا تُكَفِّر بعد اليومِ في ماضٍ ولا آتٍ، بل أغنِم الحال. أغنِم الحال، فإن المقصود من الحياة هو هذا.

(وهنا ينتهي الفيلسوف إلى حيث يبدأ رجلُ الشارع وينتهي، فيَلتَقيان على متاع اللحظة الحاضِرة، ونِسيان كُلّ ماضٍ وآتٍ، وإنصراف عن شؤون الفِكرِ والدَهرِ. فهذا هو مقصود الحياة على حَد تعبير الخَيّام - يدركه العامَّة بغريزتهم الجاهلة، من غير ثورةٍ ولا فلسفة. ولكن مع فرقٍ واحد، هو أنهم لا يُخلِّفون للأجيال كنزاً من الرباعيات. ولو قال الخَيّام أن مقصود الحياة هو عمل الخير للمجتمع، الذي لا يمكن بدونه إن تتهيأ المُتعة للجميع، لكان أقرَب إلى الصواب والواقع. ولكن فشل ثورتِهِ وتَشاؤمه القانِط جَعَلاه سلبياً لا يَروم غير من التهرّب من الهموم).

(ط) نُخب الحبيب

ولئِن كنتُ آسفٌ على شيء فإنَّما آسفٌ على ما إنقضى من عُمري بغير حبيبٍ وشمول. فلا أضْيَعَ في حياتِكَ من يومٍ يَمضي في غير غرام. ولستُ أقصد الحُب المجازي، فهو لا رواءَ فيه ولا نَضارة، كأنَّهُ الجمرة الهامدة ما فيها حرارة. وإنما أقصد ذلك العِشق المُحرِق الذي لا يستمرئ المُدنَف مَعهُ طعاماً ولا مناماً، ولا يقرّ لهُ قرار. فلأباكِر فرصة البهجة إذاً في الروض الظليل، بيد فرع الحبيب ويد كأس الشمول.

ويح العاذلين يقولون لي: «ما عذرَك في لَهْوِكَ وسُكرك؟» إن غذري لَثغر الحبيب وإبريق الصبوح! فأي عذر يا تُرى أوضح مِن هذا يكون؟

تعال هنا يا وثني كرامةً لقلبي، وفرّج بحبّك كُربتي. وهات كوز الصَهباء قبل أن يصنعوا الكوز من طيننا. فلنتَّبع نهج دراويش الحان، لا نبتغي غير الراح والحبيب والسَماع.
ولنَدع أقاويل الهُراء، إلّا ديواناً من الشِعر. وما دمتَ معي ما أُبالي أن أعيش في قَفرٍ يَباب، فإن ذلك أحلى عندي من مُلك السلاطين. ولسوفَ تراني ذات يومٍ قد صرعَتْني الشَمول، فهوى رأسي على قدمِكَ وجداً وذُلاً، ووقعَتْ الكأسُ من يدي والعِمامة مِن رأسي.. هائماً بجمال وجهِكَ، كأنَّني من عَبَدة الأوثان!

(ي) نُخب الأنخاب

ويا صَهباء، إنَّكِ لأنْتِ شرابي الفاضحي بين العباد، فلأشرب منكِ ما يُذهِب بصوابي! ومهما هَتكتِ سِترى فلَنْ أقلوكِ وفي نفسي رَمَق، أنتِ التي لم تقَع عينٌ على أحسن منكِ. فيا عَجَبي لبائعكِ، ما عساهُ يشتري أفضل مِمّا يبيع؟

إني لا أحتَمل العيش بدونكِ، ولا طاقةَ لي بحملِ هذا الجسد الثقيل. فما أحلى ساعةً يقولُ لي الساقي: «إليك قدحاً آخر»، وأنا لفَرْط السُكر لا أستطيع؛

لقد عرفتُ ظاهِر كُلّ موجود ومعدوم، وإطَّلعتُ على باطِن كلّ رفيع ووضيع؛ فلأخْجَل إذاً من كل عِلمي إن كنتُ أعرف مكانةً فوق السُكر!

يا أحبّائي، فإجعلوا الحُميّا قوتي ما حَييت، وإغسلوني بها متى وافاني الأَجل. ثم أعَدّوا تابوتي من الكَرمة، ثم فأصنعوا مِن ترابي جاماً لعلي أحيا فيه إذا إمتلأ من بنت العنب. وما أُباليي بعد الموت فخراً ولا ذِكراً، فأطمسوا قبري، واجعلوا سيرة حالي عِبرَةً للعالمين. ولكن لا تنسوا أن تصبّوا الراح على تُرابي، وأن تصنعوا من جسمي سِداداً للخَوابي. ومتى إجتمعتم لمعاقرتها بعدي، وجاء دَوري؛ فأذكروني، وأقلبوا كأسي.

١٢–سنار الخيّام

الآن وقد أنتهَيْنا فلنتأمَّل قليلاً. أيّهُما أصوَب يا تُرى: سُكارى الحان

أم أحلاس المحاريب؟ يقول الخَيّام، إن كلاً الفريقين على ضلال وعلى أيّة حال لم يكُن هو من أهل الدير ولا المسجد. أما إذا أردتَ أن تعرف حقيقتُهُ، أجابَك أنها لا يعرفها إلّا من جُبِلَ ترابه. إنه في الدنيا أشبه بالكافِر المُعدَم والمومس المحرومة من نعمة الجمال - قد خَسِر الدنيا والآخرة، وقطعَ الرجاء من الجنّة. تُرى، هل عرفنا الخَيّام على حقيقتِهِ، وهل صدَقَ حَدسُنا في فهمه؟

قال قوم إني زيرُ نساءٍ أو زِق خَمر، وقال آخرون إّي وثنيٌّ كافِر. فليقُل مَن شاء فيَّ ما شاء. غير أنّي ملك نفسي، كيفما أكُن أكُن! فهوُ يُعِد تحرّينا أمره تطفّلاً وفضولاً كما ترى.

طهران: ٥- ٥- ١٩٤٩

عبد الحق فاضل

الباب الثاني

صَوْتُ الخَيَّام

(الرباعيات)

١

ثورة على المجتمع

- ١ -

فُصِّلَت أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاترْ
قد طويناها، ففي النَشْرِ وَبالٌ ومخاطرْ
لم نَجد في الناسِ من يَعقلُ من أهل البصائرْ
فغدا يُعجزِنا إظهار ما تُخفي الضمائرْ!

- ٢ -

جَزِعَ الدهرُ علينا مُذْ رَحلْنا وقَنَط
أَنْ ثقبنا دُرَّةً مِن مائَةٍ فيهِ فقط!
لَهْفَ نفسي، كم ألوفٍ مِن معانٍ في السَّفَط
حاقَ عن إعلانِها بالناسِ جَهْلٌ وشَطط!

- ٣ -

رُبَّ سِرٍّ لستُ أستطيع لهُ في الخَلْقِ فَضْحا
فأستَمِع موجَزَ قَوْلي، ولا تَسَلْني عنهُ شرحا!
آهِ مِن حالٍ أراني عاجزاً عن وصفِها
آهِ مِن سِرٍّ طَواهُ القلبُ، لا يَقبلُ بَوْحا

-٤-

أُكتُم الأسرارَ عَمَّن سَفَلوا وأبتُذِلوا
وصُن الحِكمة عن كُلٌّ عَمْ لا يعقِلَ
وتأمَّل... في مكانِ الناسِ ماذا تَعمَلُ؟
وتوقَّع مثل هذا منهُمُ أن يفعلوا

-٥-

أنا بالنَفْسِ أُفَدّي كُلَ حُر النَفسِ أهلِ
إنْ أضَع رأسي على رِجلَيْهِ لم أشعُر بِذُلِّ
أَفَتبْغي أنتَ أنْ تَعرِفَ ما نارُ الجحيمِ؟
هيَ في الدُنيا لَعمري صُحْبَةَ الفَدْمِ اللئيمِ

-٦-

عاشِر الأطهار من كُلِّ كريمٍ عاقِلِ
ومِنَ الأشرارِ فأهرَب ألفَ ميلٍ مائِلِ!
إشرَب السُمَّ إذا أعطاكَهُ أهلُ الحَجى
وأهرِقْ الشَهْدَ إذا أعطَتْهُ كَفُّ الجاهلِ!

-٧-

صاحِ أَقلِل ما تَمكَّنتَ عديد الأصدقاء
وأصطَحِب إن شِئتَ أهلَ الدهرِ لكن مِن بعيدِ
إنَّ مَن تَركَنُ في الدنيا إليهِ بالوَلاء
ليس في باصرةِ العقلِ سوى خصمٌ لَدودِ!

-٨-

إن رَعى عَهدي غَريبٌ كانَ لي مِن أقربائي
وإذا خانَ قريبٌ كانَ بعضُ الغُرباءِ
أنا إنْ أَسقَمَني الترياقُ فالترياق دائي
أو شَفاني السُمُّ كان السُمُّ طِبّي ودَوائي؛

- ٩ -

يا لَها محبوبةٌ، طالَ كأشجاني بَقاها!
بَدأتْني اليوم إحساناً جديداً مِن نَداها
نَظَرت في ناظري وإنصَرفَت، أيْ يا أَخي
إصنعْ الخَير وفي الماءِ إرمِه، لا تتباهى!

- ١٠ -

لا تُجَرّع أحداً غصَّةَ حُزنٍ بَطَرا
لا ولا تُصْلِ بنارِ الغيظ مرءاً في الوَرى
وإذا أحبَبتَ أن ترتاحَ حَقاً عُمُرا
فأحمِل الحُزْنَ ولا تُحزِن لشيءٍ بَشَرا

- ١١ -

إنَّما الراحةُ في الدُنيا ولَذّات الصفاء
خُلِقَت للمُطلَق الضارِبِ في كُلِّ فضاء!
فإذا أصبحَ فرداً مُستريحِ البالِ زوجاً
فلَقَد بُدِّلَ مِن راحتِهِ أيَّ عَناء!

- ١٢ -

ليسَ في ميزانِ هذا الدهرُ نفعٌ للعقول
إنَّما يربَحُ فيهِ كُلُّ مأفونٍ جَهول
فإسقنيها تُذهِبُ العقلَ ذهوباً مُنكراً
فعسى أن يُحسِنُ الدَّهرُ إلينا النظرا!

- ١٣ -

ليسَت الفِضَّةُ في الدُنيا بِذُخرِ الحُكَماء
بَيْدَ أنَّ العادِميْ الفضَّةَ فيها سُجناء
أطرَقَ النسرينُ بالرأسِ لعُدْمٍ وسَغَب
بينما يَضحَكُ ثغرُ الوَردِ في كيسِ الذَّهَب!

- ١٤ -

ليس في الإمكانِ تغييرُ الذي خَطَّ القَلَم
فالأسى لا خيرَ فيهِ غير تأريثُ الألَم
لو قضيتَ العمرَ في حُزْنٍ على الدُّنيا وحَسرة
لم تُزِد ما هوَ موجودٌ ولا مِثقالَ ذرَّة!

- ١٥ -

لِمَ هذا الحُزْنُ للآتي الذي لم يَحضَرِ؟
إنَّ طولَ الهَمّ مِن حَظ البعيدِ النَّظَرِ!
لا تُضَيِّق سِعَةَ الدُنيا على قَلبَكَ، فأفرَحْ
لَنْ تُزيدَ الرِزقَ أو تُنْقِصُهُ بالكَدَرِ!

-١٦-

إن ما تطعمُ أو تلبسُ مِمّا تبتغيه
أنت معذورٌ بِما تكدَحُ كَيْما تَقتَنيه
أيُّها العاقِلُ، والباقي فضولٌ، ورخيص
فتحذَّر أن تَبيعَ العُمُر الغاليَ فيه!

-١٧-

كَم تُذِل النفسَ في خدمةِ أوغادٍ لِئامِ؟
تنتَحي كُلَّ طعامٍ، كالذُباب المترامي؟
كُلْ رغيفاً كُلَّ يومينِ بِلا مَن الأَنامِ
فَلَأنْ تَطويَ خيرٌ لَكَ مِن خُبزِ الكِرام!

-١٨-

إنْ أصابَ المرءُ في اليومِ رغيفاً واحداً
وإحتَسى من كوزِهِ المكسورِ ماءً بارِداً
فلماذا يا تُرى يَخدِمُهُ مَن دونِهِ؟
ولماذا يا تُرى يَخدِمُ نِدّاً سائداً؟

-١٩-

أنا إن فُزْتُ مِنَ القَمحِ المُنَقّى برغيفِ
ومِنَ الخَمرِ بزِقٍ، معَهُ فَخذ خروفِ
ثُمَّ أحيا وحبيبُ القَلبِ في عَرضِ تنوفِ
فَهيَ العيشةُ، ما تاحَت لِذي المُلْك المنيفِ

-٢٠-

إنَّ مَن صاروا عِظام الناسِ مِن أهل المناصِب
سَئِموا أنفسَهَم مِن فَرْطِ حِرْصٍ ومتاعِب
وإذا هُمْ أبصَروا غيرَ حريصٍ مثلَهُم
لم يَروهُ آدمياً مِثلَهُم.. يا للعجائِب!

-٢١-

رُبَّ سَهْمٍ تُرشِقُ الآجالُ لا درعَ تَصدُّهْ
وثراءٌ يَحشِدُ الإنسان لا يُجديهِ حَشدُهْ
كُلّما فكَّرتُ في الدُنيا عَدَدْتُ الخيرَ خيرا
وبَدا لي ما عَداهُ باطِلاً لسْتُ أعدّه

-٢٢-

أنا آثرْتُ مِن الدُنيا رَغيفَيْنِ وخَلْوَهْ
وصَرفْتُ النَفسَ عن كُلِّ غِنى فيها وسَطوهْ
إنني أَبتَغْتُ بروحي كلَّها دَروَشَةً
فَلَكَم أَلْفَيْتُ في مِتربة الدرويش ثَروهْ؟

-٢٣-

ليسَ في إيوان هذي النَّيرات الدائراتِ
من سَعيدٍ قَطُّ غير أثنَيْن مِن أهل الحياةِ
مُدرِكٌ يَفقَهُ كُنْه الدَّهرِ مِن خيرٍ وشَرّ
وجَهولٌ غافلٌ عن نَفسِهِ والكائنات!

-٢٤-

لاحَ ثورٌ في السَما يُدعى الثُريّا، ظاهرُ
وإختفى تحتَ طِباق الأرض ثَوْرٌ آخرُ
فإذا ما نَظَرَتْ واعيةُ العقل البصيرِ
شاهَدَت بينَ كِلا الثَوْرين سِرباً مِن حميرِ!

٢

ثورة على الدجالين (من رجال الدين)

-٢٥-

يتظنّى الشائئ الواهم أنّي فيلسوف
عَلِمَ الله بأنّي لا كما قال السخيف
بَيْدَ أنّي وأنا في وكرِ أتراحٍ وبؤس
لا أقَلَّ الآن أن أعرف فيهِ كُنْهَ نفسي!

-٢٦-

كُلَّ شيءٍ قُلتَ عنّي كانَ عن حقدٍ جَليّ
أبداً تزعَم أنّي مُلحِدٌ لا دينَ لي
إنَّني نَفسي بنفسي عارِفٌ مُعترَفٌ
أَفَأَهْلٌ أنتَ أن تسألُني عن عَملي؟

-٢٧-

سَيّدي أنتَ فقيهٌ، لَسْتَ تَدري ما الخَبرْ
ما الذي تُنكِرُ باللهِ على أهلِ النَظَرْ؟
هُم أطالوا الفِكْرَ في الصانِعِ أو صَنعَتِهِ
وتَفَقَّهتَ بحيضٍ، ونَجاساتٍ أُخَرْ!

-٢٨-

سَيْدي، هَلّا تَكرَّمتَ عَلينا بمَرام؟
أعْفِنا ناشَدتُكَ الدَيّانَ مِن هذا الخِصام
مستقيمٌ سَيْرُنا.. لكنَّ في عَيْنَيْكَ زَيْغاً
فإلتَمِس طِباً لِعَينَيْكَ، ودَعْنا في بسلام!

-٢٩- ﴿ ﴾

أيُّها الزاهِدُ، ما مِثليَ مَن يَجهَلُ مِثلَك
فإلْتَمِس غَيري غريباً جاهلاً يذكُرُ فَضلَك
قُلْتَ لي إنْ تَجْنِ ذَنباً تَكُ في النارِ؛ فَمهْلَك
أيُّها الزاهدُ قُلْ هذا لِمَن يَجهَلُ فِعلَك!

-٣٠- ﴿ ﴾

أيُّها القالي الحُميّا، لا تُنَدِّد بالسُكارى
لا تُشيِّد بالأساطيرِ وبالتَدْجيلِ دارا
إنْ تَحَرَّجْتَ مِنَ الخَمرِ فَلِمْ تُزهى إعترارا؟
كَم فِعالاً لَكَ تخزى الخَمرُ مِنها وتَوارى!

-٣١-

أنا أَحْسو الخمرَ، لكن ما أدارَ السُكْرُ رأسي
ويَميني لَم أطِلْها صوبَ شيءٍ.. غيرَ كأسي!
أَفَتدْري وَيْكَ ما سِرُّ إفتتاني بالحُمَيّا؟
ذاكَ أنّي لَم أكُن مثلكَ مَفتوناً بنفسي!

-٣٢-

كانَ سُكري وطِلابي الراحَ مَقدوراً جرى
فلماذا أُولِعَ الخَلْقُ بعَذلي يا تُرى؟
أَتَمنّى لو غَدا كُلُّ حَرامٌ مُسْكِرا
عِندها ما كُنتُ ألقى صاحياً بينَ الوَرى!

-٣٣- ﴿ ﴾

إنَّنا أكثرُ شغلاً مِنكَ، يا مُفتي القَضاء
وبهذا السُكْرِ أصْحى مِنكَ، عِندَ العُقَلاء
كم شَربتُم دَمَ قومٍ، وشَربنا دَم كَرْمِ
فأَجِبْني. أيُّنا أنكرُ شُرباً للدِماء؟!

-٣٤- ﴿ ﴾

قال شَيخٌ لِبَغيّ: أنتِ ذي سَكرى، فَسُحقا
كُلُّ آنٍ لكِ غاوٍ في أحابيلكِ مُلْقى
فأجابَت: أنا يا شيخُ كما تَحكي وأشْقى
فأجِبني عَنكَ، هَلْ أنتَ كما تظهَرُ حقا؟!

-٣٥-

إنَّ شُربِ الخَمرِ والصَبوةَ بالغيدِ الحِسانِ
كانَ خَيراً مِن تعاطي الزُهْد زوراً باللِّسانِ
إنْ تَكُن عاقِبة السكّير في نارِ الأبَد
فَلَعمري لَنْ يَرى الجنّة مِ الناسِ أحد!

-٣٦-

إنَّني أَفخَرُ بالحانِ، فأهلُ الحانِ أهلُ!
ولدى الإنصاف حتّى سوؤها حلوٌ وسهلُ!
إنَّ دورَالعِلْمِ لَم تُنجِب حَكيماً ذا أصاله!
فأهدموا هذي الزَوايا، إنَّها دور الجَهاله!

-٣٧-

إنَّ قوماً لَزموا المِحراب عمراً لَحمير
فَلَقد ناءوا بأوساقِ رياءٍ وغرور
وعجيبٌ أَنَّهم تَحتَ سِتار الزُّهْدِ باعوا
دينَهم بَيْعاً، فهم أنكَر مِن كُلِّ كَفورا

-٣٨-

كُن حِماراً بين جُهّالٍ رَأوا بالحذْلَقه
إنَّهم في الأرضِ أهْلُ العِلمِ طُرَّاً والثِقه
كَم تَجَنّوا مِن حماريَّتهم وإتَّهموا
كُلَّ مَن ليسَ حِماراً مِثلَهم بالزَنْدَقه!

٣

ثورة على الدين

-٣٩-

قيلَ أنَّ الشارِبَ الخمرَ إلى النار يصيرُ
قالةٌ لا يَركنُ القلبُ إليها، فهيَ زورُ!
إنْ يَكُن مُنقَلبِ الشارِب والعاشِقِ نارا
فغَداً سوف نرى الجَنّةِ كالراحِ [١] قِفارا!

-٤٠-

قيلَ في الجنّة خرز قاصِرات الطَّرْفِ عِين
وخمورٌ جارياتٌ في نهورٍ وعيون
أَيُّ ضَيْرٍ إنْ طَلبنا الحورَ والخمرَ هُنا؟
إنَّ هذا هو عُقبى الأمرِ فيما يَذكرون!

-٤١-

قالَ مَن صارت لهُم في العِلم والتَقوى الإمامَة:
(يُحشَر المرءُ على ما كان إذْ لاقى حِمامَه)
فَلْنُلازِم ويحَكَ الحسناءَ دوماً والمُدامَة
فعسانا هكذا نُحشَرُ في يوم القيامة!

---

(١) جمع راحة. وهي باطن الكف.

-٤٢-

قيل لي: ما أطيبَ الجَنّاتِ بالحور الحِسان
بَيْدَ أنّي قلتُ: ما أطيَبَها بنت الدِنان!
فدَع القرض، عليكَ الآن بالنقد الوَكيد
يا صديقي، إنَّ صوت الطَبْل يَحلو من بعيد!

-٤٣-

يا فؤادي لَم يَرَ الجنَّةَ والنارَ بَشَر
أَمْ أتى مِن ذلِكَ العالَمُ آتٍ بِخَبر؟
إنَّ ما نَخشى وما نَرجو منوطانِ بشيءٍ
ليسَ يَبدو مِنهُ إلّا إسْمٌ وَوصْفٌ للنظَر!

-٤٤-

آه، كَم أبني على الماءِ مِنَ الوَهْمِ قصورا؟
سَئِمَت نفسي أوْثاناً لَعَمري ودِيورا
أيها الخَيّام، مَن قالَ لنا ثَمَّ جَحيم؟
مَن تَولَّى في جَحيمٍ أو تَدَلّى من نَعيمْ؟

-٤٥-

كرّ بي الفِكْرُ إلى أوَّلِ يومٍ في الخَليقه
ناشِداً في اللوحِ والجنّة والنار الحقيقه
وإذا العَقلُ يُنادي قائلاً: ما أضيَعَك
وَيْكَ إنَّ اللوحَ والجنَّة والنار مَعك!

-٤٦-

إكرِع الراحَ، فإن صرتَ تُرابا في الترابِ
صارَ مثواكَ تُراباً لكؤوسٍ وخَوابي!
دَع حديث النارِ والجنَّةَ وأفرَغ مِنهُما
لِمَ يَغتَرُّ بشيءٍ مثلُ هذا ذو صوابِ؟

-٤٧-

إهمِل السُـنَّةَ والفَرْض ونصَّ الشارِعِ
وأبذِل اللُّقمَةَ لا تَبخَل بها عَن جائِعِ
ثم لا تؤذِ عباد الله أو تَغْتَب جَليسا
وأَنا الضَّامِنُ بالأُخرى.. فهاتِ الخندَريسا!

-٤٨-

إخدِمَنْ كُلَّ خَليعٍ ماجِنٍ في النُدَماء
وإطَّرِح أعباءَ صومٍ وصلاةٍ ودُعاء
إسمَع الحَقَّ من الخَيّام، ما فيه مَراء:
إصنع المعروف.. وأحْسُ الخَمرَ وإطرِب بالغِناء!

-٤٩-

إسمَع العقلَ الذي يَبحثُ في سُبْل السَعاده
إنّهُ يُنبيكَ ألفاً كُلَّ يومٍ، وزيادة:
أنَّ إبَّانَكَ هذا العُمر، لا عمرَ سواه
لَستَ بالكرّاثِ يَنمو بعد إنْ أنهوا حَصاده!

-٥٠-

قُل لهُم يأتوكَ بالخمرَةِ كالوردِ الجَنِيّ
قبل أن تَدهَمكَ الأشجانُ في الليلِ الدَجيّ
أَيَهذا الغافِلُ الجاهِلُ، ما أنتَ نَضارٌ
فيُواروهُ الثَرى كَي ينشروهُ بعدَ طَيّ

-٥١-

دونَكَ الكأسِ، فَفي اللَّحْدِ ستُلقى مُفردا
مفرداً، دونَ أنيسٍ أو قريبٍ، أوخَليل
هاكَهُ سِرّاً مَصوناً، لا تذِعْهُ أبدا:
أبداً لا تُزهِرُ الوردة مِن بَعد الذبول!

-٥٢-

أيُّها الناتِجُ مِن أربَعةٍ في ظِلّ سَبعه
وهوَ فيها دائِبُ الفِكرِ، أخو هَمٍ ولَوعَه
إشرب الخمرَ.. فقد قُلنا وقُلنا لكَ ألفا:
إنْ تَوَلَّيتَ تَوَلَّيتَ، فليسَت لكَ رَجعه!

-٥٣-

لي يَدٌ تأخُذُ بالمُصحَفِ والأخرى بجامي
وحياةٌ تتقضّى في حلالٍ وحَرام!
فأنا في الدهرِ لا النَيّء ولا الناضِجُ حَقا
لستُ بالكافرِ إطلاقاً، ولا المسلمُ صدقا!

-٥٤-

أسَفاً أنَّ يداً تأخُذُ جام الراحِ مَحْضا
كيدي تأخُذُ بالمنبَرِ والدفترِ أيضا!
أنتَ عفٌّ يابسٌ، لكنَّني غاوٍ نَدي
ولهيبُ النارِ لا يوري نَدياً يا أخي!

-٥٥-

يَزعَمُ اللوّامُ أَنّي فاسِقٌ حلفُ الخَنا
وأنا المظلومُ، فأنظُر للتظنّي ما جنى!
أنا يا أهل التُقى لَم أرتَكِب في الشرعِ إثما
طول عُمري، غيرُ كُفرانٍ وسُكْرِ وزِنا!..[1]

-٥٦- ﴿ ﴾

لا يَميزُ القلب بين الحُب في أشراكِ صائِد
فهُنا لهوَ الحُمَيّا، وهُنا تَقوى المساجِد!
بَيْدَ إنّا في هوى المحبوب والكأسُ المُصفّى
في الحوانيتِ هُنا أنضَجُ مِنّا في المعابد!

-٥٧-

لِيَ ذنبُ فادِحٌ يَكسرُ ظهرَ الدينِ كَسرا!
فاضِحٌ، يكسِرُ سوق العابِديْ الأصنامَ طُرّا!

---

(١) هَذَّبنا الشطر الرابع من هذه الرباعيّة كما ذكرنا في المقدمة.

باهِضٌ أخشى إذا ما وَزنوهُ يوم أفضى
مَرَّةً أن يكسر الميزان يوم الحشرِ أيضا!

-٥٨-

رُبَّ دروشٍ رأيتُ إقتَعدَ الأرضَ سنين
حادَ عن كُفرٍ وإسلامٍ ودينْ
وأشاحَ الوجه عن حَقٍّ، وشرعٍ ويقين
يا تُرى أجرَأ في الدارينِ مِنهُ مَن يكون؟

٤

ثورة على السماء

-٥٩-

أنتَ يا ربِّ خلقتَ الحُسنَ في هذا المُحَيّا
زِنتَهُ بالوردِ والرَيْحان، فتّاناً شَهيّا
قُلْتَ لا تنظُر إليهِ، مِثلَ قول المرءُ هَيّا
إقلِب الكأسَ ولكن. لا تُرِق مِنهُ الحُميّا!

-٦٠- ﴿ ﴾

نَثَر الحَبَّ على الأشراكِ صيّادُ الأزَل
فَحَوَت صَيداً دَعاهُ آدَماً جَد النِحَل
كُلَّ ما يَحدِثُ في العالَمِ من خيرٍ وشَر
فهوَ يأتيهِ؛ ويعتلُّ على الخلقِ العِلَل!

-٦١- ﴿ ﴾

رُبَّ مسكينٍ رموهُ في بوادي العِلَلِ
دَبَّروا مِن دونِهِ الخطَّةَ للمستقبلِ
إنَّهم يَختَلقون اليوم شَتّى حُجَجٍ
وغداً يَحدِثُ ما قَد بَيَّتوا من حِيَلْ؟

-٦٢-

ما بخورٌ الدير يُرجى، أو سراح المسجِدِ؟
وخَسار النارِ، أو ربح النعيمِ السرمدِ؟
أنظُر اللوحَ تجِد ثَمَّةَ أستاذ القَضا
خَطَّ فيهِ ما هو الكائنُ حتّى الأبد!

-٦٣-

وَيْلَتي، مُذ جَبَلوا في قالَب الخِلقَةَ طيني
كم أثاروا الشرَّ من هذا التراب المستكينِ؟
ليسَ في مَقدِرَتي أن أَغتَدي أفضلَ منّي
هكذا مِن مَصْهَر التكوين كانوا أَفرَغوني!

-٦٤-

عندما صَوّرنا البارئ من هذا التُراب
كان يدري ما سَنأتي من أثامٍ وصَواب
إنَّنا لَم نَجني ذَنباً ليسَ مِن تقديرِهِ
فَلِمَ التعذيب في النار إذن يومَ الحِساب؟

-٦٥-

قلمُ المقدارِ أجروهُ بأمري، دونَ أمري!
فلماذا ساءلوني مِنهُ عَن خيرٍ وشَرّ؟
ذهبَ الأمسُ بدوني، وأَتى اليوم بدوني
فغداً باللهِ ما حُجَّتهم إنْ حاسَبوني؟!

-٦٦-

سُطِّرَ الكائنُ من خَيرٍ وشَرّ وإنحَسَمْ
ولَقَد كَلَّ بما خَطَّ على اللوح القَلَمْ!
كُلُّ ما يَحدِثُ قَد قُدِّرَ مِن يوم القِدَم
فهباءٌ كُلَّ ما نُنفِقُ مِن سَعيٍ وهَم!

-٦٧-

أن أمر الحَي والميّتِ يا ربّي إليك
ولكَ الأفلاك لا يخرُج ما فيها عليك
إنني عبدُكَ مهما كنتُ مرذولاً، فقل لي:
أيَّ ذَنبٍ لإبنِ أُنثى هو من صُنعِ يَدَيك؟

-٦٨-

إنني يا رَبُّ عبدٌ مُذنِبٌ، أينَ رِضاؤُك؟
وفؤادي كالدَياجي مُظلِمٌ، أينَ ضياؤُك؟
وإذا أَعطيتَنا الجَنَّةَ بالطاعةِ مِنّا
كان هذا مِنكَ بَيْعاً، أينَ يا رَبّ عَطاؤك؟

-٦٩-

رَبِّ قُل لي، مَن هو المعصوم مِن إثمٍ وعيب؟
رَبِّ كيف إسطاعَ أن يَحيا إمرؤٌ مِن غيرِ ذَنب؟
أذا عبدٌ أصنعُ السوء، فتُجزيني بسوء؟
فإذن ما الفرقُ ما بيني وما بينَكَ ربّي؟!

-٧٠-

أنتَ يا رَبّي كريمٌ، أنتَ ذو لُطْفٍ وَمَنّ
فلِماذا تطرد العاصيَ عن جَنَّةِ عَدْنِ؟
ليسَ جوداً مِنكَ أن تُعْطِيَني عن حسَناتي
إنما جودكَ أن تؤتِيَني عن سَيئاتي!

-٧١-

وكأيٍّ مِن نديمٍ كانَ حُر النَفسِ أهلا
كان مثلي شُربُه الراحَ بعين العقلِ سَهلا!
عَلِمِء الله بشُربي هذهِ الصَهباء، قُدما
فإذا لم أحسُها لم يِكُ عِلم الله علما

-٧٢-

قُل لمَن هانَ عليهِ الذنْبُ لا يخشى مآله
هذه النُكتَةَ إن كانَ أريباً ذا أصاله:
جعلوا عِلَّةَ كُلَّ الذَنبِ علماً أزليا
إنَّ هذا عند أربابِ النُهى عينُ الجَهاله!

-٧٣-

زَيَّنَ الصانعُ تركيبَ طباعِ البشرِ
فلماذا شانَها بالنَّقْصِ أو بالوضَرِ؟
إن تَكُن جاءت مِلاحاً، فلماذا خَرَّبها؟
أو تَكُن جاءت قِباحاً، فعلى مَن عَيْبُها؟!

-٧٤-

فيمَ يا خَيّام هذا الحُزن للذنبِ الكبير؟
والأسى ليسَ بمجدٍ في قليلٍ أو كثير؟
إنَّ مَن لَم يَجْنِ ذنباً لم يَكُن للعَفوِ أهلا!
ويكَ مِن أجل المعاصي كانَ غفران الغفور!

-٧٥- ﴿ ﴾

تعمرُ الحانَةُ مِمّا نحتسي فيها المُداما
وعَلينا دُمُ أَلَفَيْ توبةٍ بينَ الندامى!
ما جَدا الرحمةَ إنْ لَم أقتَرِف إثماً جِساما؟
زينةُ الرحمةِ مِمّا نجتني نحن الأثاما!

-٧٦- ﴿ ﴾

أنا لم أقنط مع العِصيان والجرم العظيم
من رجاء الخالِق الغافِر والرَبّ الرحيم
إنْ رقدتُ اليومَ سَكرانَ صريعاً، خَرِبا
فغداً يغفِرُ كُلَّ الذنب للعظمِ الرميم!

-٧٧-

قيلَ لي: ثَمَّ حِسابٌ وعقابٌ يوم حَشْرِ
يومَ يشتَدُّ الحبيب المُرتَجى في كُلِّ أمرِ
ليسَ عند الخَيِّرِ المَحْضِ سوى الخير لَعَمري
فإغتَبِط وَيْكَ فعُقبى الأمرِ ليسَت غير خيرِ

-٧٨-

يا إلاهي، أنا مَن قَد بَرَّأتْني قُدرتُك
وترعرتُ عزيزاً، دَلَّلتْني نِعمَتُك
سوفَ أمضي في المعاصي جاهداً سبعينَ عاماً
لِأَرى مَعصِيَتي أوسَعُ أم مَغفرتك!

-٧٩-

قلتَ لي: إنّي لَمُصليكَ سعيراً يا لعين
خبرٌ ما أزدَدْتُ خَوْفاً مِنهُ بينَ المُذنبين
فلَعَمري لا عذابٌ في مكانٍ أنتَ فيه
ومكانٌ لستَ فيهِ أينَ يا رَبِّ يكون؟

-٨٠-

إنَّ في المسجدِ والبَيعَةِ مِن شتّى العِبادِ
مَن يَخافُ النارَ أو يَرجو نعيماً في المَعادِ
بَيْدَ أنَّ العارفين اللهَ عِرفانَ سَدادِ
أبداً لَم يزرعوا بذراً كهذا في الفؤادِ!

-٨١-

هامَ قومٌ بجِزافٍ فثَنوا للُجْبِ جبدا
ومَضَت طائِفةٌ تَطلبُ حوراً وخلودا
لو أُميطَ السترُ يوماً لتبدّى أنَّهُم
وقعوا مِنكَ بعيداً، وبعيداً، وبعيدا..

-٨٢-

إنَّ مَن هُمْ صفوَة الدُنيا وأعلام الوَرى
ببراقِ الفِكْرِ يطوون الثُريّا والثرى
كلَّهم في فهمِهِم ذاتك مثل الفلَكِ
مُستهامون حَيارى، خَبطوا في حَلَكِ

-٨٣- ﴿ ﴾

لو درى القَلبُ على التحقيقِ أسرار الحياة
لدَرى سِر الألوهيّة أيضاً في الممات
إنَّكَ اليوم مَع النفس ولا تَدري بأمرِ
فغداً باللهِ إنْ فارَقْتها ماذا ستَدري؟

-٨٤- ﴿ ﴾

قالَ لي القلبُ: هوى العِلم اللدنيُّ بنفسي
فإذا أوتيتَ حظاً مِنهُ فأنفَعْني بِدَرْسِ
قلتُ: فأسمَع، أَلِفْ، قالَ: تَمَهَّل وَيْكَ يَكفي
إنْ يَكُن في الدارِ مَن يُسْمى فحسبي فردُ حَرفِ!

-٨٥- ﴿ ﴾

هذه الأجرامُ في إيوانِها العالي المكين
حَيَّرت أسرارُها أهل العقول الباحِثين
لا تُضَيّع رأسَ خيطِ العقلِ، وأعلَم أنَّ مَن
عندهَم تدبيرِ هذا الكَوْن صَرعى ذاهِلون!

٥

ثورة على الدهر والأفلاك

﴿ ﴾ -٨٦-

يا زماناً بأفاعيلِ يَدَيهِ يعتَرِف
وهوَ في زاوية الجور مُقيمٌ مُعتكِف
تَسبَغ الفَضْلَ على الوَغدِ وتُؤذي مَن أنِف
أنتَ لا تَخلو مِن إثنينِ: حِمارٍ أو خَرِف!

-٨٧-

لستُ في نهجِكَ يا دَهرُ براضٍ أو سعيدْ
فُكَّ عنّي القيدَ، ما مِثلي خليقٌ بالقيودْ
إن يَكُن مَيلُكَ يا دَهرُ مع الدون البَليدْ
فأنا لستُ بذاك الباذِخُ القدرَ الرشيد!

-٨٨-

فَلكَ النقمَةَ، تؤتي النَّذْلَ ما عَزَّ وجَلّا
فَلَهُ الحَمّام، والطاحون، والقصرَ المُعَلّى
بينما يَرهَنُ حُرٌّ ثَوْبَه في قوتِ يومٍ
فَلَكٌ مِثلُكَ أولى هَدمَه علْواً وسِفْلا؛

-٨٩-

آه لَوْ كُنتُ على الأفلاكِ رَبّاً في سمائي
لَمَحوْتُ الآن هذا الفَلَك الضَّخمَ البناءِ
ولأَنشأتُ بنفسي مِن جديدٍ فَلَكاً
يدرِكُ الأحرارُ فيهِ ما إشتَهوا، دون عَناء!

-٩٠-

إنَّ فعل الخيرِ والشَرِّ لَفي طَبْع البشَر
وأرى الأفرحَ والأتراحَ مِن فِعل القدَر
لا تُحِل شيئاً على الأفلاك قد أكبرتَ أمره
فهي أشقى في طريقِ العقلِ منكُم ألفَ مرّه

-٩١-

قالَ لي في أُذن قلبي الفَلَك الدوّار هَمسا:
أتظنَّ الحُكْم حُكمي في الوَرى سعداً ونَحسا؟
أنا لو كانَ بأمري دَوَراني في مَداري
لَأرحْتُ الآنَ نفسي من هِيامي ودُواري!

٦

هل مِن مُنازِل؟ (ألغاز الوجود)

- ٩٢ -

جاءَ بي في البِدءِ مُضطرّاً إلى دُنيا الترابِ
حائِراً ما إزدَدْتُ فيها غير جهلٍ واضطرابِ
ثُمَّ وَلَّيْتُ برَغْمي.. غيرُ دارٍ في إيابي
لِمَ قد كانَ مَجيئي، ومقامي، وذِهابي!

- ٩٣ -

ما أفادَ الفَلَكُ الدَّوارُ رِبحاً من حَياتي؟
لا ولا زادَ جَمالاً أو جَلالاً بوَفاتي!
أنا لَم أسمَع مدى عُمريَ في دارِ الشَتات
ما هوَ المقصودُ فيها مِن حياتي ومماتي؟

- ٩٤ -

ومَدارٌ فيه جِئنا وذَهبْنا نَتقلَّبْ
خَفِيَ الأوَّلُ والأخرُ مِنهُ وتَحَجَّبْ
أَفَما مِن فَطِنٍ يأتي برأيٍ صائبٍ
مُنْبِئاً مِن أينَ جِئنا، وإلى أينَ سَنذهَب؟

- ٩٥ -

بَلْقَعٌ يولَدُ فيهِ وَجَلٌ أو خطَرُ

لَم يَزِدْني فيهِ إلّا حيرَةً ما أنظرُ
ليسَ معلوماً إلى أينَ ومِن أينَ نرى
فيهِ رَكباً يَتوارى وسِواهُ يَظهرُ

-٩٦-

ويحَ قلبي ضاع رأسُ المالِ من أيدي الأمَلْ
ولَكَمْ أَدمَت مِن الأكبادِ أظفار الأجَلْ
لَم يَجئ من ذلِك العالَمِ مَن أسألُهُ:
كيفَ صارت حالُ مَن أمسى مِن الدُنْيا إرتَحَلْ؟

-٩٧-

إنَّما حَظّك يا قَلبُ جِراحٌ وضَنى
كُلَّ يومٍ لكَ حالٌ بَعدَ حالٍ تتحوَّل
ولماذا أنتَ يا روحَ حَلَلْتَ البَدَنا بُرهةً
ما دُمتَ في عاقِبةِ الأمرِ سترحَل؟

-٩٨-

قطرَةٌ كانت من الماءِ إلى البحرِ مَضَتْ
ذرَّةٌ كانت مِن الأرضِ إلى الأرضِ إنتَهتْ
فأجِبْني، جِئتَ هذا الكَوْن مِن جَرّاء؟ ماذا؟
بَقّةٌ جاءَت فطَنَّتْ، ظهرِت ثمَّ إختفَت!

-٩٩-

أنا إنْ كُنتُ فريدَ الحُسْنِ، مَوفور الشبابِ
وردةٌ خَدّي، وسِرْواً قامَتي، غَضَّاً إهابي
فلماذا ليتَ شِعري زانَ خَلْقي وإعتَنى بِيْ
مُذ جَلاني الصانِعُ السرمَدُ في مَلهى التُراب؟

-١٠٠-

هوَ جامٌ أُعجِبَ العقلُ بِهِ حتّى تَدَلَّه
ولَقَد قَبَّلَهُ مِن كَلَفٍ سَبعينَ قُبْله!
يا لَخَزّاف القَضا، يُبدِعُ جاماً مثل هذا
وتَراهُ يضربُ الأرضَ بهِ مِن غير عِلّه!

-١٠١-

هيَ كأسٌ حَسُنَت صُنعاً، فما أرشَقَها!
يا تُرى هَل يَملِكُ السكرانُ أن يَسحقَها؟
كَم خُدودٌ لغَواني، ونهودٌ، وقدود
حُبّ مَن ألَّفَها، أو حِقدُ مَن مَزَّقها؟

-١٠٢-

رُبَّ طاسٍ ذَهَبيٍّ - كيفَ أسرى في البدايه؟
وأساسٍ مُحكَمٍ كيفَ سيَهوي في النهايه؟
ذاكَ سِرٌّ ليسَ يُدرى بقياسٍ وعِنايه
لا ولا يوزَنُ في ميزانِ عقلٍ ودرايه

٧

ثورة على العقل

-١٠٣-

ليسَ هذا الفَلك الجاري الذي فيه أختلَفْنا
غير فانوسَ خَيالٍ، شَبَهاً مِنهُ عرفنا
هو فانوسٌ كأنَّ الشمسَ مِصباحُ له
وكأنّا خَرَزٌ فيهِ! أَتَيْنا وإنصرفْنا!

-١٠٤- ❖

لا تَسَل ما ذلِكَ النقشُ المجازيُّ العَجَبْ
إن أقُل ما هوَ، طالَ الشَرْحُ فيهِ وإنشَعَب
هوَ نقشٌ جاءَ من أعماقِ بَحرٍ فبدا
وإلى أعماقِ ذاكَ البَحرِ وَلّى فإحْتَجَبْ!

-١٠٥- ❖

إنَّهُ بحرُ وجودٍ جاءَ مِن طَي الخَفاء
دُرَّةٌ للبحثِ لم تُثقَب بِعلْمٍ أو ذكاء
كلّهُم جاءَ بِقولٍ مِن تَظَنٍّ ومَراء
غير إنَّ الحَقَ لَم يَظهَر عَليهِ إبنُ فَناء

-١٠٦- ❖

لَم يُتَحْ قَطُّ لإنسِ حل أسرار الأزَلْ

أوخروجٌ عن حدود الطبع شبراً، أو أقَلْ
أُنظر الناسَ من الأستاذ حتّى المُبتَدي
لَن تَجِد عندَ إبنِ أنثى غيرَ عَجْزٍ باليدِ!

-١٠٧-

أَيْكةُ التحقيقِ لَم تُثمِر بأرضٍ أو زمان
ذاكَ ألّا كُفءَ في غَمرَةِ هذا المَعمَعان
كُلُّهم هَزَّ بغصن العَجزِ غُصنَ الأمَلِ
فأفرض اليومَ كأمسٍ، وغَداً كالأزَل!

-١٠٨-

لا انا الداري ولا أنتَ بأسرار الأزَلْ
لا أنا القاري ولا أنتَ المُعمّى قد عضَلْ
إنَّ ما أَحكي وما تَحكي لِمَن خَلفَ سِتارٍ
لا أنا الباقي ولا أنتَ إذا السِترُ زُحَلْ!

-١٠٩-

إنَّ مَن صاروا محيط العلمِ بين العالمين
وغَدوا في الفضلِ مصباح الهُدى للمُهتَدين
لم يَشُقّوا لِدُجى الشَكِّ طريقاً لِيَقين
إنَّما قصّوا أساطيرَ، وناموا بعد حين!

-١١٠-

رُبَّ جُهّالٍ قُدامى ثَقبوا دُر المعاني
قد هَذُوا في الفَلَكِ الجاري ضروب الهذيانِ
ثُمَّ لمّا عَجزوا عن دَرْكِ أسرار الحياة
أطرقوا بالذقْنِ حيناً، ثُمَّ غَطّوا في السُباتِ!

-١١١-

يا لِرَهْطٍ طَوَّفوا الأرضَ وجابوا الخافقَيْن
ذَرَعوا في طلَبِ الدُنيا فِجاج الدنْيَوَيْن
لستُ أدري، أتُراهُم بعدَ هذا كلَّهُ
عَرفوا شيئاً من الحقِّ بإحدى الحالَتَيْن!

-١١٢- ❊

حارَ قَوْمٌ بينَ شَكٍّ ويقينٍ، يا صديقُ
وأطالَ الفِكْر في المذهَبِ والدينِ فَريقُ
أنا أخشى أن يُنادى ذاتَ يومٍ: أَنْ أفيقوا
أيهاالجُهّال، لا هذا ولا ذاكَ الطريقُ!

-١١٣-

يا لأسْرى العقل والتَّمييزِ، كَم أضواهُم الغَمْ!
في هَوى الموجود والمعدوم لاقوا أُمَّ قَشعَم!
فأطلُبْ الجهلَ وعاقِر بنتَ عنقودٍ، فكم كم
عالِمٌ صارَ زبيباً وهوَ لمّا يَتَحصرَم

-١١٤-

هؤلاء المُنفِقون العمرَ في عَقلٍ وفِكْرِ
عَبثاً هيهات أن يَحتَلِبوا ضرعاً لثورِ !
كانَ أَوْلى لَهُمُ أنْ يَرتَدوا بِزَّةَ جهلِ
فَلَعَمري ما يُباع اليومُ كراثٌ بعقلِ؛

-١١٥-

يا فتىً مِن صَوْلجان الدَّهْرِ كالأَكْرةِ يَجري
سِر شِمالاً ويميناً، ثُمَّ لا تَنطِقْ بأمْرِ
إنَّ مَن ألقاكَ في المحنَةِ مِن كَرٍّ وفَرِّ
هوَ يَدري، وهوَ يدري، وهوَ يدري، وهوَ يدري!

-١١٦-

إنَّ قلبي أبداً لَم يُحرَم العِلْمَ لَعمري
وقليلٌ ما إختَفى عَنِّيَ مِن مَكنونِ سِرّ
بَيْدَ أنّي اليوم في السَبيعن إذْ راجتُ فِكري
صِرتُ أدري كيفَ أنّي أبداً ما كُنتُ أدري!

-١١٧-

أطلب الجهلَ، أخا العَقلِ، وعِشْ في جَذَلِ
وإشرَب الخمرةً مِن أيْدي سُكارى الأزَلِ
أيهاالجاهِلُ، ليس الجهلُ فنّاً لكَ مُلقى
إن مَن لا يُدرك الجهْلَ هوَ الجاهِلُ حَقاً!

٨

الموت في الميدان (فناءُ البقاء)

-١١٨-

ذهبَ الأحبابُ طُراً مِن خَليلٍ وجَليس
مُذْ تَراموا تَحتَ أقدام المَنايا في الرموس
مَجلس العُمرِ سَقانا من شرابٍ واحدِ
فإذا السَّكْرَةَ تَغرُو الصَحْبَ قبلي بكؤوس؛

-١١٩-

يا قبوراً صارَ أهلوها صعيداً في الصعيد
وتجافَوْا ذَرَّةً عن ذَرَّةٍ تحتَ اللحود
أَيُّ جامٍ ذا الذي لَم يفرغوا مِن شربِهِ!
فإذا هُم ذُهِلوا عن كُلِّ شيءٍ في الوجود؟

-١٢٠-

خَبّروني؛ أينَ محصول مَجيئي وذهابي؟
وشِباكٌ نُسِجَت من خيطِ عُمري ورِغابي؟
كم نحورٍ، وخمورٍ وشعورٍ للحِسانْ
أحرقَ الدَّهْرُ فصارَت عَدَماً، أينَ الدُخان؟

-١٢١-*

أيُّها العَينُ أنظري الأجداثَ إنْ كُنتِ ترين

وأنظري الآفات في الدُنيا مَلأْنَ الخافقين
كَم رجالاً ضَمّت الأرضُ ملوكاً ورعايا
ووجوهٍ أَكَلَ النَّملُ كأقمارِ اللُّجَيْن

-١٢٢-

المولّون القُدامى والحديثون الجُدَد
رَكضوا خَلفَ الأمانيّ قليلاً أيُّ ركض
إنَّهُ كَوْنٌ قديمٌ ليسَ يبقى لأحَد
قد أَتَيْنا وسنمضي، وسيأتي مَن سيمضي!

-١٢٣-

في ذُرى قلعة طوسٍ بَصَرَت عَيْني بطيرِ
يترَوّى قِحفَ (كيكاووسَ) طَوراً بعد طورِ
ويُناجيهِ حزيناً: لَهْف عُمري، لَهْفَ عُمري
أَينَ أجراسٍ وأطبالٍ تُدَوّي، لَيتَ شِعري؟

-١٢١-

يا لَجمشيدَ وقَصرٍ كان فيهِ يشرَبُ
وَلَدَت فيهِ ظباءٌ، واستَكَنَّ الثعلَبُ
يا لِبَهرامَ الذي كانَ يصيد العِيرَ عُمراً
أَرَأيتَ القبرَ كيفَ إصطادهُ لا يَرهَبُ؟

-١٢٥-

رُبَّ قصرٍ زخَمَ الأفلاكَ يوماً مَنكباه

وملوكاً عَفَّرَت حُرَّ النَواصي في ثَراه
وَقَعَت عَيني على فاخِتةٍ فوقَ ذراه
قَعَدت تَندِب أَهلِيهِ وتَنعى مَن بَناه

-١٢٦-

إنَّما التدميرُ مِن حِقدِكَ يا هذا الفَلَك
والأذى والجورُ دَأْبٌ مِن قديمٍ كانَ لك!
أسفاً يا أرضُ، لو يُفتَحُ عن صدرِكِ يوماً
فَلَكم مِن جَوْهَرٍ فيه نفيسٍ قد سَلَك

-١٢٧-

أيُّها المَفتون بالدُنيا، أَلا كَفكِفْ جَواك
أفلا فَكَّرْتَ في صرفِ الليالي إنْ دَهاك ؟
إدَّكِر آخرَ أنفاسِكَ، واسْتَجمِع نُهاك
وتأمَّل ما أفاعيلُ الليالي بِسواك!

-١٢٨-

كانَ مِن قَبلكَ في الدُنيا رجالٌ ونِساءُ
زَيَّنوا الآفاقَ، كالأنجُمِ لاحوا وأضاءوا
سوفَ يغدو جسمُكَ المُختالُ طيناً، فهوَ طين
كانَ جِسماً لألوف الناسِ مِن قَبلك جاءوا!

-١٢٩-

كان من قَبلي ومِن قَبلُكَ ليلٌ ونهار
ونجومٌ زاهراتٌ في السَموات تُدار
فأعتَبِر وأمشِ على الأرض رويداً،
حينَ تمشي إنَّما موطئ نَعلَيْكَ لَعينٌ أو عذار!

-١٣٠-

نحن إمّا إرتحل الروحُ غداً عن جسَدَينا
رَكَزوا آجُرَّتَيْ طينٍ برأسَيْ مَرقَدَيْنا
فإذا هُم طَلبوا آجُرَّ لَحْدٍ لِسوانا
سَكبوا الصِلصالَ في القالبِ من حافرتَيْنا!

-١٣١- ❋

كَم إلى كَم يتصَبّاكَ هوى لونٍ وريح؟
وإلى كَم تَقتَفي كُلَّ جَميلٍ وقَبيح؟
إن تَكَن ماء حياة الخُلْد أو ينبوع زَمزَم
فستمضي غائراً في الأرض يوماً، فكأنْ لَم

-١٣٢- ❋

أَفَتدري ما يُريد الديكُ فجراً بالصياحِ؟
وهوَ لا ينفَكُّ يَزقو في صَريخٍ ونواحِ؟
هو يعني: عَرضوا في لوحِ مرآة الصَباح
أنَّ يوماً ماتَ مِن عُمرك إذْ لستَ بصاحي؛

-١٣٣- ❋

كُنتَ لا تحتاجَ نوماً وطعاماً ودعَه
ثقبلَ أن يَحْوجَهُنَّ الشُركاء الأربعه
كُلُّها يأخذُ ما أعطاكَ يوماً عن سِعَه
فستَغدو كالذي كُنتَ مَتى ما أ ستَرجَعه

-١٣٤-

وَيحَ أرضٍ قَطُّ لا تَشبَعُ مِن أكل الورى!
وسَماءٍ قَطُّ لا تَسمَعُ أمراً للفَتى
إنَّما غَرَّكَ أن الأرضَ لم تأكُلْكَ، فأصبِر
لا تُعَجِّل، ستوافيكَ، فما فاتَ المَدى!

-١٣٥-

إنَّ مَن جاءوا وفاروا في شؤونٍ وشجون
مُستهامين بدلٍّ، أو بخَمرٍ منتشين
شَربوا كأساً فضجّوا، وتهاووا ذاهلين
وهُمُ معتنقون اليوم في نومِ المنون؛

-١٣٦-

إنَّني أُلفي على فرشِ الترابِ النائمين
وأرى تحتَ طِباق الأرض رَهط المُختَفين
كلّما سرَّحتُ طَرفي في مفازات المنون
بَصَرت عَيني بِمَن لم يَقدِموا والراحلين!

-١٣٧-

طالما طُفنا بعمرانٍ وشاهَدنا يَبابا
وسَلَكنا في فِجاج الأرضِ غوراً وهِضابا
لَم نَجِد مَن عادَ من هذا الطريق المترامي
سَكَّهُ مَن سارَ فيها لَم يَجِد منها مآبا!

-١٣٨-

رُبَّ طاسٍ جَوَّدوا المنعة فيه ماهرين
حَطَّموهُ ورَموهُ في طريق العابرين
فأحذَروا لا تَطَأوهُ إن مَشَيْتُم، سادرين
فلَقد صاغوهُ مِن طاسِ رؤوس الغابرين!

*-١٣٩-

إنَّني حطَّمتُ دِناً للحُمَيّا موهِنا
ثَمِلاً كنتُ فكانَ الفِعلُ منّي أرعَنا!
فسَمِعتُ الدِنَّ يشكو قائلاً: يا إبْنَ الفَنا
إننا مِثلُكَ كُنّا، وستَغدو مِثلَنا؛

-١٤٠-

كان هذا الكوزَ مِثلي، عاشقاً جِدُّ كَئيب
سَحرَتْهُ طُرَّة المحبوب بالحُسنِ العَجيب
وتأمَّل عروةً في جيدِهِ مونقَةً
فلقَد كانَ ذِراعاً طَوَّقت جيد الحبيب!

*-١٤١-

رُبَّ كوزٍ يشرب الماءَ بهِ كُلّ أجيرِ
صَنعوهُ من مآقي المَلْكِ أو قَلب الوزيرِ
كُلّ جامٍ في يدِ المخمور قد صاغوه مِن
عارِضَيْ سَكران أو ثغرِ حَصَانٍ في الخدورِ

-١٤٢-

إنَّني إبتَعْتُ من الكَوّازِ كوزاً ذاتَ مرَّه
فحكى لِيْ الكوزُ ما لاقى، وأفشى لِيَ سِرَّه
قال: إنّي كُنتُ سُلطاناً من العَسجَدِ جامي
وغَدَوْتُ الآن للخَمّارِ يا وَيْلِيَ جَرّه!

-١٤٣-

نابَني في معمل الكوّاز فِكْرٌ في الأمور
ها هُنا الأستاذ يَجثو عندَ دولابٍ يَدور
مُنشِئاً للكوزِ رأساً ويَداً - يا لَلجَسور
مِن مُحيا مَلِكٍ أو كفِّ شَحّاذٍ فقير!

-١٤٤-

أنظروا الكوّاز في مَعملِهِ عَن كَثَبِ
مُبدِعاً من طينِهِ كُلَّ طريفٍ مُعْجِبِ
كُلّما أبصرتُ كوزاً - وإن كانَ الغبي
لا يَرى شَيئاً أرى في كَفّهِ طينَ أبي!

-١٤٥-

لاحَ لي في مَصنع الخَزّاف إذْ جِئتُ أراه
ألذ كوزٍ، ناطقٍ أو صامتٍ أطبَق شِفاه
سَألتْني إذْ رأتْني بِلسان الحالِ: مَن
بائعُ الكوزِ، وشاريهِ، وكوّازٌ بَراه؟

-١٤٦-

ولقد شاهدْتُ خَزّافاً ذؤوباً لا يَني
يركلُ الطينَ على الدكَّةِ كالمتهَنِ!
وإذا بالطينِ يشكو بِلُغاهُ قائلاً:
كُنتُ يوماً مثلُكَ اليومَ، فأسجِح وأرعني؛

-١٤٧-

شفتُ في بعضِ المَباني رجلاً فرداً حقيرا
يركلُ الطينَ برجلَيْهِ إمتهاناً وغرورا
فسَمِعتُ الطين نادى بلسانِ الحال: مَهلا
أنتَ أيضاً ستُقاسي مِثليَ الرَّكْلَ كثيرا!

-١٤٨-

أيُّها الكَوّاز، أمْسِك وأرتَدِع إن كُنتَ تفهَم
كَم إلى كَم تَزدري طين الوَرى لا تتأثَّم؟
أنتَ في الدولابِ تُلْقي كَفَّ كيخسرو المُعَظَّم!
وأساريرَ فَرَيْدونَ، فماذا تتوهَّم؟

-١٤٩-

ويح خَزّافين بالطينِلهُم حِذْقُ مُبين
فَلْيُطيلوا الفِكرَ فيهِ، عَلَّهُم يذَّكرون
كَم أهانوهُ بِصَفْعٍ وبلَكْمٍ غافلين
إنَّهُ تُربة أجسادٍ، فماذا يَحسبون؟

-١٥٠- ﴿ ﴾

قِف تَأَمَّل في تُرابٍ تَحتَ رِجل الحَيَوانِ
كانَ أطراف الأَحِبَّاءَ وأعطاف الغَواني
كُلُّ آجُرَّةَ طينٍ في ذُرى هذي القصورِ
لَهْيَ كَفٌّ لمَليكٍ، أو جبينٌ لوزيرِ

-١٥١- ❋

صاحِ ما مِن ذرَّةٍ في الأرضِ مِن شَرقٍ وغَرب
لم تَكُن طَلعةُ محبوبٍ سَبَت مُهجَة صَبّ!
فَتَرَفَّق بالثَرى تنفضَه عن خَدِّ حُبِّ
فهو أيضاً كانَ خَدَّاً لِحبيبٍ كانَ يَسبي!

-١٥٢- ﴿ ﴾

يا لِزهْرٍ مونِقٍ رفّ على شطء الغَديرِ
أَتُراهُ قد نَما فوقَ خدودٍ وثغورِ؟
فَتيقَّظ، لا تَطأهُ بإحتقارٍ وغُرورِ
فَلقد أينَعَ مِن تربَةِ وجهٍ كالزهرر

-١٥٣-

كُلّما شاهدتَ في البَطحاءِ أزهارَ الشَقائق
فَتذكّر أنَّها قد نَبتَت مِن دَمِ عاشِق!
وتأمَّل هذهِ الزهرةُ من هذا البنفسَج
فهيَ خالٌ كانَ في خدٍّ مَليحٍ يتوهَّج!

-١٥٤-

أنظر الوردةَ فَكَّت جَيبَها ريحُ الصَبا
فإنتشى البلبلُ وجداً، وتغنّى طَرَبا
إجلِس الآنَ إلى الوَردِ، فَكم مِن مَرَّةٍ
خَرجَ الوردُ مِن الأرضِ وفيها إحتَجَبا!

-١٥٥-

وردة قَصَّت حديثاً للصَبا وإنتفضَتْ
نَضَت الثَوبَ صباحاً، ثُم مالَت فقَضَت!
يا لَغدْر الدَّهرِ، في عِشْرةِ أيامٍ قِصار
بُرعماً صارَت، فصارَت وردةٌ، ثُمَّ مَضت!

-١٥٦-

تَبَّت الأفلاكُ، لَم تُخرِج مِن الأرضَيْنِ زَهره
مَرَّةً إلّا ووارَتْها الثَرى ثانيَ مَرّه!
لو أقَلَّت بَدل الماء الثَرى تِلكَ الغَمامه
أَمطرَت مِن دَمِ أحبابٍ إلى يوم القيامه!

-١٥٧-

كم سَتبقى بعدنا الدُنيا ونبلى في اللحودْ
حينَ يعفو الرسم والأسماء مِنّا والعهودْ
لَم نَكُن قَبلُ فما كانَ إخْتِلالٌ في الدُنى
وسَنمضى وسَيبقى كالَّذي كان الوجودْ!

-١٥٨-

قَد حَلَلْنا مُعضِلات الكون طُرَّاً للمِلَل
مِن حضيضِ الأرضِ تالله إلى أوج زُحَل
وَوثبنا مِن أحابيلَ خُداعٍ وحِيَل
فنفضَحْنا كُلَّ سِرٍ، ما عَدا سِرَّ الأجَلْ

٩

فشل الثورة (مآسى الحياة)

- ١٥٩ -

غَبرَت دُنيا شَبابي، وانطوَت طَي الكتابِ
فتبدَّلْتُ شتاءً مِن ربيعٍ مُستَطابِ
وَيْحَ طيرٍ غَرِدٍ كان يُسمّى بالشبابِ
لا أرى كيفَ أتى أو كيفَ وَلّى، يا صحابي!

- ١٦٠ -

حَنَت الأيامُ عودي، ورَمَتني مِن عَلاءِ
وتَردَّتْ بِي أموري، ومضى عنّي مَضَائي!
قُلتُ لمّا أزمعَ الروحُ رَحيلاً: قَد تَولّى!
قالَ: إنَّ الدارَ تَنهارُ، فَقُل لي ما بَقائي؟

- ١٦١ -

ويحَ عمري، كُلّه إخفاقٌ سَعيٌ وضَجَر
أبداً يَنقُصُ فيهِ الصَفْوَ أو يَربو الكَدَر
! أحمدُ الله، فما من محنةٍ أحوَجَني
قُطُّ أن أطلُبَها مِن أَحدٍ بينَ البَشَر!

- ١٦٢ -

يا لَمَن أعطى ضَحوك الثغرِ للغيد الوَضاء

كيفَ أعطى داميَ القلبِ لِرَهط التُعساء
فإذا لم يؤتِنا البَهجةَ لم نأْسَ عَليها
قَد حَبانا ألفَ مأساةٍ، فأكثِر بالعَطاء!

- ١٦٣ -

هوَ عيشٌ يتولّى بعضُهُ في إثْرِ بَعضِ
فتأمَّل كَيفَ يمضي العُمر بالحُزْنِ المُمِضِّ!
إنَّني لم أعرف الغِبطَة والراحةَ عُمري
فَسلامٌ لحياةٍ هكذا تأتي وتمضي!

- ١٦٤ -

قد تَوَلَّت شَبكاً مِن سَمَكٍ آمالَ عمري
ومضى العيشُ كَما تَمضي سُدىً ليلةَ سُكْرِ!
وحياةٌ لحظةٌ مِنها تُساوي كُلَّ دهرِ
كَيفَ ضاعَت مِن يَدي في غيرِ شيءٍ، يا لَخُسري!

- ١٦٥ -

يا خَليلَيَّ تَعِبنا عَبَثاً حتّى بَلينا
ورَمانا مِنجلُ الدَّهرِ شَمالا ويمينا
لَهْفَ نفسي، لَهْفَ نفسي، لَم نِكُد نَفتحُ عَينا
في حَياةٍ لم تَكُن وُفْقَ المُنى حَتّى فَنينا!

- ١٦٦ -

كالعصافيرِ وَقعنا في أحابيل الزمانِ

مُتعَبي القَلبَ، حَيارى بَين أيدي الحدَثانِ
حولَنا دائرةٌ لا بابَ أوسطَ لها
لم نجِئ فيها ولَم نَذهب وِفاقاً للأماني!

-١٦٧-

إنَّ هذا الدهرُ لا يَجري كما نرجو ونَهوى
فَمِن التفكيرِ والسَعيِ نُرجّي أيَّ جدوى
قَد قَعدنا أبداً في حسَراتٍ آسفين
إننا جِئنا بِطاءً وسنَمضي مُسرعين

-١٦٨-

لَسْتَ تَدري لِمَ السَّرْوُ والسَوْسن سِيره
أبداً تمضغها الأفواهُ في كُلِّ عَشيره
فلهذا أَلْسنٌ عشرونَ، لكن صامتاتِ
ولذا أَلفُ يَدٍ ممدودةٍ، لكن قصيره!

-١٦٩-

لُعَبٌ نَحن بأيدي الفَلكِ اللاعبِ نجري
ليسَ هذا بِمَجازٍ، بَل هوَ الحَقُّ لَعُمري
ولَعِبنا بُرهةً في مَسرحِ الدهر الخِضَم
وأختَفَيْنا كُلُّنا في جوفِ صندوق العَدَم؛

-١٧٠-

ليتَ للراحةِ مَثوى يُبتَغى، أو مُستَقرَّا

أو لهذا الدَرْبُ مِن آخرهِ تُرْجى وتُدْرى
ثُمَّ ليتَ المَرءُ مِن بَعد دهورٍ داهراتٍ
يُرْتَجى كالعِشبِ أن يَنبتُ فوقَ الأرضِ أخرى

-١٧١-

إنها كالطاس مقلوباً هَوَت هذي السَماء
تَحتها خَرَّ ذَوو الأفهام، صَرعى تُعساء
أنظروا للحبِّ بينَ الدِنِّ والكأسِ، أنظروا
لشفاهٍ تَتلاقى، بينها تجري الدماء!

-١٧٢-

يا لقلبي المُستَهام المُتَداعي الخاسِرِ
ما صَحا المسكينِ مِن عِشقِ الحبيبِ الساحرِ
منذ أعطوني شَرابَ العِشْقِ يَوماً بيَدي
مَزجوا كأسي مزيجاً بدماءِ الكَبِدِ!

-١٧٣-

وحبيبٌ بالتَجافي لوَّعَ القلب العَليلا
ذاقَ مثلي في مكانٍ آخَرَ الحُزْنَ الطويلا!
أنا مالي أطلبُ البَرْءَ لِنَفسي في الهَوى
وطبيبي باتَ مثلي يَشتكي الداءَ الوَبيلا ؟!

-١٧٤- ﴿ ﴾

آه.. لا يَبلغُ وردَ الخَدِّ صَبٌّ في جهاده

دونَ أن يبلغَ شوكُ الدَّهرِ سوداء فؤاده
أنظر المِشْطَ، لقد شُقَّ لهُ سبعونَ ضِلعاً
قبلَ أن يَظفِرُ مِن فرقِ مَليحٍ بمُراده!

- ١٧٥ -

يا فؤادي، لا تَرُمْ عارِفَةً عِندَ الزمانِ
لا تَرُمْ منهُ ثَراءً أو علاءً في مكانِ
إنِ تَطلَّبتَ دواءً، زِدتَ في دائِكَ داء
فأرْضَ بالداءِ ولا تَطلُب مِن الدهرِ شَفاء

- ١٧٦ -

صاحِ مِهما زَيَّنوا الكَوْن ومِهما زَخرفوا
لَكَ - فأصدِف عَنهُ، فالعاقِلُ عَنهُ يَصدِفُ
كَم نظيرٍ لكَ يمضي ونظيرٌ لكَ يأتي
فأخْتَطِفْ حَظَّكَ مِنهُ قَبلما تُختَطَفِ!

- ١٧٧ -

يا صديقي، كم طواف الأرضِ أو طي البلادِ؟
تتوخّى حاجة الجسم وأطماع الفؤادِ؟
سَنُوَلّي مِثل مَن وَلَّوا، ويأتي مَن يُوَلّي
دونَ أنْ يَحظى إبنُ أنثى في حياةٍ بالمُرادِ

- ١٧٨ -

إنْ تَكُن طالَت همومي وإستَبَدَّت بيَ حُقبه

وتولّتْكَ المسَرّاتُ فَما فاتتك رَغبه
فَذرِ الحالينِ، لا تركن إلى أيّهما
إنَّ هذا الدهرُ خَلْفَ السِتر يُخفي ألفَ لعُبه!

- ١٧٩ -

إنَّما تُطعَمُ مِن مَطبخِ دُنياك الدُخانا
فإلى كَمْ هُمُ ما لَمْ يَكُ في الدهرِ وكانا ؟
هذهِ الدنيا على أبنائها خُسْرٌ جِسامُ
فأترُك الخُسْرَ.. يكُن حَظّك رِبحاً وأمانا!

- ١٨٠ -

إستَمِع نُصحيَ يا صَفوَةَ صَحبي القُدَماء
لا تَضِق ذَرعاً بكَوْنٍ دونَ سِفْلٍ وعَلاء
إتَّخِذ زاويَةً تَقنَعُ فيها قانِعاً
وإشهَدَنْ إلعوبَةَ الأفلاكِ في هذا الفناء

- ١٨١ -

السَعيدُ الحَقُّ مَن لَم يَكُ معروف المكانِ
لَم يَصِر في فوطَةً، أو جُبَّةٍ، أو طَيْلَسان
فهو كالعنقاءِ، قَد طارَ عن الدارَيْنِ طُرّا
لَم يَكُن مِثليَ يوماً بينَ أطلال الزمان!

- ١٨٢ -

لَم نُصِب إلّا عَناءً وبلاءً ومَضرَّهْ

في زمانٍ قَد نَزلنا في مكانٍ مِنهُ مَرَّهْ
وقَضينا العُمرَ ما إنْحَلَّت لَنا مُشكِلةٌ
فَتوَّليْنا وفي الأنفِسِ منها ألفَ حَسره!

-١٨٣-

هذهِ الأفلاك لَم تَجْرِ على مَرجُوٍّ حُرٍّ
فأفتَرِضها سَبعةً أو تسعةً إن شِئتَ تَجري!
والفتى يَفنى يفنى ما تمنّى، فسواءٌ
من غِذا النَّملِ بِقَبرٍ، أو غِذا الذئبِ بقَفْرِ!

-١٨٤-

سالت [١] البَطَّةُ فوقَ النارِ يوماً سَمَكه:
أيَعودُ الماءُ في الوادي، يَجري مَسْلكَه؟
فأجابت: إنَّنا مُتنا وأصبَحنا كَبابا
فَلْتكُن مِن بعدنا الأرضون بحراً أو سرابا!

-١٨٥-

قالت الوردةُ: إنّي يوسف الروض المُحَبَّب
وفَمي المملوء بالعَسجَدِ ياقوتُ مُذَهَّب!
قُلْتُ: هاتي حجَّةً إنْ كُنتِ حقاً يوسفاً
قالَت: أنظر لقميصي بِدَمٍ كيفَ تَخضَّب؟

(١) سالَت:اي سَألَت. وهي للضرورة الشعرية وكثيراً ما وردت هكذا في شعر العرب.

-١٨٦-

قالت الوردة: لا حُسْنَ إلى حُسني تَسامى
فَعلامَ الضَّيْمُ مِن عاصِرِ مائي، وإلاما؟
فأجاب البلبل الشادي شَجيَّاً مُستَهاما:
آه، مَن يضحكُ يوماً ثُمَّ لا يُجهِشُ عاما؟

-١٨٧-

كُنتُ أسعى أمسِ في إثْرِ الحُمَيّا والحبيب
فَبدَت لي وَردةٌ ذاويةٌ قُربَ لهيب
قلتُ: ما أجرمتِ كَي يُصلوكِ ناراً، ياجميله؟
فأجابَتْني: تَبَسَّمْتُ قليلاً في الخَميله!

-١٨٨-

أَينَ مَن يَحفَظُ سِرَّاً فأُنَبّيهِ لِفَورِه
ما الذي مَرَّ على آدَم مِن أوَّلِ أَمرِه؟
مُبتَلى، صُوِّرَ مِن طينةٍ غَمٍّ ووَجل
جالَ في الدُنْيا شَريداً بُرهَةً ثُمَّ إرتَحَل!

-١٨٩-

إنَّما الأفلاكُ مِن أعمارِنا الرَثَّةِ لَمحة
إنَّما جيحونُ مِن مَدمعِنا المخضوبِ سَفحة
وجحيمُ النارِ مِن شَرِّ الأسى الباطِل قَدحه
ونَعيمُ الخُلْدِ مِن راحَتِنا في العيشِ نَفحه

- ١٩٠ -

أجدُ العالَمَ غَمَّاً دائماً، والدهرَ غولا!
وأرى الأفلاكَ آفاتٍ وظلماً وكبولا
كلّما فكَّرتُ في الدُنيا أرى المرتاح فيها
ليسَ مَوجوداً، فإن كانَ فقَد كانَ قَليلا

- ١٩١ -

هذه الأفلاك لا تُغدِقُ إلّا الكمَدا
أَعطت اليومَ لكي تَسلبُ - ما أعطَت - غدا!
لو دَرى -مَن لَم يَجيئوا بعدُ- دُنيانا سُدى
ما نُقاسي مِن بلاءٍ لَم يجيئوا أبدا!

- ١٩٢ -

إنْ يكُن حقاً مماتي، فأجِبْني ما حَياتي؟
ولِمَ الأطماع والأوهام في دارِ الشَتات؟
منزِلٌ لا يُترَك النازِلُ فيهِ وادِعا
لِمَ يرضى فيهِ أن يَبقى ويهتَمَّ لِآتي؟

- ١٩٣ -

آه، لَو كانَ مجيئي بِيَدي ما كنتُ جِئتُ
آه، لَو كانَ ذهابي بِإختِياري ما ذهبتُ!
كان خيراً لِيَ في دارِ الفَنا لو أنَّني
لَم أكُن جِئتُ، ولا عُدتُ، ولا كُنتُ أَقَمتُ!

-١٩٤- ﴿ ﴾

لم أكُن يوماً طيقاً قَطُّ مِن أصفادِ دَهري
لا ولا ذقْتُ هناءً لحظةً من كُلِّ عُمري!
قَد تَتلْمذتُ على الدهر طويلاً، غير أني
لَم أَصِر بعدُ بعِلم الكَوْنِ أستاذاً لَعمري!

-١٩٥-

كُلَّما باعدتُ نفسي زِدتُ مِن نفسي دُنُوّا!
وأراني أتدلّى كُلَّما رمتُ عُلُوّا!
يا لها خمر وجودٍ أحتسيها، بَيْدَأنّي
كُلَّما إزدَدتُ بها سكراً أراني إزدَدتُ صحوا!

-١٩٦- ﴿ ﴾

نَحنُ مِنّا تنبعُ البَهجةُ والحزنُ، وفينا
نَحنُ أصل العَدْلِ والجورِ، أَبِينا أَم رَضِينا
قَد سَمَوْنا وانحطَطْنا، وكَمَلْنا ونَقَصْنا
إنَّنا جامٌ تألَّقْنا، ومرآةٌ صَدِينا!

-١٩٧- ﴿ ﴾

نَحنُ أطهاراً أَتينا، فإكتَسبْنا وَضَرا
مُستريحيْ البالَ كُنّا، فإمتلأنا كَدرا
وجَرينا مِن لهيب القَلبِ في ماءِ المآقي
وطرَحنا العُمرَ في الريحِ، وصِرنا في الثَرى..

-١٩٨-

قَد نزلنا هذهِ الدار بطاءاً مُذ نَزلنا
وإنحَطَطْنا عن عُلا الإنسان فيها، وذَلَلْنا
وحياةٌ زَوَّدتْنا غيرُ ما كُنّا أمِلْنا
ليتَها كانَت تَوَلَّت، فلَعمري قد مَللْنا!

-١٩٩-

إنَّني في الفَلك الدائرِ مكروب جناني
ناقِمُ النَّفسِ على بئخِسَّةِ طَبعي، وهَواني
لَم يَصِل عِلْميَ أنْ أَفقَه أسرار الزمانِ
أو يصل حَزمي أن أفرَغ في دُنيا الأماني!

-٢٠٠-

خاطَ للحِكمَةِ خَيّامٌ خِياماً وإرتحَل
مُذ هوى المسكين في أتّونِ حُزنٍ، وأشتَعل!
قطعَت أطنابَ دُنياهُ مقاريض الأَجَل
ورخيصاً باعَهُ في السوقِ دَلّال الأمَل؟

-٢٠١-

ألقَت الأفلاكُ يا خَيّام في بَرِّ الأزَل
خيمةً كُبرى، وسَدَّت بابَ قولٍ وجدَل
ولقد أحدثَ ساقي الدهرِ في جامِ القَضا
ألف خَيّام لَعمري، كالحباب المُرتجل!

- ٢٠٢ -

قد تَرحَّلْنا، فما في جور هذا المنزلِ
غير قبض الريح من مُستَقبَلٍ أو أملِ
فاكِرُوا موتي لا بالحُزنِ، بَل بالجَذَلِ
فقد إستَطَعْتُ خَلاصاً من عَوادي الأَجَلِ

١٠

فرار الثائر (عدم الوجود)

-٢٠٣-

دَع شَراب العَيشِ يَصفو تارةً أو يتعكَّر
ولتُكنْ كِسوتُنا الطمرَ أو البَرْدُ المحبَّر
كُلّ هذا عندَ ذي النُّهْية جهلٌ وهُراءٌ
أفَسهْلٌ حادِث الموت لدى عقلٌ تَدَبَّر ؟

-٢٠٤-

يا أخا العقلِ، حديثُ الغَدِ أوهامٌ فطيره
التباهي بالأقاويل إدِّعاءات غَريره
يَعلَمُ اليومَ لَعمري كُلِّ دارٍ ذي بصيره
أن هذا الكونُ طُرَّاً لحظة الحال القصيره!

-٢٠٥-

لقد لَزِمنا في صِبانا مَجلس الأستاذِ حِينا
ودُعينا بعدُ أُستاذاً ففُزْنا ورَضينا!
فأستَمِع أخرةَ الأمرِ إلى أينَ إنتهَيْنا:
مِن ثُرى الأرضِ خَرجنا، ومع الريحِ مَضَيْنا..

-٢٠٦-

دَعْكَ مِمّا تَطلب الأفراحُ فالعمر قصير
والثرى أشلاءُ جمشيدَ وبَهرام الجَسور
إنَّما أحوالُ هذا العَيشِ في دارِ الفَنا
لمنامٍ، وخيالٍ وخداعٍ، وغُرور

-٢٠٧-

أنتَ لا تهلكَ إلّا مَرَّةً، يا إبنَ الفَناء
وَيْكَ فأهلَك مرَّةً وإرتَح، فما هذا الشَقاء؟
إنها حفنةُ أنجاسٍ وجَلْدٍ ودِماء
فأفتَرِضها لَمْ تكُن قَطُّ، ودَع عنكَ البُكاء!

-٢٠٨-

إن مَلكْتَ الصينَ والرومَ، وسَخَّرتَ العِبابا
وحَكمتُ الأرضَ طُرَّاً، وتبَوَأتَ السَحابا
فَتَيقَّن أنَّ حَضَّيْنا مِن الدُنيا أخيراً
عَشرَةٌ أذرَعَ بِزٍّ، وذِراعانِ تُرابا..

-٢٠٩-

يا فؤادي، هَبْكَ حَققتَ الذي رَجَّيتَ كُلّه
فأزدهى روضُ مَسَرّاتكَ في أَبهَجِ حُلّة
فكأني بِكَ طَلٌّ ضَلْتَ فوق الزَهرِ ليله
وتبَخَّرتَ صباحاً، فكأن لَمْ تَكُ وَهله!

-٢١٠-

أفرض الدهرَ بِما تأمرَ مَرَّا ثُمَّ ماذا ؟
وأفتَرض أنْ قَدْ قرأتَ الكَون سِفراً ثُمَّ ماذا ؟
هَبْكَ قَد عِشتَ سعيد القلْبِ عُمراً ثُمَّ ماذا ؟
ثُمَّ بَعد العُمرِ عصراً، أو فَدهراً ثُمَّ ماذا ؟

-٢١١- ﴿ ﴾

إن تَعِش قَرنين أو ألفَيْن في دار الفناء
فئلثى خارج المنزل، من غير مراء
ولتكن ثخان موق، أوأمير الأمراء
فكلا معزيهما في آخر الأمر سَواء!

-٢١٢- *

يا صَديقي، كُلّ معدومٍ هَباءٌ في هواء
كُلّ موجودٍ بهِ نقصٌ وسِرٌ للعَفاء
فهَبِ المعدوم موجوداً ودَع عَنكَ الأسى
وهَب الموجود معدوماً ودَع عَنكَ العناء

-٢١٣- *﴿ ﴾

إنَّ مَن فكَّرَ في الدُنيا إبتداءً وإنتهاء
وجدَ الأفراحَ والأتراحَ في الدُنيا سَواء
ومَصير الطِيب والخُبْثِ إذا كانَ الفَناء
فلتكُن إن شِئتَ داءً كُلَّها، أو فَدواء!

-٢١٤- ﴿ ﴾

يَستوي حُسْنٌ وقُبحٌ في عيون الباحثين
وجَحيمُ ونعيمُ في مَثاوي العاشِقين
وحريرٌ وبلاسٌ كِسوةً للبائسين
ووسادٌ وحجارٌ لرؤوس اليائسين

-٢١٥-

أنتَ لو إن عِشتَ سَعياً بالحُمَيّا والمُحيّا
وتمتَّعتَ بأقصى لَذَّةٍ، ما دُمتَ حَيّا
فسَتمضي آخرَ الأمرِ إلى دُنيا فناءٍ
فإذا كُلَّ الذي شاهدتُ في دُنياكَ رؤيا!

-٢١٦-

عَبَثٌ رؤيتُكَ الدُنيا، فهوّن ما رأيت!
عَبَثٌ ما قُلتَ أو أُسمِعتَ، مِن كِيتَ وكِيتْ!
عَبَثٌ رِكضُك في الآفاقِ فأرعِبَعْ، ولَعمري
عَبَثٌ سَعيُك في البيتِ دَبيباً، لَو دَريت!

-٢١٧-

باطلٌ جسمُكَ هذا، أيُّها الغافِلُ
باطلٌ هذا السِماكُ الذهبيُّ الحافِلُ
وأُسِرْنا بُرهَةً في دارِ كونٍ وفَساد
فأطْرَح الهَمَّ، فهذا هوَ أيضاً باطِلُ!

١١

في المنفى

نُخب الهموم

-٢١٨-

إسقِني الجريال شَقراءَ بلون الأرجوان
أيها الساقي، فإني ضاق بالهَمِّ جَنَاني
إسقِنيها تُذهِبُ العقلَ ولو بعضَ أوانِ
عَلَّني أذهل عن نفسي وأحداث الزمانِ!

-٢١٩-

جِئتُ لكن لم أَجئ عن رَغبتي أو طَلبي
وسأمضي لا بتدبيري ولا عن أرَبى!
أيُّها الساقي فشمّر، وتقدَّم بالطَلا
فَلنُطهِّر شجن الدُنيا بماء العِنَبِ؛

-٢٢٠-

قُم وجِئني بدواءٍ يُبْرِئ القلبَ المُعَنّى
جِئ بتلكَ الراح، كالمِسْكِ شَذاً والوردِ لَوْنا
كلما رُمتَ دواءاً مُفرِحاً يُفرجُ عَنّا
فبياقوت الحُمَيّا وحَرير العودِ جِئنا [١]

-٢٢١-

إشرب الراحَ، وفَرّح قلبكَ الجَم الشَجونْ
ثُمَّ أقلِل ذِكر ما كانَ وما سوفَ يكون
إنَّما عارية النفس لَكالعاني السَجين
فأَرِحْها مِن عِقال العَقلِ حيناً بعد حين!

-٢٢٢-

إنني اليوم - وهذا هو إبّانُ شبابي
أحتسي الراحَ، فإنَّ الراحَ أُنْسي ورغابي
لا تُعِيْها.. مرّةً لكنَّها طيِّبَةٌ
مُرَّةٌ حَقاً، ولكن كحياتي يا صِحابي!

-٢٢٣-

حبذا الخمرة كالوردِ على وردِ الخَميله
فإسقني مِن دَمِ هذا الجام، وأسفِك سَلسَبيله
وَبحَ نَفسي، ليسَ لي في هذهِ الدنيا جميعاً
خارِج الجامِ صَديقٌ طيِّبٌ صافي الدَخيله!

-٢٢٤-

آهِ لَم يَبْقَ سِوى أسم من هناءٍ ودَدِ
أو سُلافٍ عزَّةٍ مِن صاحبٍ ذي رَشَدِ!

---

(١) كان الياقوت والحرير يُعَّدان من الأجزاء المُفرِحة في الطب القدم.

صاح لا تَقبض يَداً عَن كأسِ هذي الصَرْخَدِ
إنَّه لَم يَبقَ غير الكأسِ شيءٌ باليَدِ..

-٢٢٥-

إسقِني من ذلك الياقوت في الجامِ الأغرّ
مِن أليفٍ مؤنِسٍ كُلّ كَريم النَّفسِ حُرّ
أنتَ تَدري أنَّ دُنيا الأرضِ ليست غَير ريحٍ
فإسْقِني الصَهباء كي تُسرِعُ كالريحِ وتَجري

-٢٢٦- ﴿ ﴾

إشرب الجريالَ ما ساعفَ دَهرٌ وأطرِبا
وأذَّكِرْ أن لَن يعودَ العمرُ إمّا ذَهَبا
أنتَ تَدري أنَّ عُقبى هذهِ الدُنيا خرابٌ
فَكُ دَوماً بالحميّا أنتَ أيضاً خَرِبا!

-٢٢٧-

فَلْيَكُ الصَّبُ مُعنّى القلبِ، مَوصول الجنون
دائم السَكْرَةِ، مفضوحاً، على مَر السنين!
إنَّنا في الصَحوِ نلقى كُلَّ شيءٍ تَرِحين
فإذا نَحنُ ثَملنا.. فليَكُن ما قد يَكون!

-٢٢٨- ﴿ ﴾

إحْتَسِ الصَهباء وأعلَم أنها راحةُ روحَك
وشَفاءٌ لمآسيكَ، وطِبٌّ لِجروحَك

كلّما إجتاحَكَ طوفانُ الأسى مِن كُلِّ صوبِ
فَتعلّق بالحُميّا، فالحُمَيّا فُلْكُ نوحَك!

-٢٢٩-

لستُ أحسو الخمرَ مِن أجلِ نشاطٍ أو طَرَب
أو خروجٍ عَن طريق الدينِ أو حَدِّ الأدب
غير أني أشتهي الغَفلَة عن نفسي قليلاً
إنني مِن أجل هذا أحتَسي بِنتَ العِنَب!

-٢٣٠-

يا نَديمي، حينَ أصحو يجتويني كُلّ بِشْرِ
وإذا أسْكرُ يَخبو النورُ في مُشكاةِ فكري
إنَّ بينَ الصَحْوِ والسُكْرِ لحالاً وَسَطا
أنا أهواها لَعَمري، فَهِيَ العيشُ لَعمري؟

-٢٣١-

إنِ شَرِبتَ الراحَ فأشرَبها مَع الوعي الذكي
أومع الدُمية ذات الخَدِّ كالوردِ الجَني
ثُمَ لا تُكثِر، ولا تُدمن، ولا تَشتفَّ جهرا
بَل أصِب مِنها قليلاً، ثم غِبّاً، ثمَ سِرّا

ب - نُخب الموت

يَمرق العمر مِن الأيدي مُروقَ الزئبقِ
فاكتَسِبْ جريالَ يا ساقي، وأطفئ حُرَقي
هذهِ نار شَباب المَرء ليسَت غَير ماءِ
وأرى اليَقظَةَ ليسَت غير نَومٍ مُطبقِ

-٢٣٣-

أنا ما لِي أجرَع الغَمَّ لِفَقري أو ثَرائي؟
ولهذا العيشُ يَمضي في شقاءٍ أو هَناء؟
أعطِني الكأسَ دهاقاً، لَسْتُ أدري أَسَأحْيا
نَفَساً آخَرَ أمْ في نَفَسي هذا إنقضائي!

-٢٣٤-

إن تُقَضّي العُمر يا صاحِ أستَوى حُلوٌ ومُرُّ
وإذا ما طَفَح الكأسُ أستوى مِصْرٌ ومِصرُ
إشرَب الراحَ، فكم بدرٍ سَيتلوهُ مُحاقُ
حينَ نَفْنى، ومُحاقٌ دامِسٌ يتلوهُ بَدرُ

-٢٣٥- ﴿ ﴾

ومَدارٌ ليسَ يبدو مِنهُ غَوْرٌ أو قرارٌ
إرْتَشِف فيهِ الطَلا، فهوَ على الجُورِ يُدارُ!
وإذا ما جاءَكَ الدَّوْرُ فلا تجزَع بحالِ
فهوَ جامٌ كُلَّهم يَنهلُ مِنه بالتَوالي

-٢٣٦-

قُم فَشمّر وأطَّرِح هَم الحياة الفانيه
وأقْضِها باللهوِ وأسعَد بالأماني الغاليه
لَو غدا في خُلُق الدُّنيا وفاءٌ لقَرين
لَم يَجِئ دورُكَ فيها بعدَ دورُ الآخرين؟

-٢٣٧-

أيّها الغارِسُ دَوْحَ الحُزن في القلب ليَشقى
إتْلُ آياتَ الهَنا، وإحيا رخيَّ البالِ طَلْقا
إشرَب الراحَ وخَلِّ القَلبَ ينعّم بالأماني
فَمِن المعلوم كَم في هذهِ الدُنيا سَتبقى

-٢٣٨-

كم تُقضّي العمرَ بالإثرَةِ لا يُثنيكَ قَصْدُ؟
مُتعَباً، في أثرِ الموجودِ والمفقودِ تَعدو؟
إشرَب الراحَ، فإنَّ العُمرَ يَتلوهُ الحِمام
لَخَليقٌ أن تُقضّيهِ بِسُكرٍ أو مَنام

-٢٣٩-

إنهَب اللَّذات نَهباً مِن قُطوفٍ دانِيه
فسيأتي يوم تغشى كُلَّ حيٍّ غاشيه
إكرَع القَرقَف، لا تَجرع هموم الفَانيه
وذَرِ الهَمَّ لِمَن يُؤتى حياةً باقيه!

-٢٤٠-

ليسَت الدُنيا مَقاماً لكَ أو دارَ مَثابِ
فَلَبيبٌ مَن غَدا فيها خَراباً بالشرابِ
صُبَّ مِن ماءِ إبنَة الكَرْمِ على نارِ الأسى
قَبلَ أن تُلقى، وفي كفّكَ ريحٌ، في التُرابِ

-٢٤١-

زَرعَ الدهرُ كثيراً مِثلَنا وإحتَصَدا
فالأسى الباطِلُ لا يَنفعُ مِنّا أحَدا
صُبَّ لي الراحَ وضَعْها في يَدي، يا ذا المفاتِن
أَتَرشَّف قَدحاً آخرَ، فالكائِنُ كائِن!

*-٢٤٢-

عَسْعَسَ الليلُ، قَمْ باللهِ يا كَنزَ الدلالِ
إحتَسي الراحَ وناغِ العودَ، حالاً بعدَ حالِ
فالمُقيمونَ مُقيمونَ إلى غير مطالِ
والذين أرتَحلوا لَن يرجعوا بَعد أرتحالِ!

*-٢٤٣-

دع فِراش النَوم، وأنهَض نرتشف بِنتَ الدِنان
قَبلَ أنْ نجرَعُ كأسَ المُرَّ مِن كَف الزَمان
إنَّ هذا الفَلَك العابِسِ لَن يُمهِلُنا
بُرهَةً نَشرَبُ فيها الماء يوماً في أمان!

-٢٤٤-

ذَر هُمومَ الغَدِ يا صاحِ، وصَبّحنا بجام
وأغنَم اليومَ قصيرَ العيشِ، وأظفَر بالمَرام
فَغداً إمّا بَرحنا مرَّةً دَيْرَ الفَنا
نَتَساوى مَعَ مَن قَد رَحلوا مُذْ ألف عام!

-٢٤٥- ❋

هذه الأفلاك ترمي لمماتي ومماتَك
ولها نيَّةَ سوءٍ في حَياتي وحياتَك!
فأرتَشِف جاماً على الأزهارِ في نَضرتِها
فَقريباً تزدهي فوقَ رُفاتي ورُفاتَك!

-٢٤٦-

خُذْ كهذا السّوسَن الغَضِّ بِيَمناكَ القَدح
ومع الحسناءِ فأشْرَبها، إذا الحَظُّ سَمَح
إن هذا الفَلَك الأزرَق طاغٍ إن جَمَحْ
وغَداألقاكَ أرضاً كالتُراب المُطَّرَحْ!

-٢٤٧- ﴿ ﴾

فَلَكُ النقمَةِ ما باحَ بِسَرٍ لأحَد
قَد قضى ألفَ مَليكٍ، وتَجنّى وإستَبَدْ
فأحْسِها، لَن يَهبوا عُمراً جديداً لإمرئٍ
كَلُّ مَن غادرَ هذي الدارَ يوماً لم يَعُد

-٢٤٨-

لا تُعانِد قَطُّ هذا الفَلَكَ المُستَهتِرا
وإرتَشِفْها ما قَطَنْتَ العالم المُشتَجِرا
أنتَ في الأوَّلِ والتالي ثَرىً يا صاحِبي
فأفْتَرِض تَحتَ الثرى نَفسَك، لا فوقَ الثَرى!

-٢٤٩-

عِش سعيداً وإطَّرِح هَمَ الزَمانِ الغادِرِ
وكُن العادِلَ في هذا الطريق الجائِرِ
آخر الدُنيا فناءٌ، فأفْتَرِض أنَّك فانٍ
وإحْيَ في دُنياكَ حُرّاً مُستَريح الخاطِرِ

-٢٥٠-

كَم تُعاني مِن تَصاريف الزمان الدائره؟
تَرِحاً، قَلبُكَ دامٍ، والمآقي فائره؟
إشرب الصَهباء وأفرَح، وأغْنَم اللَّذات وأمرَح
قبل أن تُلقى غداً خارِجَ هذي الدائره؟

-٢٥١-

مَن مِن الغادين في هذا الطريق المستطيلِ
عادَ كي أسألُهُ عَن بعض ما يَشفي غَليلي؟
إحتَرِس، في مَفرِق الرَّغبة والحاجة هذا [1]
لا تَدَع شيئاً، فما مِن رَجعةٍ بَعدَ الرَحيلِ

(١) المفرق بفتح الراء وكسرِها: الموضِع الذي يتشعَّب منهُ الطريق.

-٢٥٢- شَقَّ نور البَدر جُلباب الدياجي حينَ لاح
فهوَ آنٌ لا تُرد أطيَبَ مِنهُ أن يُتاح
لا تفكِّر، وأشرَب الراحَ.. فهذا قمرٌ
كَم سيبدو فَيرانا هُجَّعاَ تحت الصِفاح!

-٢٥٣-

لَم يُصِب مِن غَدِهِ في الدَّهرِ إنسانٌ ضَمانا
فأغنَم الآن، وأَسْعِد قلبَكَ التوّاقُ آنا
إحْتَسِ الصَهباء يا بَدري، هُنا في ضوءِ بدرٍ
كَم سَيغشى الليلُ بالضوءِ ولكن لا يَرانا!

-٢٥٤-

جاء من حانوتنا صوتٌ يُنادي سَحَرا
يا خَليعَ الحَيّ، يا مجنونَنا المُستهتِرا
قُم بِنا نترَع مِن الصَهباء كأساً
قَبلما تَترع الأيامُ يوماً كأسَنا المُنتَضَرا!

-٢٥٥-

إنهَض إنهَض مِن فِراش النَّومِ يا ساقي الشَمولِ
هاتِ هاتِ الراحَ أصفى مِن زَلال السَلسَبيلِ
صُبَّ في الطاسِ مِنَ الكوزِ رحيق الخندَريسِ
قَبلَ أن يصطَنعوا الكيزان مِن طاس الرؤوس!

-٢٥٦-

أَشرقَ الصُبحُ بهيجاً طيّباً، فَدَّتْكَ نفسي
فَأَدِر في الجامِ ما ظَلَّ لَنا مِن خَمرِ أمسِ!
آتِني كأساً ودَعنا اليوم نَغْنَم كُلَّ أُنسِ
فَغداً نُصبِح آجُرّاً لقصرٍ أو لِرمْسِ!

-٢٥٧-

إسْقِني المُسطارَ كالمِسْكِ شَذاً والوردُ لونا
تُلْقِ عِبء القيلِ والقالَةِ عَن قلبي المُعنّى؟
هاتِها في الكأسِ يا ساقي النَدامى قَبلما
تَصنَعُ الأفلاكَ مِن طيني ومِن طينِك دِنّا!

-٢٥٨-

بِفَم الكوزةِ ألصقتُ فَمي أشفي الغَليلا
أبتَغي مِنها التي تَنفحني العُمرَ الطَويلا
فَحَكت لي بِلسانِ الحالِ هذا السِرُّ همساً:
إنني عِشتُ كما عِشتَ فعاشِرني قليلا!

-٢٥٩-

طرَبَ الزَّهرُ ورقَّ العِشْبُ يا ساقي وطابا
فَتيَقَّن أَنْ سيغدو بَعد أسبوعٍ تُرابا
إجنِ زَهراً وأحْسُ جِريالاً، ففي كَرَّة طَرْفٍ
تَجِد الزَّهرَ تَراباً ثَمَّ والعِشْبُ هَبابا!

-٢٦٠-

غَسَلَ الغيمُ خدود الرَّبْع في وجه الربيع
وصَحا الدهرُ الكسير القَلبِ مِن بعد هجوع!
فأشرَب الراحَ معَ الغادَةِ في الرَّوضِ على
ذِكرِ مَن فوقَ ثَراهُ أيْنَعَ الرَوضُ يَضوع!

-٢٦١-

يا فؤادي؛ إن هذا الدهر يُوليكَ الشَجَن
وسَتقْلو هذهِ الروحُ غداً هذا البَدَن
فأجلِس اليومَ على الخُضرَةِ وأنعَم بِهواك
قبلَ أن تَزْدَهِرُ الخُضرةَ يوماً مِن ثَراك!

-٢٦٠- ❋

غَسَل الغَيمُ ضُحى النَيْروز أعطافَ الشقيق
فأتِنا بالجامِ تَزْهُو الخمرُ فيهِ كالعَقيق
إنَّ في الأزهارِ إمتاعاً لكَ اليومَ، فأيقِن
أنْ سَتنمو مِن ثَرى لَحدِكَ يوماً، يا صديقي!

-٢٦٣- ﴿ ﴾

عادَت السُحْبُ على الأعشابِ تَبكي هاميه
أفَيَحْلو العيشُ مِن دونِ المُدام القانيه؟
هذهِ الخُضْرةُ ذِي نُزهَتَنا، نُزهَةُ مَنْ
سَوفَ تَغدو مِن ثَرانا زاهيه؟

-٢٦٤-

إشرَب الخرطومَ كالوردِ على مَشهَدِ وردِ
كُلّما أوتيتَ وَردَ الخَدِّ في سورةِ قَدِّ
قَبلما يُمسي قميص العُمرِ في ريح الحِمام
فجأةً مِثل قميص الوردِ مُلقى في الرغام!

*-٢٦٠-

إحمِل الدِّنَّ مَع الأقداحِ، يا سِحرَ حياتي
وأخطُري بينَ الأزاهيرِ على شطِّ الأضاةِ
فَلَكَمْ أحدثَ هذا الدهرُ أقداحاً ودِنَّا
للحُمَيّا.. من خدود الغانيات الفاتِنات.!

شيوخ الحان

-٢٦٦-

أَمْسُ عَرجتُ على الحانوتِ ليلاً في طريقي
فإذا شيخٌ على مَنكَبِهِ دِنُّ الرَحيق
قُلتُ: ما تَخجَل يا شيخُ مِن الله تعالى؟
قال: الله. كريمٌ، فأحسُ وأسكت، يا صديقي!

-٢٦٧-

غادَرَ الحانَةَ شَيخٌ ثَمِلُ كادَ يَطيح
بِيَدٍ سِجّادةٌ والكأسُ بالأخرى تَفوح!
قُلتُ: ما تَصنَعُ يا شَيْخُ، وماحالُكَ هذي؟

قالَ لي: ويحكَ خُذ كأساً، فإن الكون ريح!

-٢٦٨-

وبدا لي في وصيدِ الحَانِ شيخٌ يسمرُ
قلتُ: يا شيخ، أَلا حَدَّثتَ عَمَّن غبروا؟
قال لي: خُذها شمولاً، فكثيرٌ مِثلَنا
غَبَروا لَم يأتِ عنهم منذُ ساروا خَبَرُ!

-٢٦٩-

وجَثا في الرُكْنِ شيخٌ نام سكران الفؤاد
تَخِذَ الشَكَّ مقاماً وجَفا دَار الرشاد
شَرِب الخمرةً وأستغرَقَ مضنى في الرقاد
وهوَ يتلو ثَمَّ: اللهُ لطيفٌ بالعباد!

نُخب الزاهد الدجال

-٢٧٠-

أيُّها الذاهب بالتدليسِ فينا كُلّ مذهبْ
المُعنّى بقصيرِ العُمرِ، يحتاج ويَنصَبْ
قُلْتَ لي: أينَ ذهوبي يا ترى بعد الردى؟
أَعطِني وَيحَكَ جامَ الخمرِ، وأذهَب حيث تَذهَب!

-٢٧١-

لا تُشَهِّر بالسكارى مِن أفاويق الكروم

أو تخاشِن فذّة الأبرار من كُلّ كريم
إشرب الراحَ، فما في شُربِها أو تَركِها
تدخل الجنّة إمّا كنتَ مِن أَهلِ الجَحيم!

-٢٧٢-

هاتِ جاماً في أوانِ الورد كالوردِ دما
وإرتَشفها مَع لَحنِ الناي أو شَهد اللُمى
إنني أشربُ جذلانُ فؤادي، فإذا
كنتَ تَأباها فما أَصنَعْ، فإشْرَب عَلقما!

-٢٧٣-

إنَّ آجرَّ سَدادِ الدَنِّ خيرُ من عُلا جَمْ
وشَذا الأقداح أشهى نكهةً من رِزق مَريمْ
رُب آهٍ يُرسِل الخَمّار في جوفِ الدُّجى
هيَ أحلى من تسابيح أبي سعدٍ وأدهَمْ

-٢٧٤-

صاحِ ما أطيَبَ شُرب الراحَ مِن راحِ الجَميلِ
صاحِ ما أطيبَ لَحْن الناي في نَأيِ العَذولِ
وغبيٍّ زاهدٍ لَم يَدرِ ما جام الشمولِ
صاح ما أطيَب أنْ يَبعِدَ عَنّا ألفَ ميل!

- نُخب الدين

-٢٧٥-

سَئِمَت نفسي أباطيل نفاقٍ وتماري
فَتعَجَّل أيّها الساقي، وجِئني بالعقارِ
قُم فبِع سِجّادتي بالراحِ، وإدفَع طَيْلَساني
أيّها المحبوب، كي يَصبح الباقي إفتخاري!

-٢٧٦-

قيلَ شُرب الخَمر يوليكَ سقاماً ونَدامه
ويؤدّيكَ إلى النارِ غداً يوم القيامه
صَدَقوا.. لكنَّ خيراً مِن جميع الدنيوين
أن يَكون المرء سكران، ولو طُرفة عين!

-٢٧٧-

قوَّةُ الجِسمِ وقوت الروحِ كأسٌ ذابَ تبرا
خمرةٌ تَكشفُ لي مِن كُلِّ خافٍ ما أستَسَرا
فدعوني مِن طماعاتِ حياةٍ ومَماتٍ
جُرعة الصَهباء خيرٌ لي مِن دنيا وأُخرى!

-٢٧٨-

إنَّ ركب العُمر يَمضي عَجِلاً لا يترقَّب
فأقضِهِ يا صاحِ بالأفراح واللذات وأطرِب
أيها الساقي، إلامَ الفكر في حَشرٍ ونَشْرِ؟
أعطِني الكأسَ على الكأسِ، فإنَّ الليل يذهب!

-٢٧٩-

قم بِنا نَعزِف على القيثار ألحان الغَرام
نَحتسي الراحَ ولا نَحفَلُ صيتاً في الأَنام
فَلْنَبِع سِجّادة التَقوى بكأسٍ مِن مُدام
ولنُحُطِّم في الثرى قارورَة الزُهد العُقام!

-٢٨٠- ❋

يا فؤادي، أنتَ لا تُدرِكَ أسرارَ السِماك
لا ولا تُدرِكَ أهل العِلمِ والفِهم نُهاك
ها هُنا فاتَّخذ الجَنَّةَ مِن جام طلاك
فغداً قد تُدرِك الجَنَّةً أولا.. هَهُناك!

-٢٨١- ﴿ ﴾

قيل لي ثَمَّةَ جَنّاتٍ بها حورٌ وكوثر
وبها أنهارَ خمرٍ، وبها شهدٌ وسُكَّر!
فعلى ذِكر الحُمَيّا هاتِ كأساً وتَعَجَّل
إن نقداً في يدي أفضلُ مِن ألفٍ مؤجَّل!

-٢٨٢-

أنا لا أعلمُ هَل قَدَّرَ ربّي إذْ بَراني
أنْ سَأغدو مِن فريق النارِ أو أهل الجنانِ
قدحُ الصَهباء، والحَسناء، والعودَ، ورَوْضاً
أعطِني ذلِكَ نقداً، وخُذ الجَنَّةَ قَرضاً؛

-٢٨٣-

إن أُتيحَت لي مِن الحورِ كعابٌ في الربيع
أَتَحَسّى مِن يَديْها الراحَ في المَرج المَريع
صاحِ مهما إشتَدَّ قَولي في الوَرى قُبحاً وهُجْنَة
فأنا أدنى مِنَ الكَلْبِ إذا إستَذكَرتُ جَنَّه!

-٢٨٤-

إلزَم الحورَ، يَزِدْنَ العَيشَ حُسناً ويَزِنَّه
والطَلا، والروضَ، والجدولَ.. ما فُزْتَ بِهِنَّ
لا تُرُم أكثَرَ من هذا، ولا تُضْرِم جحيماً
إنَّما الجنّةُ هذي.. إنْ يَكُنْ ثَمَّة جنّة!

-٢٨٥-

أنا مهما كنتُ بالإثمِ شَقياً، يا نَديمي
لَستُ مِثل العابديْ الأصنامَ في يأسٍ مُقيمِ
فمتى أقضي لفَرط السُكْرِ وهناً فمرومي
هو كأسي وحَبيبي.. في نعيمٍ أو جَحيمِ!

-٢٨٦-

قيلَ شهرُ الصَّوْمِ وافى، وأَتانا مِن جَديدِ
فَغَدا حوض الحُمَيّا غيرَ مَيسور الورودِ
أنا في آخرِ شعبانَ سأحسو مِن مُدامي
ما سَأهوي ثَمِلاً مِنهُ إلى العيدِ السَعيدِ!

-٢٨٧-

وَيْكَ حَتّامَ صيامٌ وصلاةٌ ساهيه؟
إشرب الخَمرَ ولو مستعطياً في الناحيه!
كم سَيَبري مِن ثَرى جِسمك يا خَيّامَ قومٌ
تارةً دِنَّاً، وطوراً قدحاً، أو خابِيه..

-٢٨٨-

ليسَ في الحانِ وضوءٌ بِسوى الراحِ يُباح
وإذا السُمعةُ سادَت لم يحَسِّنها صَلاح!
فإسْقِنيها.. لَقد إنشَقَّ حُجاب السِترِ شَقّا
لم يَعُد ينفعُ رَتْقٌ فيهِ أو يُخفى إفتِضاح!

-٢٨٩-

خرقة الزهد خَلعْنا، وعلى الدِنّ وضَعْنا
وتيَمَّمْنا صعيدَ الحانِ وجدا.. ورَكعْنا!
فعسانا هاُهنا في الحانِ نَستَرجِعُ عمراً
غابراً في حُجُراتِ الدَّرْسِ كُنَّا قد أَضَعْنا!

-٢٩٠-

نَحنُ والقينةُ والصَهباءُ إبّان الصَبوحِ
لا تُرَجّى قَطُّ مِنّا نِيَّة التَوْب النَصوحِ
أيها الساقي، فكَم تتلو لَنا قِصَّةَ نوحٍ؟
قُم فعجِّل وأسقِني يا حُلْوُ من راحَةِ روحي!

-٢٩١-

أَخْرِجَن باللهِ من رأسِكَ أوهالم المحالِ
وإنهَل الراحَ بكأسٍ مُترَعٍ طول الليالي
عِش سعيداً مع بنت الكَرْمِ، فالبِنتُ حراماً
في مجالي حُسنُها أَشهى مِن الأم الحَلال!

-٢٩٢-

هو صَفْوٌ هَيأ الدَّهرُ فَعنْهُ ليسَ يُغْضى
وحبيبُ القَلْبِ إنْ خانَ فَعنْهُ ليس يُرضى
إغتَنِم يا صاحِ عمراً في يَديْكَ الآنَ غضّاً
إنَّهُ ليسَ صلاةٌ، فإذا ما فاتَ يُقضى!

-٢٩٣-

إذ هذا اليوم يُدعى في الوَرى بالجُمُعَه
فأكرِع الصَهباء بالكأسِ دهاقاً مُترَعه
أيُّها الشارِبَ مِنه كُلَّ يومٍ قَدَحا
إنَّ هذا سيّد الأيام، فأشرب أربعه؛

-٢٩٤-

إنَّ قُرآناً دَعَوْهُ في الورى خير البَيان
ليسَ يُتلى دائماً، بل بينَ آنٍ وَأوان
وعلى الأقداحِ خُطَّت آيةٌ بَيّنةٌ
أبداً تُقرأ، في كُلِّ زمانٍ ومكان؟

-٢٩٥-

إنه فصلُ زهورٍ، وطيورٍ، وغدير
ورياضٍ تتهادى في رُباها بعض حُور
هاتِ كأساً.. فالذي يَحسو أفاويق الطَلا
مُستريحٌ مِن محاريبَ، خَلِيٌّ مِن ديور

-٢٩٦-

الطَلا تفني أسى الكُثرةَ والقِلَّة كُلَّه
وتُنَحي فِكَر الثِنْتَيْن والسَبعين مِلَّة
فأشرب الصَهباء وأطرِب، لا تَصُم عن كيمياء
جرعةً واحدةً منها تُداوي أَلَفَ عِلّة!

-٢٩٧-

أنا والخمرةَ والمحبوب في ركنِ الخراب
والحَجى والجام والجُبَّةِ رَهْنٌ بالشَراب!
فارِغٌ مِن أمل الرَحمة أو خوف العَذاب
وأَسى ماءٍ ونارٍ وهَواءٍ وتُراب

-٢٩٨-

إنَّ دِيني هوَ أن أفرغ مِن دينٍ وكُفْرِ
وحَياتي هي أن أحيا أخَا سُكْرٍ وبِشْرِ
قُلتُ يوماً لعروسِ الدَهرِ: ما مَهرك حَقاً؟
فأجابَت: يا حَبيبي، قَلبُك الجَذلان مَهري!

والله كريم

-٢٩٩-

أنا إن لم يُسْقِني مُحيِيَةَ النفس الحَبيب
لم تُقبّل رِجلِيَ الأفلاك ألفاً وتنيب!
قالَ لي الأصحابُ: تُب للهِ فالحينُ قَريب
فإذا لَم يُرِد اللة لَنا كيفَ نَتوب؟!

-٣٠٠-

الورى فانٍ، فإنّي عن سوى الفَنّ رَغوب
وسوى الراحِ ولهو العيش عندي لا يُطيب
قالَ قومٌ: قَبِلَ البارئُ مِنكَ التَّوْبَ.. كلّا
رَبِّ لا تَقبَل، وإن تَقبَل فإنّي لا أتوب!

-٣٠١-

باكِرِ اللَّذات والخَيرات من سير الزمانِ
وخُذ الكأسَ على عَرشَ الهَوى والعنفوانِ
رَبُّنا اللهُ غَنيٌّ عَن معاصٍ وتُقى
فأغتَنِم في هذهِ الدُنيا مُتاحات الأماني

-٣٠٢-

إسمع الحَقَّ صراحاً، يا صَديقي، وَعِ قولي
لا تُفارِق كأسَ جريالٍ ولا طُرَّة خِلّ

وتعلّم أنَّ رَبَّاً خَلقَ الأكوانَ خَلْقاً
لا يُبالي شارِبي مِثلُكَ أو لِحية مِثلي!

-٣٠٣-

رَبّي أفتح ليَ باباً يتأتّى مِنهُ رِزْقي
وإبعث القوتَ إلى حَلقي، بلا مِنَّةَ خَلْقِ
رَبِّ وأحفَظني صَريعاً بالحُمَيّا طولَ عُمري
فمنَ الغَفْلةَ لا أعرفُ ما يُقلق فِكري!

نُخب العقل وألفاز الوجود

-٣٠٤-

ليسَ مَن أدرَكَ ماذا حَجَّبَت تِلك السِدول
أو دَرى كيف حلول الروح، أو فيمَ الحِلول
ليس للإنسان غير اللَّحْدِ مغنى أو مَقيل
فأكرِع الصَهباء.. هاتيك حكاياتٍ تَطول!

-٣٠٥-

ليسَ وَجه الكَوْنِ إلّا نقشُ وهمٍ وخَيال
والذي يَجهلُ هذا ليس مِن أهلِ الكَمال
فإقتَرِب يا صاحِ وأشرَب قدحَ الجريال وأطرِب
وإنْسَ هذا النَّقشَ، وأفرَغ مِن خيالات المُحال!

-٣٠٦-

ما لَنا بالله أسرى بيدِ العقل العقامِ؟
ما حياة المرءُ يوماً واحداً أو ألفَ عامِ؟
فأفتَح الراقودَ وأملَأ. مِن رَحيق الراحِ جامي
قبل أن نصبحَ في السُوقِ جِراراً للأنامِ

-٣٠٧-

منذُ عهدٍ ومَديح الخَمرِ تَسبيحي وَ وِرْدي
ومُعدّات الحُمَيّا كُلُّ ما حَولي وعندي!
إنْ يكُنْ أستاذُكَ العَقلَ، أَخا الزهد، هُنا
فَتنَعَّم.. إنَّ أستاذُكَ تِلميذي أنا!

*-٣٠٨-

ليسَ للمرءُ مَقامٌ في ذُرى الدَّهرِ المُقيم
فَقِلا الخَمرةَ والمحبوب تقصيرٌ عَظيم
كَم أقاويلُ قديم وحديثٍ يا حَكيم؟
أنا إنْ مُتُّ فما المُحْدِثُ عندي والقديم؟

-٣٠٩-

أيُّها القادمُ مِن عالَمِ روحٍ وسَرائِر
وهو في الخمسة والسِتَّةِ والسَبعَةِ حائر
أنتَ لا تَعلمُ أَنّى جِئْتَ أو أينَ سَتذْهَب
فأشرَب الصَهباء وإطرِب وإغنِم اللَّذات والعَبْ

-٣١٠-

كَم حديث الخَمْسُ والأربَعُ في دارِ الفَنا؟
أي شَيءٍ مُشكِل الواحد والألف لَنا؟
إنَّما نحنُ تُرابٌ فلتُغَرِّد يا مُغَنّي
إننا ريحٌ، فَجِئْنا أيُّها الساقي بدِنْ

-٣١١-

فيمَ هذا الهَّم للكائن في الدنيا الولود؟
وإلامَ الفِكر في كُلّ قريبٍ وبعيدِ؟
عِش سعيداً وإقضِ أيَّامك في أُنْسٍ وعيدِ
فلَعمري لَم يُنيطوا بِكَ تَدبير الوجودِ!

-٣١٢-

أنتَ أوْلى لكَ أن تَهرب مِن دَرس العلوم
فتعلَّق بعذار الحُبِّ كالخُشفِ الفطيم!
إبتَهِج وإسْفَح دِماءَ الجامِ في الكأسِ إزاءِك
قَبلَ أنْ يسفح هذا الدهرُ يا هذا دِماءَك

-٣١٣- ﴿ ﴾

نحنُ لا نَملُك في الواقعِ حقاً ويَقينا
أَفَنُفْني العُمرَ في الشَكِّ حَيارى قاعِدينا؟
صاحِ لا تُلْقِ كؤوس الراحِ مِن أَيْدي المَراح
فَسواءٌ في ظَلام الجَّهْلِ سَكرانٌ وصَاحي؛

-٣١٤-

نَفَسٌ مِن مَنزلِ الكُفْرِ إلى منزلِ ديني
نَفَسٌ مِن عالَمِ الشَكِّ إلى دُنيا اليَقينِ
فَتعهَّد طيبَ هذا النَفسِ الفذ الثمينِ
إنَّه محصولنا مِن هذه الدُنيا الخَؤون

-٣١٥-

إنَّ أقواماً تَولّوا أيّها الساقي المَليحُ
قد تَوَلّوا في غرورٍ ضَمَّهم مِنهُ ضَريحُ!
فأمضِ وأحسُ الراحَ، واسمَع لكلام الحق منّي
أيها الحُلوَ التَثَنّي، كُلّ ما قالوه عَنّي!

-٣١٦-

ياخَليلَيَّ ذَراني أرتَشِف بنتَ الدِنان
يصطَبِغ خَدّي بلون الأرجوان
لأَصُبَّنَ على العَقلِ الفضوليّ قَليلاً
مِن سُلافٍ، عَلَّهُ إنْ نامَ خَلّاني وشأني!

-٣١٧-

سَوفَ أَحسو اليومَ بالجامِ الذي يَملأُ رَطلا
وبجامينِ سأغدو مُوسِراً جدّيَ أعلى
فَلْأُطَلِّق يا نديمي الدينَ والعقلَ ثلاثاً
فَسَأبني بإبْنَةِ الكَرْمِ، ولا أسمعُ عَذلا!

ح - نُخب اللحظة الحاضرة

-٣١٨-

قَدَحاً يا ساقيَ الجِريال فالدُنيا خُلَسْ
أن تُصِبْ فيها سُروراً فكفى مِنهُ نَفَس!
إغتَبِط أنتَ بما يأتيكَ، فالدهرُ غِيَر
لم يَدُر قَطُّ على ما يَشتهي قَلْبُ بَشَر

-٣١٩-

يا خَليلَيَّ تقضّى اليومَ يومٌ مِن حَياتي
مِثل ماءٍ في مَسيلٍ، أو هواءٌ في فلاةِ!
أنا لَم أذكُر أسى يومينِ في دارِ الشَتاتِ
يوم أمسٍ قَد تَولّى، وغدٍ في الغيبِ آتي

-٣٢٠-

ضَلَّ لي السَعي إلى ساقي الطَلا مِن رَمَقي
ظَلَّ لي من صحبة الخَلْق دواعي الحَنَقِ
مِن شَمولِ الأمسِ لَم يَبقَ سِوى باطيَةٍ
ومِنَ العُمرِ لَعمري لَستُ أدري كَم بَقي!

-٣٢١-

أنظروا سوءَ فعال القبَّة الزرقاء فينا
وفراغ العيش بعد الأصدقاءِ الذاهبينا

فأبْتَدِر وقتَك ما أمْكَنَ، لا يَذهَب سُدىً
إغنَم الحالَ.. ودَعْ أمسَ ولا تَحفِل غَدا

- ٣٢٢ -

ألقِ عَن قلبِكَ أثقال الأسى والشَجنِ
وعَناءَ العالَم الفاني، وهَمَّ الزَمنِ
ما مضى فاتَ فما لم يأتِ غَيْبٌ لا نرى
فأطَّرِح أعباءَ ما كانَ وما لَم يَكُنِ

- ٣٢٣ -

إنَّ أمساً قَد تَولّى لا تُعاوِد ذِكرَهُ
وغداً لَم يَأت بَعدُ لا تُدَبِّر أمرَهُ
لا تُشيِّد فوقَ ما فاتَ وما لم يأتِ أَمرَك
فَتنَعَّم.. لا تُبَدِّد في مَهب الريحِ عُمرَك

- ٣٢٤ -

فيمَ غَم المال في هذا، وهَمُّ الفانيه؟
أتُرى العيشَة كانَت لإبن أنثى باقيه؟
هذه الأنفاس في جسمك هذا قاضيه
فأغتَنِم عاريَة العُمرِ وعِشها عارَيه!

- ٣٢٥ -

لا تُطأطِئ لِمُلِمّات الزمانِ الجائِرِ
أو تُذَكِّرنا أَسى أبناءَ أمسِ الغابِرِ

لا تُذِق قَلبَك مِن زادٍ سِوى ريق الملاح
والحُمَيّا.. لا تُضِع عُمرَكَ أدراج الرِياح

-٣٢٦-

قُم بِنا نصطبِح الراحَ فَقد باء الصباح
ولْنُحطِّم في الثَرى جَرَّةَ صيتٍ وصلاح
فأنفُضَنْ يَمناكَ مِن كُلِّ تَمَنٍ وطِماح
وخُذ العود بها الآنَ ولبّات المِلاح

-٣٢٧-

حاسِبَنْ نَفسَكَ يا عاقِلُ ما أوردتَ قَبْلا
يوم أَقْبَلْتَ، وما تُصدِر لَـمّا تَتولّى؟
قُلتَ: لا أشربُ خمراً، فالفَتى لا بُدَّ يَقضي
الفتى لا بُدَّ يَقضى، أَشَربْتَ الخمرَ أَم لا!..

-٣٢٨-

يا صديقي، لا لكَ اليومُ بأمرِ الغَدِ حيله
وهُموم الغَدِ ليسَت غير أوهامٍ وخِيله [١]
فأهتَبِل فرصَةَ هذا الوَقت إن كُنتَ أريبا
ليسَ باقي العُمر بالباقي، فلا تَهدر قليله

(٣٢٩)

إنَّ شَربتَ الراح يا خَيّام، فأسكر وإطرِبَنْ

(١) الخيلة: التخيّل والتظنّي

وإذا جالَسْتَ بدراً فتمتَّع والعَبَنْ
آخرِ الدُنيا فَناءٌ، فأفترِض أنَّكَ فانِ
وبِما أنَّكَ حَيٌّ فَتنَعَّم وأشرَبَنْ

-٣٣٠-

عاقِرِ الصَهباء في المَرْجِ إلى جَنْبِ الغَدير
وإطَّرِح عَنكَ هموم العَيشِ في دُنيا الغُرور
ليسَ هذا العمُرُ الغالي سوى آنٍ قصير
فَلْنكَن فيهِ نَضيري الوِجه بسّامي ثغور

-٣٣١- ﴿ ﴾

هذهِ الأنفاسُ تَمضي حينَ تَمضي مِن حياتك
فأقضِها بالأُنْسِ واللَّهو إلى يوم مماتَك
رأسُ مال الكَونِ يا صاحِ هو العمرُ لَدينا
وهوَ يَمضي مثلما تُمضيه يا صاحِ بذاتَك

-٣٣٢- ❋

إيهِ خَيّامُ، هو الدَّهرُ شموخٌ يَزدَري
كُلَّ مَن يَقعُدُ مهموماً حليف الكَدَرِ
فضَع الإبريق وأشرَب، مَعَ لَحْن المزهرِ
قبلَ أن ينكسر الابريق فوق الحَجَرِ!

-٣٣٣- ﴿ ﴾

أَقبلَ البلبلُ نشوانَ إلى بعض الجِنان

فرأى الوردَ وكأس الخمر فيهِ يضحَكان!
فأتاني هامساً في أُذُني: يَ إبنَ الأماني
ليسَ بالعائِد يوماً ما أنقضى مِن عُمر فاني

-٣٣٤-

سوفَ أطوي مِن غَدٍ تالله رايات النِفاقِ
وسأقفو أثرَ الخَمرِ بشيّبي، يا رفاقي!
أنا في السبعين من عمريَ، شيخٌ أشمطُ
فإذا لم أنشط الآن فأنّى أنشَطُ؟

-٣٣٥-

إنَّ طبعي أبداً يَهفو إلى الوِجه الجميلِ
ويميني أبداً تهفو إلى كأس الشَمولِ
إنني منتَفِعٌ مِن كُلِّ جُزءٍ بنصيبي
قبلَ أن تَندمج الاجزاءُ في الكُلِّ الرَحيبِ

-٣٣٦-

ليس للإنسانِ أن يأسى فيبلى حَزَنا
حاطماً في صخرة المِحنَةِ ساعات الهَنا
صاحِ مَن يَدري بما يَحدث في الدهرِ غدا؟
باكِرِ الصَهباء والمحبوب، وأفرح بالمُنى

-٣٣٧- ﴿ ﴾

يا حبيبي، أنتَ لا تدري من العالَمِ سِرَّه

فعلامَ الهَمُّ فيهِ بينَ تفكيرٍ وحَسره
إنَّ هذا الدهر لا يَجري على ما تَتمنّى
فتمتَّع بُرهَةً ما دُمتَ في دُنياك مَرّه!

-٣٣٨-

لا تَتُبْ عَن بنت كَرْمٍ، ما أُتيحَت كالحَقيب
ولْيَجئ ألفَ مَتابٍ بعدَ هذا في الطريق!
ها هي الأزهارُ فاحَت، وطيورُ الرَّوضِ غَنَّت
أتَجوزُ التَوْبه في وَقتٍ كهذا، يا صديقي؟

-٣٣٩-

إ نها الراح، حياة الخُلْدِ أو خُلْد الحياه
إنَّها حَضك مِن عهد الصِبا، وهيَ مُناه
ذا أَوان الزَّهر والخمرة، والصَحب نَشاوى
فأغنَم الصَفوَ، فإنَّ العيشَ هذا لا سِواه!

-٣٤٠-

دوران الدَّهر لا يُغني بلا خَمرٌ وساقي
ومُغنٍّ يَرسلُ اللَّحنَ مع الناي العراقي
قد تأملتُ شؤونَ الكَوْن في دارِ الفناءْ
فإذا محصولُنا المُتعَةُ، والباقي هَباءْ

-٣٤١-

قَد زَها رَوْضُ أمانيكَ وطابَ الحاضِرُ

فلماذا صَفِرَت يُمناكَ مِن كأسٍ، لماذا؟
إحْتَسِ الصَهباء فالدهرُ عدوٌ غادرٌ
ومن النادِرِ أن تحظى بيومٍ مثل هذا

-٣٤٢-

ما أَحَبَّ الطلعةَ الحَسناء والروضُ ظَليل
وصَبا النيروز تَجري، والأزاهيرُ تَميل
كُلُّ ما تَحكي عَن الأمسِ لنا فهوَ ثَقيل
فأغتَبط وأترك حديثَ الأمسِ، فاليومُ جميل

-٣٤٣-

إرتَشِفها، فالحُميا مُلْكُ كسرى وعلاه
وإسمع الناي، فما مِزمار داودَ سِواه
لا تُفكِّر بعدُ في ماضٍ وآتٍ لا تراه
إغنَم الحالَ، فهذا القصد من هذي الحياه

-٣٤٤-

لَهْفَ نفسي، منذُ مَيَّزتُ يَدي عن قَدَميّا
غُلَّ هذا الفَلَكُ المرذولُ لي كِلتا يَدَيّا
يا لَقَلبي، سيعدّونَ من العُمرِ عَلَيّا
ما تَبَقّى عَبثاً دونَ حبيبٍ وحُمَيّا!

-٣٤٥-

ويحَ قلبٍ ليسَ فيهِ ضَرَمٌ للحُبِّ فاتِك

لَم يُتَيِّمْهُ جميلٌ بهوىً كالحَبَلِ هاتِك
إنَّ يوماً يتقضّى لكَ في غيرِ غرامٍ
لَهْوَ يومٌ ضاعَ، لاأضيَعَ مِنهُ في حَياتَك!

-٣٤٦-

ليسَ في العِشْقِ المَجازيَّ رَوَاءٌ أو نَضاره
فهوَ مثلُ الجَمْرِ نِصفُ المَيْتِ، ما فِيهِ حَراره!
إنما العاشِقُ مَن يَلتاع ليلاً ونهارا
ليسَ يَستَمري طعاماً، أو مَناماً، أو قَرارا!

-٣٤٧-

فلأُباكر فُرصةَ البهجَةِ في الروضِ الظَليل
بِيَدٍ فَرعُ حبيبي ويَدٍ كأسَ شمولي
أَرشِفُ الجِريال، لا أَحْفَلُ بالأفلاكِ تَجري..
ثَمِلاً مِن خَمرة الوَصلِ مَع الحُبِّ الجَميلِ

-٣٤٨-

قيلَ لي: أقلِل مِن الصَهباء وأقصِد في المُجون
أيُّ عُذرٍ لَكَ في هذا التَمادي والجنون؟
إنَّ عُذري ثغر محبوبي وجِريالُ صبوحي..
أيُّ عُذرٍ يا تُرى أوضَحُ مِن هذا يُكونُ؟!

-٣٤٩- ❋

قُم فأنجِز يا حَبيبَ الروحِ، إكراماً لقلبي

بِسَنا حُسنِكَ أدرِكْني، وفَرِّج لِيَ كُربي!
هاتِ كوزاً نَشربُ الراحَ بِهِ، يا وَثَني [١]
قَبلَ أن يَصطَنِعوا مِن طيننا كوزاً لِشُرْبِ!

-٣٥٠-

إتَّبع نهجَ دراويش الحُميّا الظُرفاء
لا تُرِد غير سُلافٍ، وحبيبٍ، وغِناء
إحتَمِل في الكَفِّ كأساً، وعلى المنكَبِ دِنّاً
وأشرَب الصَهباء يا حلو، ودَع قولَ الهُراء!

-٣٥١-

يا حبيبي فأسقِنيها، ما هنا وقتُ الكلامِ
ثغرُك المبتَسِمُ الليلةَ قوتي وطعامي!
أسكُب الصَهباء تذكو مثل خدَّيْكَ ونارك
فلَعمري تَوْبتي اليوم التَوَت مِثل عذارك!

-٣٥٢-

أشتهي ديوانَ شِعرٍ، معَهُ عُسٌّ مُدام
ورغيفاً، وكَفاني العيشَ مِن دُنيا الحُطام
عندها أمضي وإيَّاكَ إلى قفرٍ يَباب
ذاكَ أحلى لِيَ مِن مُلْك السَلاطين العِظام!

-٣٥٣-

(١) أي: يا دُمَيَتي.

أيُّها الساقي، تَعالَت نغمةُ الأشجانِ عندي
وتمادى السُكْرُ حتى لَتَعدّى كُلّ حَدِّ
خَفَّ بي الشَيْبُ، فمِن خمرك يا جَمّ الأيادي
رجَعَت شيخوخَة الرأسِ ربيعاً في فؤادي؟

-٣٥٤-

صادَ لي عِشقُك شَيْبي في أحابيلِ الدلالِ
يا أخا الحُسْنِ، وإلّا ما لصهباءَ وما لي؟
صاغَ عقلي تَوْبةً حَطَّمها رَبُّ الجمالِ
وأعَدَّ الصبرُ ثوباً شَقَّهُ كَرُّ الليالي!

-٣٥٥-

بَلغَت في الدينْ ثِنتَيْن وسَبعين المِلَل
فمِن المِلَّةِ لي عِشقُكَ دينٌ وأمَل
صاحِ ما كُفرٌ وإسلامٌ، وتَقوى وزَلَل؟
أنتَ أنتَ القصْدُ، فأرفع بيننا هذي العِلل!

-٣٥٦-

سوفَ تلقاني صَريعاً ذاتَ يومٍ بالمُدامَه
قد هوى رأسي على رِجلِكَ، مَهدور الكَرامة!
وهَوَت مِن قَبضتي الكأسُ، ومِن رأسي العِمامه
وَثَنِيّاً في هَوى وِجهُكَ، يا رَبَّ الوَسامة!

نُخب الأنخاب

-٣٥٧-

أنتِ يا خمرَ شَرابي الفاضِحي بينَ الصَحابِ
فَلْأُعاقِر مِنْكِ ما أخرجُ فيهِ عَن صَوابي!
فَيراني مَن يَراني من بعيدٍ فيُنادي:
عجباً، مِن أين تَأتينا أَيا ربَّ الشِراب؟

-٣٥٨-

مُذ بَدا الميزانُ في عَرضِ السَما والمُشتَري
ما رأى أحسَنُ مِن هذي الطَلا ذو بَصَرِ!
عَجَبي مِن بائع الصَهباء في غَفلَتِهِ
يا تُرى أفضلَ مِمّا باعَ ماذا يشتري؟

-٣٥٩-

هَتَكتْ أستارَنا بينَ الورى هذي الحُمَيّا
غير أنّي لستُ بالهاجِرُها ما دمتُ حَيّا!
عجباً للبائع الصَهباء في غَفْلَتِهِ
أتَراهُ يَشتري أفضلُ مِمّا باع شَيّا؟

-٣٦٠-

عندما آخذ في يمنايَ جاماً من شَرابِ
ومِن الغِبطة أَعدو ثَمِلاً ضاعَ صوابي

تَتأتى مَعجزاتٌ عدَّةٌ في كُلّ بابِ
من طباعٍ ليَ كالنارِ ونُطقٍ كالعُبابِ

- ٣٦١ -

إنْ حَسَا الصَهباء شحاذٌ أصارَتْهُ أميرا
أو حَساها ثعلبٌ أصبحَ ضرغاماً هصورا
أو حَساها الشيخُ رَدَّتُه غلاماً يافعاً
أو حَساها اليافعُ الغضُّ غدا شيخاً كبيرا

- ٣٦٢ -

إنها الجريال، لو صُبَّت على الطَوْدِ رقَص
فالذي ينتقصُ الصَهباء كان المُنتَقَص!
كيف تَدعوني إلى التَوبةَ منها يا صديقي؟
إنها روحٌ يُربّي النَّفسَ أو يَجلو الغصص!

- ٣٦٣ -

قلتُ: لَن أشربَ بعد اليومِ خمرا
إنَّما الخَمرُ دَم الكَرْم، فلا أحسو الدَما!
قالَ عقلي الشيخ: جِدٌّ مِنكَ هذا أم خُرافه؟
قلتُ: كَلّا بَل مُزاحٌ، كَيفَ لا أحسو السُلافه؟

- ٣٦٤ -

أنا لا أحتَملُ العَيش بلا خمرٍ تَضوعُ
لا ولا أحملُ جِسمي، فهوَ مجمولٌ فظيعُ

أنا أهوى حظَّةً يسألُني الساقيْ بِها:
قَدحاً آخرَ فأشَرب، وأنا لا أستطيع!

-٣٦٥-

كلما أشرَقَ صبحٌ واضحُ الغُرَّةِ أزرَقْ
فَضَعَنْ بينَ يَديكَ الراحَ في الجامِ المُروَّقْ
شاعَ بين الناسِ أنَّ الحَقَّ في الأفواهِ مُرٌ
فعلى هذا تكونُ الخَمرُ يا قومَ هيَ الحَقْ

-٣٦٦-

ظاهر الموجود والمعدوم أدرى كيفَ كانا
باطنُ الأرفَعِ والأوضَعِ لي إنحَلَّ وبانا
مع هذا العِلْم، فلأخجَل إذن مِن كُلّ عِلمي
إن أكُن أعرف فوقَ السُكْرِ في الدهرِ مكانا!

-٣٦٧-

يا خليليَّ إجعلا قوتيَ ما عِشتُ الحُمَيّا
تجعلا كهرب هذا الوجه ياقوتاً نَقياَ
ومتى حانَت وفاتي فاغسلوني بسُلافٍ
ومن الكَرْمِ أَعِدّوا ليَ تابوتاً سَويّا!

-٣٦٨-

دَوْحَ عُمري سوف يُستأصَلُ مِن رَوْضِ الحياةِ
ثُمَّ يَبلى جَسَدي الفاني، وتنحَلُّ رُفاتي

فإذا ما صَنعوا جامَ سلافٍ مِن تُرابي
عُدتُ حَيّاً فيهِ إنْ أَترَعْتموهُ بالشَراب !

- ٣٦٩ -

عندما أهوي برأسي تحتَ رجلِ الأرجِلِ
يوم يُستأصَلُ عُمري مِن جذورِ الأملِ
فأصنعوا باللهِ جاماً مِن تُرابي، فعساني
فيهِ أحيا كُلّما أترَعُ مِن بنتِ الدِنانِ

-٣٧٠-

هيّ فلأشرَب مِن الصَهباء ما يأتي شَذاه
مِن ثَرى لَحْدي مَتى أصبحتُ شِلواً في ثَراه
فإذا قادَت إلى رِمسي سكّيراً خُطاه
عادَ مِن ريحِ شرابي ثَمِلاً ظَلّ حَجاه!

-٣٧١-

حين أقضي فأطموا قبريَ بينَ الدارسين
واجعلوا سِيرة حالي عِبرةً للعالمين
ثم رشوا برحيث الخمرِ لحدي وتُرابي
وأصنعوا الآجرَّ من جسمي سِداداً للخَوابي!

-٣٧٢-

يا أحبائي، إذا مُتُّ فبالراحِ إغسلوني
ومتى لقَنتموني فبِخَمرٍ لقِّنوني

وإذا أحبَبتمُ في الحَشرِ أن تَلتَمسوني
فَتَحرّوا في ثَرى الحانوتِ عَنّي تَجدوني

-٣٧٣-

أيُّها الأخدان، إنّا ضمَّكُم مجلس أُنسِ
فأذكروا هذا الصديق الحُر، فالأيامُ تُنسي
ومتى عاقرتُم الصَهباء.، يا أحباب نَفسي
وأى في الشُرْبِ دَوري .. فأقلبوا بالله كأسي

-٣٧٤-

كلّما أَلَفَكُم بَعدي شَرابٌ أو دَدُ
فتملّوا بَعضكم مِن حُسِنِ بعضِ، وأسعَدوا!
وإذا طافَت كؤوس الراحِ بينَ النُدماء
فأذكِروا هذا الفَتى المِسكين أيضاً في الدُعاء!

١٢
سِتار الخِتام

-٣٧٥-

إنَّ مَن هُم في الحوانيتِ سُكارى لا يَعون
والمُقيمين الليالي، من سُجَّداً لا يَهجعون
ما بِهم ناجٍ، فهَم في اللُّجِ غرقى أجمَعون
واحدٌ يقضان والباقون صَرعى نائمون

-٣٧٦-

ليسَ في الدَّيْرِ ولا المسجِدِ يا صاحِ مكاني
خالقي يعلمُ ما كُنْهُ ثَرى مِنهُ بَراني
كفقيرٍ كافرٍ، أو مومِسُ شَوْهاءَ شاني
قد عَدمتُ الدينَ والدُنيا، وآمال الجِنانِ! ..

-٣٧٧-

إنْ أَكُن سَكران مِن خَمرِ المَجوس الكافرين
أو أَكُنْ صَبَّاً خليعاً، مارِقاً لا لِيَ دين
فَلْأَكُنْ.. كُلّ فريقٍ لَهُمُ فيَّ ظِنون
بَيْدَ أَنّي مِلْكُ نفسي.. كيفما شِئتُ أكون!

مقارنة بين
تفكير الخيام وتفكير المعرّي

قارَن الكثيرون بين أقوال الحَكيمَين مقارنات ليست بالوافية، فأحببتُ أن أتوسَّع في الأمرِ من غير إسهاب. وفيما يلي طائفة من أشعار المعرّي تَوخّيتُ السهولة والوضوح عند إختيارها من اللزوميات أو الذاكِرة. وأكثرَها يُشابه رباعيات الخَيّام، ومنها ما يُقارِبُها، ومنها ما يُناقِضُها، ومنها ما يبدو كأنَّهُ تعقيبٌ عليها، ومنها ما يُذكِّر ببعض ألفاظَها.

وأنا أتركُ للقارئ أن يُقارِن ويَستخلِصُ لنفسِهِ ما يشاء. ولكنَّ مِن الحَقِّ عليَّ أن أُذَكِّرُهُ أنَّ هذه المُقارنة مُجحِفة بالمعرّي، لأن لهُ مِن جوانب الفلسفة وروائع القَول ما لَمْ تُدْعُ المناسَبة إلى ذكرِهِ هُنا.

الرباعية

(١) قال المعرّي:

بَني زمني، هل تعلمون سرائراً
علمتُ، ولكني بها غيرُ بائحِ؟
إذا قلتُ المُحالَ رفعتُ صَوتي
وإن قُلتُ اليقينَ أطلتُ هَمسي!
ما لي رأيتُ دُعاةُ الشَرِّ ناطقةً
والرُشْدُ يَصمت خَوْف القَتْلِ داعوهُ؟
إلى اللهِ أَشكو مهجةً لا تُطيعُني
وعالَمَ سوءٍ ليسَ فيهِ رشيدُ
حَجى مِثلَ مَهجور المنازلِ داثرٌ
وجَهلٌ كمسكون الديارِ مَشيدُ

(٢) قال المعرّي:

وعندي لو أَمِنْتَكَ عِلمَ سِرٍّ *** عَن الجُهّالِ غَيَّبَهُ مُكِمُّ

(٣) قال المعرّي:

لا تُقيّد على لفظي فإنّي *** مِثلُ غيري تكَلُّمي بالمجازِ!
ولِي سِرٌّ ليسَ يُمكِنُ ذِكرُهُ *** يَخْفى على البُصَراءِ وهو نَهارُ
أما الهُدى فَوجدْتُهُ ما بَينَنا *** سِرّاً ولكنَّ الضَلالَ جَهارُ

(٤) قال المعرّي:

أكتم حديثَكَ لا يَشعر بِهِ أحدٌ *** من رَهط جِبريل أو من رَهطِ إبليسِ

(٦) قال المعرّي:

لا تَدْنوَنَّ مِن الشِرورِ وأهلِها *** فَتكونَ عَن أهلِ العُلى مُتباعِدا

(٧) قال المعرّي:

إجتَنِبْ الناسَ وعِش واحداً *** لا تَظلم الناسَ ولا تُظلَمِ
فَلا يَغرُركَ بِشرٌ مِن صَديقٍ *** فَإِنَّ ضَميرَهُ إِحَنٌ وَخَبُّ

(١١) وأكثَر المعرّي مِن ذم الزواج وعدد مساوئه ومشاكل الولد ولا سيما البنات. ولنترك التفاصيل ونَجتَزئ بقوله في النساء:

لا تَدْنُوَنَّ مِنَ النِساءِ *** فإنَّ غُبّ الأمرِ مُرُّ!

وقوله فيهن وفي الولد:

صحِبنكَ فاستفدتَ بهنّ وُلداً *** أصابكَ من أذاتك بالسّماتِ
ومَنْ رُزِق البنين فغيرُ ناءٍ، *** بذلك، عن نوائبَ مُسقِماتِ
ومَن رُزِقَ البنات فأيُّ بؤسٍ *** تَبَيَّنَ في وجوهٍ مُقسماتِ

(١٢) و(١٣) قال المعرّي:

أُولو الفضلِ، في أوطانهم، غرباءُ، *** تشِذّ وتنأى عنهمُ القُربَاءُ
فما سبأوا الراحَ الكُمَيْتَ لِلذّةٍ، *** ولا كان منهم، للخِرادِ، سِباءُ
وحسبُ الفتى من ذلّةِ العيش أنّه *** يروحُ بأدنى القوت، وهو حِباءُ

(١٤) و(١٥) قال المعرّي:

والعقلُ زينٌ، ولكن فوقَه قَدرٌ*** فما لهُ في إبتغاء الرزق تأثيرُ
هُوَ الرِزقُ يُجريهِ المَليكُ وَلَن تَرى *** أَخا عيشَةٍ بِالحِرصِ يُسقى ويُطعَمُ.

(١٧) قال المعرّي:

تَوَحَّد فإن الله ربك واحدٌ *** ولا تَرْغَبَنْ في عِشرَةِ الرؤساءِ

(٢٠) قال المعرّي:

لَو لَم تَكُن في القومِ أصغَرَهم *** ما بانَ فيكَ عليهمُ كِبْرُ!

وقد أخَذهُ عن قول عمر بن الخطاب:

«ما رأيتُ إمرِءاً يَتزيَّد إلّا لِنقْصٍ يجدهُ في نَفسِه» ولعلّهُ في هذا أسبَق مَن تكلَّم على ما يُسمّونَهُ "مُرَكَّب النقص"

(٢٢) قال المعرّي:

مِن مذهبي أن لا أشُدّ بفِضّةً *** قَدَحي، ولا أُصغي لشَربِ مُعَوَّجِ
لكن أقضي مدتي بتقنع *** يُغني، وأفرح بالأسير الأروج
هذا ولستُ أوُدُّ أنّي قائِمٌ *** بالمُلْكِ في ثَوْبي أغَرّ مُتَوَّجِ

(٢٤) قال المعرّي:

وإنَّما ساسَكُمُ دائِبٌ *** يَرعى المطايا ويسوق الحَمير

(٢٩) قال المعرّي:

وقَد فتَّشْتُ عَن أصحابَ دينٍ *** لهُم نُسكٌ وليسَ لهُم رِياءُ
تسترّوا بأمورٍ في ديانَتِهِمْ، *** وإنّما دينُهُمْ دينُ الزّناديقِ
نُكَذّبُ العقلَ في تَصديقِ كاذبهم؛ *** والعَقلُ أولى بإكرامٍ وتَصديقِ!

(٣٠) قال المعرّي:

يحرّم فيكمُ الصهباءَ صُبْحاً، *** ويشربُها، على عمدٍ، مساءَ
يقولُ لكُم: غَدَوْتُ بِلا كِساءٍ، *** وفي لذّاتِها رهَنَ الكِساءَ
إذا فَعلَ الفتى ما عَنْهُ يَنهى، *** فمِن جِهتَينِ، لا جِهةٍ، أساءَ

(٣٣) قال المعرّي:

وَلَيسَ عِندَهُمُ دينٌ وَلا نُسُكٌ *** فَلا تَغِرَّكَ أَيدٍ تَحمِلُ السُبَحا
وَكَم شُيوخٍ غَدَوا بيضاً مُفارِقُهُم *** يُسَبِّحونَ وَباتوا في الخَنا سُبُحا
لَو تَعقِلُ الأَرضُ وَدَّت أَنَّها *** صَفِرَت مِنهُم فَلَم يَرَ فيها ناظِرٌ شَبَحا
إنّما هذهِ المذاهبُ أسبا *** بٌ لجذبِ الدنيا إلى الرؤساءِ

(٣٤) قال المعرّي:

رُوَيدكَ قد غُررتَ، وأنتَ حرٌّ *** بصاحب حيلةٍ يعظ النّساءَ.
يحرّم فيكمُ الصهباءَ صُبْحاً *** ويشربُها، على عمدٍ، مساءَ.
تحسّاها، فمِن مزجٍ وصِرْفٍ *** يَعُلُّ، كأنَما وَرَدَ الحِساءَ.
كم قائِمٍ بِعظاتِهِ مُتَفَقِّهٍ في *** الدّينِ يوجَدُ حينَ يُكشَفُ عاهرا

(٣٧) قال المعرّي:

قَد حُجِبَ النورُ وَالضِياءُ *** وَإِنَّما دينُنا رِياءُ
يا عالمَ السَّوءِ ما عَلِمنا *** أنّ مُصَليّكَ أتقياءُ.
لا يكذِبَنّ أمرؤ جُهولٌ *** ما فيك للهِ أولياءُ
تأمُرُنا بالزّهدِ في هذهِ الـ *** ـدّنيا، ما هَمُّكَ إلاّ هِيْ
إذا رام كيداً بالصلاةِ مُقيمُها *** فتاركُها عمداً إلى اللّه أقرَبُ.

(٣٨) قال المعرّي:

لحا الله إذاجئتهم بصـ *** ـدق الأحاديثِ قالوا: كَفَر

(٣٩) قال المعرّي:

ولا تحسب مقال الرُسْلِ حقاً *** ولكن قولَ زورٍ سَطَروه

(٤٤) قال المعرّي:

هَفَتْ الحنيفةُ والنصارى ما إهْتَدتْ *** ويهودُ حارَت والمجوسُ مُضَلَّلهْ
إثنانِ أهلُ الأرضِ: ذو عقلٍ بلا ديـنٍ *** وآخرَ ديّنٌ لا عقلَ لهْ.

(٤٦) قال المعرّي:

أفِيقوا أفِيقوا يا غُواةُ! فإنَّما*** دِياناتكمْ مَكْرٌ مِن القُدَماءِ.
أَرادوا بِها جَمعَ الحُطامِ فَأَدرَكوا. *** وَبادوا وَماتَت سُنَّةُ اللُؤَماءِ.
إذا رَجعَ الحَصيفُ إلى حجاهُ *** تهاوَنَ بالشرائِعِ وإزدَراها

(٤٧) قال المعرّي:

والخير أفضل ما إعتقدتَ، فلا تَكُن *** هملاً وصِلّ بقبلَةٍ أو زَمزَمِ

والزَمزَم هي صلاة المجوس على الطعام.

ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمونَ لَهُ *** ولا صلاةٌ، ولا صوفٌ على الجَسِدِ
وإنَّما هو تَركُ الشَرّ مُطَّرحاً *** ونَفْضَكَ الصَدرَ مِن غِلٍ ومِن حَسَدِ
ما دامت الوحشُ والأنعام خائفةً *** فَرْساً فَما صَحَّ أمر النُسْكِ للأسدِ!

والفَرْس مِن وزن قَوْس: الإفتراس.

(٤٨) قال المعرّي:

وأفعَلِ الخيرَ فالحديـــ..... ـث كثيرٌ قد إختلف!

(٤٩) قال المعرّي:

إن العقول تقول موليةً *** ليسَ الأنامُ كنابِت البَقَلِ

مولية: حالفة. ولا يظهر من سياق الشعر قصده من نفي الشبه بين الأنام ونابِت البقل، مع أنه أثبت هذا الشبه في أماكن أخرى من لزومياته. ولكن حسبنا إتفاق هذا البيت مع الرباعية في ابتدائهما بالعقل وانتهائهما بالبَقل، وأن الأول يؤكد أن الإنسان لا يَشبه الثاني.
ولعَلَّ غَرض الحَكيمَيْن واحد.

(٥٠) قال المعرّي:

حياة ثم موث ثم نَشرُ *** حديثَ خُرافَةٍ يا أُمَّ عمرو!

(٥١) قال المعرّي:

دَفَنّاهُمُ في الأرضِ دَفنَ تَيَقُّنٍ *** ولا عِلْم بالأرواحِ غيرَ ظُنونِ!

(٥٢) قال المعرّي:

جَسَدٌ مِن أربعٍ تَلْحَظُها *** سبعةٌ راتِبَةٌ في إثْنَيْ عَشَر

قَصَد الشيخان: العناصر الأربعة والأفلاك السبعة. وزادَ المعرّي هنا الشهور الأثني عشر، وزاد الخَيّام في مواضع أخرى الحواس والجهات الست. ويقول المعرّي على عادته متردداً في أمر البعث:

زَعَم الفلاسفةُ الذينَ تَنطَّسوا *** أن المنيّة كسرها لا يجبرُ

مع أننا رأيناهُ - آنفاً - يذهب أحياناً مذهب هؤلاء الفلاسفة الذين تَنطَّسوا.

(٥٦) قال المعرّي:

لَعَلَّ أُناساً في المَحاريبِ خَوَّفوا. *** بِآيٍ كَناسٍ في المَشارِبِ أَطرَبوا.
مَساجِدَكمْ ومواخيرَكُمْ *** سَواءٌ فبُعداً لكُم من بَشَر

(٦٣) قال المعرّي:

إن كانَ مَن فَعَلَ الكَبائِرَ مُجبَراً *** فَعِقابُهُ ظُلمٌ عَلى ما يَفعَلُ.
وَاللهُ إذ خَلَقَ المَعادِنَ عالِمٌ *** أَنَّ الحِدادَ البيضَ مِنها تُجعَلُ.

(٦٤) قال المعرّي:

وما فَسَدَتْ أخلاقُنا باختيارِنا *** ولكنْ بأمرٍ سبّبْتْهُ المقادرُ.
فَقُل لِلغُرابِ الجَونِ إن كانَ سامِعاً *** أَأَنتَ عَلى تَغيِيرِ لَونِكَ قادِرُ

(٦٥) قال المعرّي:

ما بِاختِياري ميلادي وَلا هَرَمي *** وَلا حَياتي فَهَل لي بَعدُ تَخييرُ.

(٦٦) قال المعرّي:

أرى شَواهِدَ جَبرٍ، لا أُحَقِّقُهُ ***كأنّ كُلاًّ، إلى ما ساءَ، مَجرورُ.

(٦٩) قال المعرّي:

عُيوبي إن سَأَلتَ بِها كَثيرٌ *** وَأَيُّ الناسِ لَيسَ لَهُ عُيوبُ

(٧٢) هذه الرباعية يعزوها بعضهم إلى الخواجه نصر الدين الطوسي.

(٧٣) قال المعرّي:

جِبِلّةٌ، بالفَسادِ، واشْجَةٌ *** إنْ لامَها المَرءُ لامَ جابلَها

(٧٦) قال المعرّي:

إن أَدخُلِ النارَ فَلي خالِقٌ *** يَحمِلُ عَنّي مُثقَلاتِ العَذاب
يَقدِرُ أَن يُسكِنَني رَوضَةً *** فيها تَرامى بِالمِياهِ العِذاب.

(٨٣) قال المعرّي:

أرواحنا معنا وليس لنا بها *** عِلْمٌ فكيفَ إذا حَوَتْها الأقبرُ؟

وربما كان الأصح (إذا حوتنا الأقبر)

(٨٤) المعرّي هنا يُخالِف الخَيّام ويُناقِضه:

أَثْبَتُّ لي خالقاً حكيماً *** ولستُ من معشرٍ نُفاة

(٨٥) ويُخالِفُهُ هنا أيضاً:

أقرُّ بأنَّ لي رباً قديراً *** ولا أَلقى بدائِعِهِ بجحْدِ

(٨٦) قال المعرّي:

توقّعوا من دَهرِهِم عَدلَهُ *** والدهرُ لا يُحسِن أن يَعدِلا
في كُلِّ دَهْرٍ جَنَفٌ كامنٌ *** والنَّحْس في المَوْلِدِ والسَّعدِ لا

(٨٨) ترجمة النص الفارسي للشطر الرابع:
(الأَوْلى أَن يُسَلَّح على فَلَكٍ كهذا) وقد هَذَّبناه.

(٩١) قال المعرّي:
والدهرُ لا يَدري بما هو كائن *** فيهِ فكيفَ يُلامُ فيما كانا ؟

(٩٢) قال المعرّي:
خَرَجتُ إلى ذي الدارِ كُرهاً وَرِحلَتي *** إلى غَيرِها بِالرَغمِ وَاللَهُ شاهِدُ.
نُفارِقُ العَيشَ لَم نَظفَر بِمَعرِفَةٍ *** أَيُّ المَعاني بِأَهلِ الأَرضِ مَقصودُ.
لم تُعْطِنا العلمَ أخبارٌ يَجيء بها *** نَقْلٌ ولا كوكبٌ في الأرضِ مرصودُ

(٩٤) قال المعرّي:
ولم يَدرِ لمّا أنْ أتاها، ولا دَرى*** إلى أينَ يَمضي، فاستكانَ مُدبَّرا

ولكنه يقول في مكان آخر وتساؤل وكأنه يجيب على تساؤل الخَيّام وتساؤل نفسه:
نَمُرُّ سِراعاً بينَ عُدْمين ما لنا *** لِباثٌ كأنّا عابِرونَ على جسرِ

(٩٥) قال المعرّي:
وركبٌ وارِدٌ ليُقيمَ عَصراً *** وآخَرُ قد أجَدّ بهِ الرّحيل

(٩٦) قال المعرّي:
فهل قامَ من جدثٍ مَيّتٌ *** فيُخبِرُ عَن مَسْمَعٍ أو مَرا

وقال عن الموتى:

طَلَبْتُ يَقِيناً منْ جُهَيْنَةَ عَنْهُمُ *** وَلَنْ تُخْبِرِينِي يا جُهَيْنَ سِوَى الظَنِّ
فإن تعهديني لا أزال مُسائلاً *** فإنّيَ لم أُعطَ الصَّحيحَ فأستغني

(٩٧) قال المعرّي:

وما تُريدُ بدارٍ لستَ مالكها *** تُقيمُ فيها قليلاً ثُمَّ تَنطَلِقُ ؟

(٩٩) قال المعرّي:

اللهُ صَوَّرَني وَلَستُ بِعالِمٍ *** لِمَ ذاكَ سُبحانَ القَديرِ الواحِدِ

(١٠٠) قال المعرّي:

رَيْبُ الزّمانِ مُفَرّقُ الإلْفَيْنِ *** فاحكُمْ إلهي بين ذاكَ وبيني
أَنهَيْتَ عن قتْل النُّفُوس تعمُّدا *** وبَعَثْتَ أنتَ لقَبْضها مَلَكَيْنِ
وَزَعْمتَ أنّ لها مَعَادا ثانيا *** ما كان أغناها عن الحالَيْنِ

(١٠٢) قال المعرّي:

ويجهلُ حتى يسألَ الفَلَكَ، الذي *** يدورُ عليهِ، كيفَ بَدءُ مَدارِهِ.
وتَشاجروا في قُبّةِ الفلكِ التي*** ما زالَ يَعظُمُ في النّفوسِ عَمودها
فيقولُ ناسٌ: سوفَ يُدرِكها الردى *** ويمينُ قومٍ: لا يَجوزُ هَمودَها

يَمينُ: يَفتَري

(١٠٤) قال المعرّي:

سألْتُموني فأعْيَتني إجابَتُكُم *** مَن إدَّعى أنَّهُ دارٍ فَقد كَذِبا

(١٠٥) قال المعرّي:

أمّا اليقينُ فلا يقينَ وإنَّما *** أقصى إجتهادي أنْ أَظُنّ وأحدِسا
نقولُ على المجازِ وقد عَلِمنا *** بأنَّ الأمرَ ليسَ كما نقولُ

(١٠٦) قال المعرّي:

جميعُنا يُخبِطُ في حِنْدسٍ *** قدِ اسَتوى النّاشئُ والكَهلُ

(١٠٧) قال المعرّي:

وما جَدَلُ الأقوامِ إلّا تَعلَّة *** مُصَوَّرةٌ مِن باطلٍ مُتَوهَّمِ

(١٠٨) قال المعرّي:

وبصيرُ الأقوام مثليَ أعمى *** فهَلمّوا في حَندَسِ نَتصادمُ!

(١١٢) قال المعرّي:

غدَوتَ مريضَ العقلِ والدّينِ فالقَني *** لتسمعَ أنباءَ الأمورِ الصحائحِ

(٢١٦) قال المعرّي:

وأشهدُ أنَّني غاوٍ جَهولُ *** وإنْ بالغْتُ في بَحْثٍ ودَرسِ

(١١٧) قال المعرّي:

إذا كانَ عِلمُ الناسِ لَيسَ بِنافِعٍ. *** وَلا دافِعٍ فَالخُسرُ لِلعُلَماءِ.
إذا عِلميَ الأشياءَ جَرّ مَضَرّةً *** إليّ فإنّ الجَهلَ أن أطلبُ العِلما

(١١٨) قال المعرّي:

أما الصحاب فَقد مَرّوا وما عادوا *** وبينَنا بِلقاءِ الموتِ ميعادُ
أُعلِّل مُهجَتي ويصيحُ دهري *** ألا تَغدو؟ فَقد ذَهبَ الرِفاقُ!

(١٢١) قال المعرّي:

صَاحِ هَـذِي قُبُورُنا تَمْلأ الرُّحْبَ *** فـأينَ الـقُبُورُ مِنْ عَهدِ عادِ

(١٢٢) قال المعرّي:

وَمِن شِيَمِ الأَيّامِ وَهيَ كَثيرَةٌ *** فَناءُ كَبيرٍ وَاقتِبالُ غُلامِ
فَهادِجٌ حامِلُ عُكّازَةٍ *** وَفارِسٌ مُعتَقِلٌ صُعدَه
وَآخَرٌ يُدرِكُ مَن قَبلُهُ *** وَيَترُكُ الدُنيّا لِمَن بَعدَه
قُدومُ أَصاغِرٍ وَرَحيلُ شيبٍ *** وَهِجرَةُ مَنزِلٍ وَحُلولُ رَمسِ

(١٢٤) العير من وزن طير: الحمار الوحشي. يقابلها في الفارسية «كور» من وزن نور، وهي تعني العِير والقبر معاً، وقد إستعملها الخَيّام لكليهما في هذه الرباعية، فأصبحَ «الكور» مصيداً وصائداً.

ولم نستطع نقل هذا الجِناس التام الى العربية إلّا بهذا الجناس الضئيل بين كلمتي العير والقبر، على أنه جاء عفواً.

(١٢٥) كلمة «كو؟» الفارسية من وزن ذُو، تعني ا(أين؟)ا وترجمة الشطر الرابع من الرباعية هي «قعدت تقول: كو كو كو كو؟» يعني «أين، أين، أين، أين؟». ولم يستطِع أحد ترجمة هذا التوافق الممتع بين المعنى وحكاية صوت الفاختة إلى أيَّةٍ من اللغات.

(١٢٧) قال المعرّي:

من دِيارٍ قد جاءَها القادِمُ الآ *** تي، فلَم يَعتَبِرْ بمنصَرِفيها

(١٢٨) قال المعرّي:

قد كانَ قَبلُكَ ذادَةٌ ومَقاولٌ *** ذادوا ومَا صَرَف، الخُطوبَ ذِيادُ
وما الناسُ إلّا خالِفٌ بَعدَ سالِفٍ *** كذلك نَبْتُ الأرضِ يَخلِفُهُ النّبْتُ

(١٢٩) قال المعرّي:

خَفّفِ الوَطْء ما أظُنّ أدِيمَ الأَ *** رْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأجْسادِ
وقَبيحٌ بنَا وإنْ قَدُمَ العَهْدُ *** هَوَانُ الآبَاءِ والأجْدادِ.
سِرْ إنِ اسْطَعتَ في الهَوَاءِ رُوَيداً *** لا اخْتِيالاً عَلى رُفَاتِ العِبادِ.

على أنه ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى أحياناً فيقول:

طَأ بالحوافرِ قَتْلَى في مَصارِعِها *** فالجِسمُ، بعدَ فراق الرّوح، كالمَدرِ

(١٣١) قال المعرّي:

ولو أنّي أُعَدُّ بألفِ بحرٍ *** لَمَرَّ عَليَّ موتٌ فإحتساني!

(١٣٢) قال المعرّي:

سَرى الموتُ في الظلماءِ والقومُ في الكَرى *** وقامَ على ساقٍ، ونحنُ قُعودُ
وَتَأكُلُنا أيّامُنا فكَأنّما *** تَمُرُّ بِنا الساعاتُ وَهيَ أُسودُ

(١٣٣) قال المعرّي:

نُرِدّ إلى الأصولِ وكُلُّ حَيٍّ *** لهُ في الأربعِ القِدمِ إنتِسابُ

(١٣٤) قال المعرّي:

نَمتازُ من أُمّنا الغَبراءِ حاجتَنا *** وللبسيطَةِ مِن أجسادِنا مِيَرُ
وما الأرضُ إلّا مِثلُنا الرِزقَ تَبتَغي *** فتَأكلُ مِن هذا الأنامِ وتَشرَبُ! فلا أُغْرَرْ
إذا أَجَلي خَطاني *** سيأتي الموتُ أَغفَلُ ما أَكونُ!

(١٣٥) قال المعرّي:

وما نُفيقُ مِن السُكرِ المُحيطِ بنا *** إلّا إذا قِيلَ هذا الموتُ قَد جاءا

(١٣٦) قال المعرّي:

وشُخوصُ أقوامٍ تَلوحُ، فأمةٍ *** قَدِمَت مُجَدِّدَةً وأخرى تَهلَكُ

(١٣٧) قال المعرّي:

والتُرْبُ مثوايُ ومثراهُمُ *** وما رَأينا أحداً مِنهُ قامْ

(١٤٢) قال المعرّي:

فلا يُمسِ فخّاراً من الفَخْرِ عائدٌ *** إلى عنصر الفخّار، للنفعِ يَضرَبُ
لعلّ إناءً منه يُصنَعُ مرّةً *** فيأكلُ فيهِ من أرادَ ويشربُ
ويُحْمَلُ مِن أرضٍ لأُخرى وما دَرى *** فواهاً لهُ، بعدَ البِلى، يَتغرّبُ

(١٥٠) قال المعرّي:

لَعلَّ مفاصِل البَنَّاء تَضحى *** طلاءاً للسقيفَةِ والجِدارِ

(١٥٢) قال المعرّي:

وكَمْ وَطِئَت أقدامُنا في تُرابِها *** جبينَ أخي كِبَرٍ وهامةَ أبلَجِ
سِرْ إن أسْتَطعْتَ في الهواءِ رُويداً *** لا إختِيالاً على رُفاتِ العِبادِ

(١٥٤) قال المعرّي:

وما الناسُ إلّا خالِفٌ بَعدَ سالِفٍ *** كذلك نَبْتُ الأرضِ يَخلِفُهُ النّبْتُ

(١٥٧) قال المعرّي:

نَمضي ونَتْرِكُ البلادَ عريضةً *** والصّبحَ أنوَرَ، والنّجومَ زواهِرا
وَما عالمي إنْ عِشتُ فيهِ بزائدٍ *** ولا هوَ إن أُلقيتُ منهُ بناقصِ
نَزولُ كما زالَ آباؤنا *** ويبقى الزمانُ على ما تَرى

(١٥٨) قال المعرّي:

أَمّا الصَحابِ فَقَد مَرّوا وَما عادوا *** وَبَينَنا بِلِقاءِ المَوتِ ميعادُ
سِرٌّ قَديمٌ وَأَمرٌ غَيرُ مُتَّضِحٍ *** فَهَل عَلى كَشفِنا لِلحَقِّ إِسعادُ
مَضَتْ قرونٌ، وتَمضي بعدَنا أُمَمٌ *** والسّرُّ خافٍ إلى أَن يُنفخَ الصّورُ

(١٥٩) قال المعرّي:

وقَد تَعوَّضتُ عَن كُلِّ بمُشبِهِ *** فما وجدتُ لأيامِ الصِبا عِوَضا
سارَ الشبابُ فلَمْ نعرِف لهُ خبراً *** ولا رَأينا خَيالاً مِنهُ مُنتابا

(١٦٠) قال المعرّي:

لونانِ من ليلٍ وصُبحٍ لوّنا *** شَعري، وأضعَفَني الزّمانُ الأيّدُ
جِسمِيَ أَودى مَرُ السِنينَ بِهِ *** فَلتَطلُبِ النَفسُ مَنزِلاً بَدَلَه
والجسمُ للرّوحِ مثلُ الرَّبع تسكُنُه *** وما تُقيمُ، إذا ما خُرّبَ الجسدَ

(١٦١) قال المعرّي قريباً من معنى الشطرين الأولين:

دُنياكَ دارُ شرورٍ لا سرورَ بها *** وليسَ يَدري أخوها كيفَ يحترسُ
عَرَفتُ سَجايا الدَهرِ أَمّا شُرورُهُ *** فَنَقدٌ وَأَمّا خَيرُهُ فَوُعودُ

(١٦٣) قال المعرّي:

وقَد بَلَوْنا العيشَ أطوارَهُ *** فَما وَجدنا فيهِ غيرَ الشَقاء

(١٦٤) قال المعرّي:

وَشَبَّ وَشابَ وَأَفنى الشَبابَ *** وَسَقياً لَهُ مِن خِضابٍ نَصَل
وَمِن بَعدِ ذاكَ يَجيءُ الحِما *** مُ فَانظُر عَلى أَيِّ شَيءٍ حَصَل

وقال يُخاطب الدُنيا:

وظلمٌ أنْ أُحاوِلَ فيكِ رِبحاً *** ولَم أخرُجْ إليكِ برأسِ مالِ

(١٦٥) قال المعرّي:

تَعبٌ كُلّها الحياةُ، فَما أعـ *** ـجَبُ إلّا مِن راغِبٍ بِازدياد

(١٦٦) قال المعرّي:

حَياةٌ كَالحِبالَةِ ذاتُ مَكرٍ *** وَنَفسُ المَرءِ صَيدٌ أَعلَقَتهُ
فَلَكٌ يَدورُ عَلى مَعاشِرَ جَمَّةٍ *** وَكَأَنَّهُ سِجنٌ عَلَيهِم مُطبَقُ

على أنه يُبشِّر الطائر الذي أعلقته حَبائل الحياة بالخلاص، ولكن في سُخرية عنيفة قاسية؛ فيقول:

يا طائِراً مِن سُجونِ الدَهرِ في قَفَصٍ *** لِتُذبَحَنَّ فَلا سِجنٌ وَلا شَرَكُ

(١٦٧) قال المعرّي في معنى الشطرين الأولين:

تَقْفونَ، والفَلَكُ المُسَخَّرُ دائِرُ *** وتُقِدِّرون، فتضحكُ الأقدارُ

(١٧٠) قال المعرّي:

ليتَ الفَتى كالبدرِ جُدِّدَ عُمرهُ *** يعودُ هِلالاً كُلّما فُنِيَ الشَهرُ

(١٧٤) قال المعرّي:

وهذهِ الدُنيا على أنَّها *** مَحبوبَةٌ لَم تُخلِنا مِن أَلَمْ

(١٧٥) قال المعرّي:

وما أؤمِّل عندَ الدَّهرِ مَصلحةً *** وإنَّما هو إتلافٌ وإفسادُ

(١٧٦) لم أتبَيّن سِر التَناقُض بين أوّل الرباعية الذي يدعو المرء إلى العزوف عن الدنيا وآخرها الذي يَحثّه على إختطاف حَظّه منها.

(١٧٧) قال المعرّي:

سَل الفؤادَ عَن الحاةِ *** فإنَّها شَرٌّ وشُرٌّ

قد نِلْتَ منها ما كَفاكَ *** فَما ظَفَرْتَ بِما يَسَر

والشُر بظم الشين: العيب.

(١٧٨) قال المعرّي:

مَن يَغتَبِط بِمَعيشَةٍ فأمامَهُ *** نُوَبٌ تُطيلُ عَناءُهُ فَجَعاتها

(١٧٩) **قال المعرّي:**

أَصاحِ هِيَ الدُنيا تُشابِهُ ميتَةً *** وَنَحنُ حَوالَيها الكِلابُ النَوابِحُ
فَمَن ظَلَّ مِنها آكِلاً فَهوَ خاسِرٌ *** وَمَن عادَ عَنها ساغِباً فَهوَ رابِحُ
فَمَن لَم تَبَيَّتهُ الخُطوبُ فَإِنَّهُ *** سَيَصبَحُهُ مِن حادِثِ الدَهرِ صابِحُ
تَزَوّجَ، دُنياهُ، الغبيُّ بجهلِه *** فَقَد نَشَزَتْ مِن بَعد ما قُبِضَ المَهْرُ عرفتُ مِن أُمِّ
دَفترِ شِيمَةً عَجَبا *** دلَّت على اللؤمِ وهيَ العُنف بالخَدَمِ
ومَن يُهِنْها تُصِنْهُ عَن مَكارِهِها *** بعضَ الصِيانة فارضها بِلا نَدَمِ
وما لِنفسي خَلاصٌ مِن نوائِبِها *** ولا لغيريَ إلّا الكَوْن بالعَدَمِ

(١٨١) **قال المعرّي:**

تَغَيَّبتُ في مَنزِلي بُرهَةً *** سَتيرَ العيوبِ فَقيد الحَسَدْ
إذا ما شِئْتُمُ دِعَةً وخَفضا *** فَعيشوا في البَرِيّةِ خَامِلينا

(١٨٦) **قال المعرّي:**

تَسمّى سُروراً جاهلٌ متخرّصُ *** بفِيهِ البَرى هَل في الزَمانِ سرورُ؟
نَعَم ثَمَّ جزءً من نفوسٍ كثيرةٍ *** مِن الخَيرِ، والأجزاء بعدُ شرورُ!

(١٩٠) **قال المعرّي:**

ألا إنما الدُنيا نُحُوسٌ لأهلها *** فَما في زَمانٍ أنتَ فيهِ سَعودُ
جَيْبُ الزمانِ على الآفات مزرورُ *** ما فِيهِ إلّا شَقيُّ الجَدِّ مَضرورُ

(١٩١) **قال المعرّي:**

مَتى ملأت كَفَّيكَ دُنياكَ أرسَلَتْ *** مُلِمّاً يُعيدُ الكَفَّ مِن جودِها صِفرا

كأنّ وليداً، ماتَ قبلَ سُقُوطِهِ *** على الأرضِ، ناجٍ مِن حِبالتهِ طَفرا
وألقاكَ فيها والداكَ، فلا تَضَعْ *** بها ولداً، يَلقى الشّدائدَ والنُّكرا
وأرحتُ أولادي، فَهُمْ في نعمةِ الـ ***ـعدمِ، التي فضَلَتْ نَعيمَ العاجلِ

(١٩٢) قال المعرّي:

حَياةٌ وَمَوتٌ وَانتِظارُ قِيامَةٍ *** ثَلاثٌ أَفادَتنا أُلوفَ مَعانِ
أَلَم تَرَ عالَماً يأتي ويمضي *** سِواه كأَنَّهُ مَرْعيٌّ بَقْلِ؟
وَكَيفَ أُجيدُ في دارٍ بِناءً *** وَرَبُّ الدارِ يُؤذِنُني بِنَقلِ
أهذي الدّارُ مُلكٌ لابنِ أرضٍ *** بها رامَ المُقامَ أم اكتراها؟
وما تُريدُ بدارِ لستَ مالِكها *** تُقيمُ فيها قَليلاً ثم تَنطَلِقُ؟

(١٩٣) قال المعرّي:

لِنفسيَ أَنْ تَنأى عَن الجِسمِ رَوعةٌ *** كروعة أنثى أُجلِيَت عن دِيارِها
فإن رَحَلت بالرغْمِ عَن مُستقرّها *** فما كانَ سُكناها لَهُ بإختِيارِها
وَرَدْتُ إلى دارِ المصائِبِ مُجبَراً *** وأَصبحْتُ فيها ليسَ يَعجبُني النَقْلُ

(١٩٤) قال المعرّي:

أرانيَ غمراً بالأمورِ، ولَم أزَلْ *** أجوبُ دُجاها أو أخوض غِمارَها

(١٩٦) قال المعرّي:

والخَيرُ والشَرّ ممزوجانِ ما إفتَرقا *** فكل شَهْدٍ عَليهِ الصابُ مذرورُ

(١٩٧) كأن الخَيّام يُريد في هذه الرباعية أن يُحَلِّل تَركيب الإنسان

إلى عَناصرِهِ الأولى على نظرية العناصر الأربعة فالنار قَلبَه، والماء دموعه، والهواء حَياته، والتُراب مثواه! ... ولَعلَّهُ قَصَد نَفس المعنى في الشَطرين الأولين من الرباعية فقال إننا جِئنا أطهاراً كالهواء فاكتسبنا الوضَر كالتُراب، وكُنّا وادِعين كالماء بَرداً وسلاماً فأصابنا الغَمُّ كالنار -ثُم فَصلَ المعنى على وجهٍ آخر في الشَطرين الأخيرين. ويقول المعرّي في معنى الرباعية:

أخوكِ مُعَذَّبٌ يا أُمّ دفرٍ *** أظَلّتْهُ الخطوبُ وأرهقَتهُ
وما زالتْ معاناةُ الرّزايا *** على الإنسانِ، حتى أزهَقَته
إذا خُشِيَتْ لشَرٍّ عَجّلَتهُ؛ *** وإنْ رُجيَتْ لخَيرٍ عوّقَته
حَياةٌ، كالحِبالةِ، ذاتُ مكرٍ *** ونفسُ المرءِ صَيدٌ أعلَقَته
سقَتهُ زمانَهُ مَقِراً وصاباً، *** وكأسُ الموتِ آخِرُ ما سقَته

أُمُّ دفر: الدنيا، المَقِر، بكسر القاف: المر أو الحامض.

(١٩٨) قال المعرّي:

رَبِّ متى أَرحلُ عن هذه الـ ***دنيا، فإني قَد أطلتُ المَقام
لَم أدرِ ما نَجمي، ولكِنَّهُ *** مُذْ كانَ في النَّحْسِ جَرى وإستَقام
والعيشُ سُقمٌ مُنصِبٌ للفَتى *** والموتُ يأتي بِشَفاء السقام

(١٩٩) قال المعرّي: في معنى الشطر الأول من الرباعية:

نقمتُ الرِضا حتى على ضاحك المزنِ *** فلا جادَني إلّا عَبوسٌ مِن الدَجنِ

وقال في معنى الشطر الثاني:

خَسِئْتِ يا امّنا الدُنيا، فأُفٍ لنا *** بني اللئيمةَ أنذالٌ أخِسّاءُ

وأخو الحَجى أبداً يُحارِبُ طَبعَهُ *** فَتراهُ وهوَ مُحارِبٌ كمُسالِمِ

قال في معنى الشطر الرابع:

أيُّها الدُنيا، لحاكِ اللهُ مِن رَبَّةٍ دلِّ *** ما تَسَلّى خَلَدي عَنكِ وإنْ ظَنَّ التَسَلّي
إنّي وَنفَسي أَبَداً في جِذاب *** أُكذِبُها وَهيَ تُحِبُّ الكِذاب

(٢٠٢) قال المعرّي:

وهوّنَ ما نَلقَى، من البؤسِ، أنّنا *** بنو سفَرٍ، أوْ عابرونَ على جِسرِ
متى ألقَ، مِنْ بَعدِ المَنيّةِ، أُسْرَتي *** أُخَبّرْهُمُ أني خَلَصتُ من الأسرِ
العيشُ أفقرَ منّا كلَّ ذاتِ غنًى *** والموتُ أغنى بحقٍّ كلَّ مُحتاجِ
إذا حياةٌ علينا، للأذى فَتحتْ *** باباً من الشرّ، لاقاهُ بإرتاج

(٢٠٣) قال المعرّي:

يَسارٌ وعَدْم، وإدّكارٌ وغفلةٌ *** وعِزٌّ وذِلٌّ كل ذاك غرورُ!
وكيفَ أُقَضّي ساعةً بمسرَّةٍ *** وأعلم أن الموت من غُرَمائي؟

(٢٠٥) قال المعرّي:

تلك أنباءُ أَرَتْنا عِبَراً *** مُعجباتٍ كأحاديث السَمَر
في حياةٍ كخيالٍ طارِفٍ *** شَغَل الفكر وخَلّاكَ ومَر

(٢٠٦) قال المعرّي:

أراكَ الجهلُ أنَّكَ في نعيمٍ *** وأَنتَ إذا إفتَكرتَ بسوءِ حالِ
وما سَمَحتْ لَنا الدُنيا بشيءٍ *** سوى تَعليلُ نفسٍ بالمُحالِ

(٢٠٧) قال المعرّي:

إن مَدَحوني ساءَني مَدْحَهُم *** وخِلتُ أَنّي في الثَرى سُخْتُ
جِسمِيَ أنجاسٌ، فما سَرَّني *** إنّي بِمسْكِ القَوْلِ ضُمِّخْتُ

(٢٠٨) قال المعرّي:

تعالى الله، كُمْ مَلِكٍ مهيبٍ *** تَبدَّل بعدَ قصرٍ ضيقَ لَحْدِ
لو نُخِلَ العيشُ لما حَصَّلت *** شيئاً سِوى المَوتِ يَدُ الناخِلِ!

(٢١٠) قال المعرّي:

هَبيني عشتُ عُمْرَ النِسرِ فيها *** وكانَ الموتُ آخرَ ما لَقيتُ

(٢١١) قال المعرّي:

بَطن التراب كَفاني شَرَّ ظاهِرُهُ *** وبَيّن العدْلِ بينَ العَبدِ والمالِكِ
جارانِ: مَلْكٌ ومُحتاجٌ، أَتى زمنٌ *** عَليهِما فَتساوى البؤسُ والتَرَفُ

(٢١٣) قال المعرّي:

بَلَوْتُ أمورَ الناسِ مِن عَهدِ آدَمِ *** فلَمْ أرَ هالكاً إثْرَ هالِكِ
إذا كانَ هذا التربْ يَجمعُ بَينَنا *** فَأهلُ الرَزايا مثلُ أهل المَالِكِ
وقد زعموا الأفلاك يُدرِكُها البَلى *** فإنْ كانَ حقاً فالنَجاسَةَ كالطُهْرِ!

(٢١٤) قال المعرّي:

فلا يَعْجَب بصورَتِهِ جميلٌ *** فإنَّ القُبحَ يُطوى كالجمالِ

(٢١٥) قال المعرّي:

هَب الفَتى نالَ أقصى ما يؤمّلهُ *** أليسَ راعي المَنايا خَلفَهُ حُطَمُ!

(٢١٨) قال المعرّي:

تمنَّيتُ أن الخَمر حَلَّتْ لِنَشوَةٍ *** تُجَهِّلُني كيفَ إستَقرَّت بيَ الحالُ

ولكنَّهُ يَخافُ الخَمر على عَقلِهِ فَيقول:

يَقولُ الناسُ إنَّ الخَمرَ تُؤَدّي *** بِما في الصَدرِ مِن هَمٍّ قَديمِ
وَلَولا أَنَّها بِاللُبِّ تودي *** لَكُنتُ أَخا المُدامَةِ وَالنَديمِ

على أنَّهُ يجِد دواءً آخر يُغنيهِ عنها، وهو الموت:

وأَستَشعِرُ العاقِلَ في سقْمِهِ *** أنَّ الرَدى مِمّا عَناهُ الشَفاء
إذا غَدَوْتُ بِبَطنِ الأرضِ مُضطجِعاً *** فثَمَّ أفقُدُ أوصابي وأمراضي!

(٢١٩) قال المعرّي في معنى الشطرين الأولين:

المرءُ يَقْدِمُ دُنْياهُ على خطرٍ *** بالرَّغْمِ مِنهُ، ويناآها على سَخَطِ

(٢٢١) كأن المعرّي يُعقّب على رباعية الخَيّام إذ يقول:

سَتُطْلِقُني المنيّة عَن قريبٍ *** فإني في أَسارٍ وإعتِقالِ

(٢٢٦) قال المعرّي:

أَيَأتي نَبيٌّ يَجعَل الخَمرَ طِلْقَةً *** فتَحمِلُ ثُقلاً من هُمومي وأَحزاني؟
وهَيهات لَو حِلَّت لَما كُنتُ شارِباً *** مُخَفَّفةً في الحُلْمِ كَفَّة ميزاني!

فكأن الخَيّام يُهَوّن عليهِ في هذه الرباعية عَبث الحُمَيّا بالعقولِ ما دامَت العاقبة هي الخَراب. ولكن المعرّي حَيِيٌّ مُفرِط الحَياء، مُتَوجِّس بسبب فقدان بصره. نَبَّهَهُ أحدهم مرَّةً إلى أن الدِبس قد قَطَر على ثوبِه فجعَل يمسَحهُ قائِلاً «قاتَل الله الشَره! » وأقلعَ بقيّة حياتِهِ عن أكل الدِبس. فكيفَ بهِ لا يَذعَر من عَقابيل بِنت العِنَب، ولا يَجفل من أن يكون (خربا)؟

(٢٢٨) بينما يُكثِر الخَيّام من ذِكر فضائل الخمرة يُكثِر المعرّي من ذم شرورِها وفِعلِها بالشاربها، مع أنهُ لم يَذُقها. وأَحسَبُه يَصِف ما يخشى أن يُصيبه مِن أذاها لو عاقرها. من ذلك:

تَوَخّ بهجرٍ أمَّ ليلى، فإنها *** عجوزٌ،أضلّتْ حيّ طَسمٍ ومأرِبِ
دَبِيبُ نِمالٍ، عنْ عقارٍ، تَخالُها *** بجسمك، شرٌّ منْ دبيبِ العقاربِ
ولوْ أنها كالماءِ طلقٌ لأوْجبتْ، *** قِلاها، أصيلاتُ النُّهى والتّجاربِ

(٢٣٢) قال المعرّي:

إنّ الشبيبة نارٌ، إن أرَدتَ بها *** أمراً، فبادِرْهُ إنّ الدهرَ مُطفئُها
والمرءُ في حالِ التَيَقُّظ هاجع *** يَرنو إلى الدُنيا بِمُقلَةِ حالِمِ

(٢٣٥) قال المعرّي:

نَفُرُّ مِن شُربِ كأسٍ وهيَ تتبعُنا ***كأنَّنا لِمنايانا أَحِبّاءُ
لا يَرهبُ المَوتَ مَن كانَ إمرِءاً فَطِناً *** فإنَّ في العَيشِ أرزاءً وأَحداثا

(٢٤٧) قال المعرّي:

أرى فَلَكاً ما زالَ بالخلقِ دائراً *** لَهُ خبرٌ عَنّا يُصانُ ويُخْبَأُ
غُيِّبَ مَيِّتُ فما رأتْهُ *** عينٌ سوى رؤيةَ المَنامِ!

(٢٥١) قال المعرّي:

لَو كانَ يَنطِقُ مَيّتٌ لَسألتُهُ *** ماذا أَحَسَّ وما رَأى لمّا قَدِمْ؟

(٢٦٣) قال المعرّي:

أرى الأشياءَ لَيسَ لَها ثَباتُ *** وما أجسادنا إلّا نَباتُ

(٢٨١) قال المعرّي:

أَتَترُكُ ها هُنا الصَهباءَ نَقداً *** لِما وَعدوكَ مِن لَبَنٍ وخَمرِ؟

(٣٠٢) قال المعرّي:

تَوَرَّعوا يا بَني حَوّاءَ عَن كَذِبٍ *** فما لَكُم عِندَ رَبٍّ صاغَكُم خَطَرُ!

(٣١٣) قال المعرّي:

إنّما نحنُ ف ضَلالٍ وتعليلِ *** فإن كُنتَ ذا يَقينٍ فهاتِه
وبصيرُ الأقوام مثليَ أعمى *** فَهَلمّوا في حندسٍ نتصادَمُ!

(٣١٨) قال المعرّي:

ودُنياكَ ليسَت للسرورِ مُعَدَّةٌ *** فَمَن نالَهُ مِن أهلِها فهوَ سارِقُه!

(٣٢٢) قال المعرّي:

خُذ الآنَ فيما نحنُ فيهِ، وخَلِّيا *** غَداً فَهوَ لَم يُقْدِم وأَمسِ فَقَد مَرّا؟

(٣٢٤) قال المعرّي:

وما أجسادُ هذا الخلْقُ إلّا *** عِواريٌّ المَقادِرُ لا الهِباتِ

(٣٣١) يقول المعرّي في معنى الشطر الأول:

والنَّفسُ تُفنى بأنفاسٍ مُكرَّرةٍ *** وصاطِع النار تُخْبي نورَهُ اللُّمَعُ

ولكنه لا يتفق مع الخَيّام في أن الحياة تمضي كما تُريد أن تمضيها، (كما أنَّ الخَيّام يَنكُر ذلك في رباعيات أخرى - ٣١٨مثلاً).

قال المعرّي:

يَعيشُ الفتى ما عاشَ كالضَبي، لم يُفِدْ *** بدُنياهُ إلّا أن يُعالَ ويَكبَرا
ولم يَدرِ لمّا أَن أتاها، ولا دَرى *** إلى أينَ يَمضي، فأستَكانَ مُدَبِّرا

(٣٣٣) قال المعرّي:

وإذا رَجِعتُ إلى النُهى فَذواهِبُ الـ *** أيام غير مؤمَّلٍ رجعاتُها

ويُعبّر تعبيراً رائعاً عن فَوات الزمن إلى غيرِ رَجعة فيقول:

غَدي سيوجِدُ أمسي لايُنازِعُني *** في ذاكَ خَلْقٌ، وأمسي لا يصير غدي!

(٣٣٧) قال المعرّي:

وعلمتُ قلب المَرء يغرق في هوى دنياه،*** خاب مكاتماً ومجاهرا
ماذا أفدتَ بأن أطلتَ تَفكّراً *** فيها وقد أفنيت ليلكَ ساهرا؟

(٣٥٠) كأن المعرّي يرد على الخَيّام قالته في الخمر والسماع:

فلا تُعجِبَنْكَ عروس المدا***مِ وَلا يُطِرِبَنْكَ مُغَنٍّ صَدَح!

(٣٦٠) قال المعرّي في معنى الشطر الثالث من الرباعية، ولكن من باب الإستنكار:

وتوهَّمَ الشَيب المدالفِ أنَّهُم *** لَبَسوا على كِبَرٍ برودَ شَبابِ

أما الخَيّام فقد قال ذلك إستحساناً. وقد قصَد بالشطر الرابع أن الخمرةَ تُطيل عُمر اليافع حتى يَشيخ!

(٣٦٩) المعرّي يريد لثراه بعد موته أن يقضي الطهور:

تَيَمَّموا بترابي عَلَّ فِعلُكمُ *** بعدَ الهمودِ يُوافيني بأغراضي
وإن جُعِلْتُ بِحُكم الله في خَزفٍ *** يقضي الطهورَ فإني شاكرٌ راضي

وهذا غريب من المعرّي وهو مَن نعرف كفراناً بالشرائع وإزدراءً لشعائرها، فَلعلّه قال ذلك من باب التقيّة. أو لعله قَصَد بالطَهور مُطلَق النظافة.

الفهرس

الاهداء ٥
تقديم ٧
مقدمة الطبعة الفارسية ١١
الباب الأول: الخَيّام ١٥
توطئة ١٧
الترجمة ١٨
التكرار ٢١
تَمحيص الرباعيات ٢٣
تَكتُّم الخَيّام ٢٣
إختلاط الرباعيات ٢٦
تَحريف الرباعيات ٢٩
الرباعيات الجوّالة ٣٠
الرباعيات الموسومة ٣٢
مقارنة الرباعيات ٣٧
مناقشة الرباعيات المعتمدة ٣٨
عدد الرباعيات. ٤٢
مدرسَة الخَيّام ٤٦
شعره العربي ٤٧

عقليته ٥٤
الخَيّام العالِم ٥٤
الخَيّام الفنّان ٥٧
عَقيدته ٥٩
الإلحادُ الرياضي ٦٢
مُقارنة بين زنديقين ٦٧
تناسخ الأرواح ٧٠
إلحاد وتقيّة ٧٢
الصَهباء والحَسنا ء ٧٧
الصَهباء ٧٧
الحسناء ٨٢
كَهانة وتنجيم..... ٨٦
شخصيته ٩٨
فلسفته ١٠٩
فهرس الثورة ١١٥
١- ثورة على المجتمع ١١٥
٢ - ثورة على الدجالين (من رجال الدين) ١١٦
٣ - ثورة على الدين..... ١١٦
٤- ثورة على السماء ١١٧
٥ - ثورة على الدهر والأفلاك ١١٨
٦- هل من مُنازِل؟ (ألغاز الوجود) ١١٩
٧ - ثورة على العقل ١١٩

٨ - الموت في الميدان (فَناء البَقاء) ١٢٠
٩ - فشل الثورة (مآسي الحياة) ١٢٢
١٠ - فرار الثائِر(عدم الوجود) ١٢٣
١١- في المنفى ١٢٤
١٢-ستار الخَيّام ١٣٢
الباب الثاني: صَوت الخَيّام (الرباعيات) ١٣٥
١ - ثوره على المجتمع ١٣٧
٢ - ثورة على الدجالين (من رجال الدين) ١٤٤
٣ - ثورة على الدين ١٤٨
٤ - ثورة على السَماء ١٥٤
٥ - ثورة على الدهر والأفلاك ١٦١
٦ - هَل من مُنازِل؟ (ألغاز الوجود) ١٦٣
٧- ثورة على العقل..... ١٦٦
٨ - الموت في الميدان (فَناء البَقاء) ١٧٠
٩ - فَشَل الثورة (مآسي الحياة) ١٨١
١٠ - فرار الثائر(عدم الوجود) ١٩٣
١١ - في المنفى ١٩٧
١٢- سِتار الخِتام ٢٣٨
مقارنة بين تفكير الخَيّام وتفكير المعري ٢٣٩
الرباعية ٢٤١